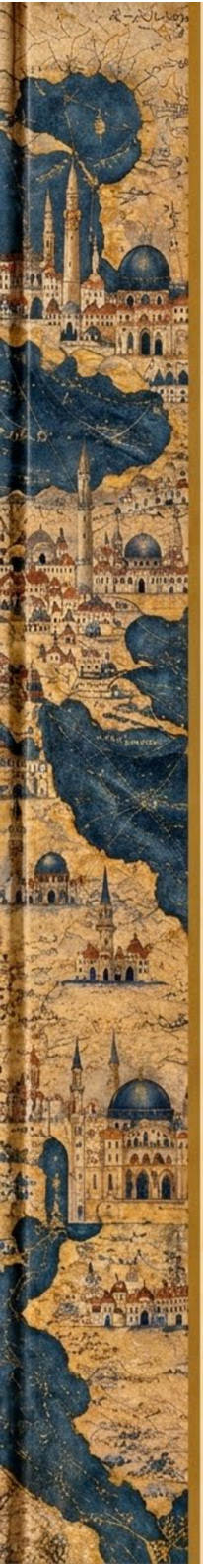
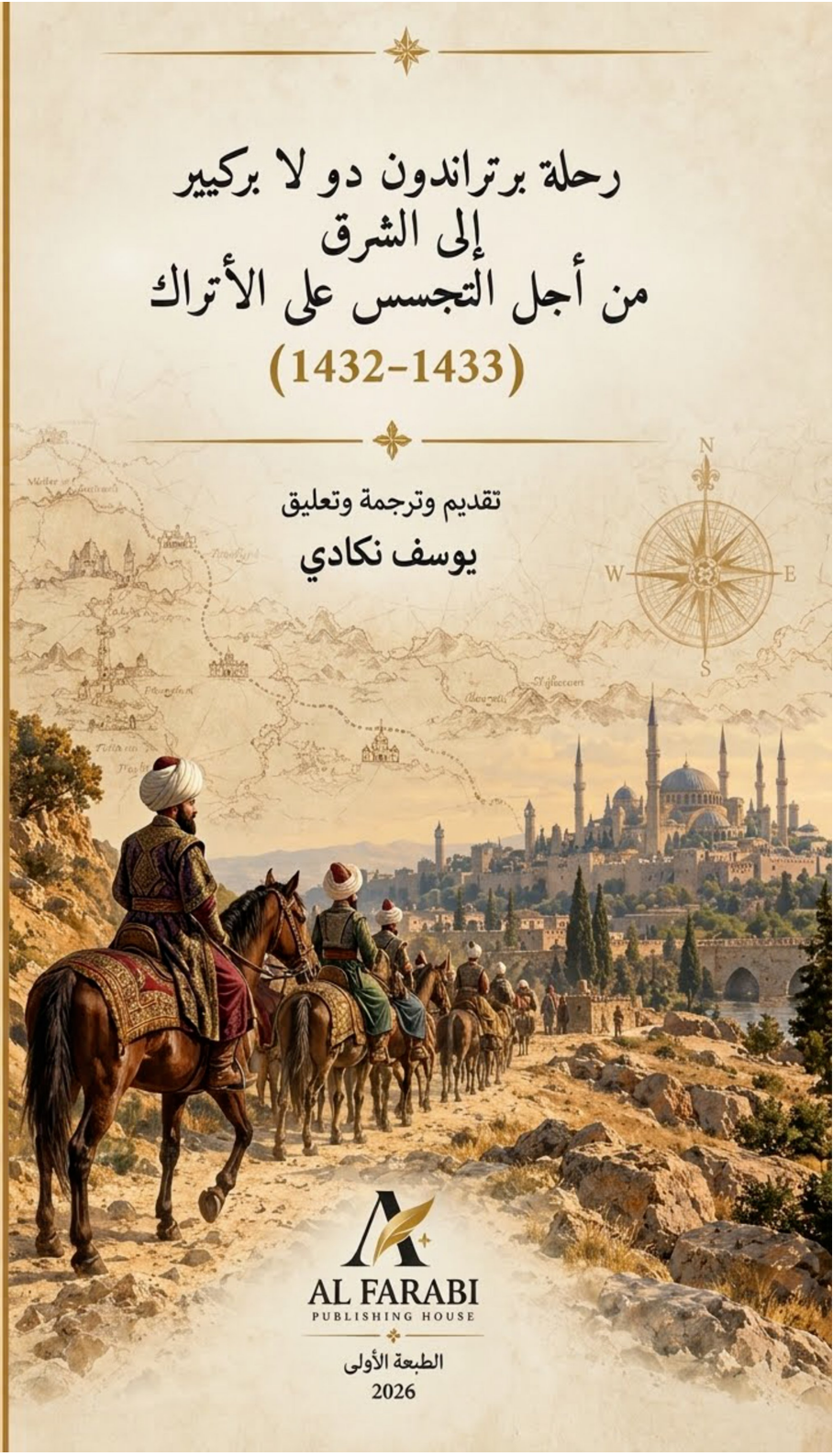
رحلة برتراندون دو لا بركيير
إلى الشرق
من أجل التجسس على الأتراك
(1432-1433)

تقديم وترجمة وتعليق

يوسف نكادي





AL FARABI
PUBLISHING HOUSE

الطبعة الأولى
2026

Copyright © Farabi Yayınevi

Date: 2026

Farabi Publishing House

Ankara, Türkiye
www.farabiyayinevi.org

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form, by photocopying or by any electronic or mechanical means, including information storage or retrieval systems, without permission in writing from both the copyright owner .and the publisher of this book

Farabi Publishers 2026 ©

The Member of International Association of Publishers

The digital PDF version of this title is available Open Access and distributed under the terms of the Creative Commons Attribution-Non-Commercial 4.0 license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/) which permits adaptation, alteration, reproduction and distribution for noncommercial use, without further permission provided the original work is attributed. The derivative works do not need to be licensed on the same terms

Bertrandon de la Broquière's Journey to the East to Spy on the Turks (1432-1433)

Edited, Translated, and Annotated by Prof. Youssef Ngadi

ISBN: 978-625-91851-9-4
DOI: 10.5281/zenodo.23424184

يوسف نكادي

رحلة بِرْتْرانْدون دو لا بْرُكْيير
الى الشرق
من أجل التجسس على الأتراك
(1432-1433)
تقديم وترجمة وتعليق

الطبعة الأولى
2026

توطئة

يتضمن عنوان هذا الكتاب مصطلح "الشرق" المقابل لمصطلح "l'Orient" المتداول في الأوساط العلمية الفرنكفونية رغم طابعه الفضفاض. لأنه يستعمل للدلالة على المناطق الواقعة شرق البحر المتوسط. كما يستعمل للدلالة على المناطق الواقعة شرق أوربا. ويتم تجزيئه في بعض الاستعمالات الى "مشارق"، منها شرق أدني وشرق أوسط وشرق اقصى. وتشمل هذه "المشارق" المناطق الممتدة من مصر حتى اليابان.

وقد ورد المصطلح في عناوين مؤلفات وضعها بعض الفرنسيين الذين قاموا برحلات خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر شملت بعض مناطق المجال المذكور. نذكر من بينها مؤلف الشاعر الروائي ألفونس دو لا مارتين (Alphonse de Lamartine)[1] ومؤلف الكاتب الشاعر جيرار لَبروني (Gérard Labrunie)، الشهير باسم جيرار دو نيرڤال (Gérard de Nerval)[2].

والجدير بالذكر، أن مصطلح "Orient" كان متداولا في فرنسا منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر، في وقت كان فيه مصطلح "outremer" (ما وراء البحر) ما يزال مستعملا من قبل المثقفين. ولذلك ارتأى محقق نص الرحلة التي سنتناولها في هذا الكتاب وضعه على غلاف الطبعة التي صدرت سنة 1892. رغم أن الرحلة تمت في أربعينيات القرن الخامس عشر. أي قبل رحلة ألفونس دو لامارتين بأربعة قرون.

ويكتسي مصطلح "outremer" في الواقع دلالة "جيوسياسية". وقد استعمل في الأوساط الفرنسية منذ أواخر القرن الحادي عشر للدلالة على

---

[1] - قام برحلة الى "الشرق" بين يوليو 1832 وشتنبر 1833. ودون مشاهداته وانطباعاته في كتاب صدرت طبعته الأولى سنة 1835 تحت عنوان:

Souvenirs, impressions, pensées et paysages pendant un voyage en Orient, 1832-1833, ou Notes d'un voyageur.

[2] - قام بدوره برحلة الى "الشرق" بين دجنبر 1842 ودجنبر 1843 ودون مشاهداته وانطباعاته في كتاب صدرت طبعته الأولى سنة 1851 تحت عناون:

Voyage en Orient.

المناطق الواقعة ما وراء البحر المتوسط والتي أضحى بعضها خاضعا لفرنسا بعد اندلاع الحملة الصليبية الأولى. ثم أخذ استعماله يشمل منذ مطلع القرن الرابع عشر، كل مناطق افريقيا وآسيا وأمريكا الواقعة ما وراء البحر أو المحيط. ومن ضمنها مناطق أوربية أضحت تحت سيادة العثمانيين بعد قيام دولتهم.

وبناء عليه، فإن المناطق، الممتدة من مصر حتى الجزيرة العربية، التي ساد فيها الاسلام بعد ظهوره، وتلك التي دخلت الى حضيرته خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، تندرج ضمن المجال الموسوم "بالشرق" أو ذاك الموسوم "بما وراء البحر".

وقد شكلت معظم الحواضر والقرى الواقعة في المناطق التي ساد فيها الاسلام بعد ظهوره، أهم المحطات التي شد اليها الرحال كثير من مسيحيي فرنسا منذ القرون المسيحية الأولى. ثم أنضافت اليها بعد مطلع القرن الرابع عشر حواضر وقرى المناطق التي شملها الاسلام على يد العثمانيين.

ومن المفيد التذكير بأن هذه الأخيرة كانت مزارا بالنسبة لهم، وبالنسبة لعموم المسيحيين، قبل أن تندرج ضمن حضيرة الاسلام. ثم تزايد الاقبال على زيارتها بعد ذلك لأنها كانت تمثل مناطق جذب على الدوام. فضلا عن كونها أصبحت تنتمي "لشرق قريب" من مواطن أولائك المسيحيين.

وقد دون عدد كثير ممن زاروا حواضر وقرى "الشرقين" "القريب أو البعيد"، مشاهداتهم في مؤلفات أخذت تشغل منذ سنوات حيزا مهما في قائمة الكتب المعتمدة من قبل الباحثين العرب في علوم الإنسان والمجتمع. لكونها تزخر بمعلومات متنوعة بالغة القيمة. كما أنها تسمح للباحث بالنظر الى موضوع بحثه، في مرآة الآخر. ولا داعي لتبيان ما ينطوي عليه هذا النظر من فوائد علمية ومنهجية جمة.

ويبدو أن هذا الاهتمام، لم يعد اليوم حكرا على الباحثين أو المؤسسات الجامعية ومختبرات البحث التابعة لها، بل انخرطت فيه أيضا مؤسسات وهيئات ثقافية مستقلة حملت على عاتقها مهمة جمع النصوص الرحلية ونشرها بما فيها النصوص الأوربية التي شرعت في تعريف قراء العربية بنماذج منها.

والملاحظ أن العناية بالمؤلفات التي وضعها الرحالة الفرنسيون ظلت مقتصرة على تلك التي كتبت خلال القرن التاسع عشر، نظرا لكثرتها ولارتباطها بظاهرة الاستعمار التي شكلت الموضوع الأكثر تناولا. وقليلا

ما شملت العناية مؤلفات السفر التي تهم الفترة الممتدة بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر.

أما المؤلفات التي كتبت قبل القرن السادس عشر، فلا يعرف عنها القراء شيئا تقريبا. اذ لا زالت لم تلق بعد من يقوم بنقل بعضها الى اللغة العربية. كما أنها لا تعتمد في الأبحاث الجامعية الا نادرا.

ومن بين هذه المؤلفات على سبيل المثال، مصنفان يتناولان وقائع رحلتين الى الشرق قام بهما رجلان نبيلان من رجال السياسة كانا مقربين من دوق بورگونيا (la Bourgogne)، فليب الطيب (Philippe le Bon). يدعى الأول گِيبير دو لانوى (Guillebert de Lannoy). ويسمى الثاني بِرْتراندون دو لا بركيير (Bertrandon de la Broquière).

قام الأول بعدة رحلات داخل أوربا وخارجها بين سنتي 1399 و1450. من بينها رحلة الى الشرق سنة 1421. بينما قام الثاني برحلة الى الشرق بين سنتي 1432 و1433.

وقد دون كل منهما مشاهداته في مؤلف. نشر الأول ببلجيكا سنة 1840 تحت عنوان:

Voyages et ambassades de Messire Guillebert de Lannoy 1399-1450,

ونشر الثاني بفرنسا سنة 1892 تحت عنوان:

Le Voyage d'Outremer de Bertrandon de la Broquière premier écuyer tranchant et conseiller de Philippe le Bon, duc de Bourgogne (1432-1433).

ارتأينا، بحكم اهتمامنا بقضايا العصر الوسيط، ترجمة نموذج منهما والتعليق على بعض مضامينه. ويتعلق الأمر برحلة برتراندون دو لا بركيير. مع أن الضرورة تقتضي ترجمتهما معا لكون شخص واحد بعينه، أوعز القيام بهما، في وقت متقارب. ولكون المعلومات التي يتضمنانها تتكامل فيما بينها. ولكون الدافع للقيام بهما كان واحدا. وهو الاستخبار أو التجسس.

نروم من وراء هذا العمل، اطلاع الباحثين وجمهور القراء العرب على فحوى مؤلف متميز ينتمي لأدب الرحلة الأوربية الى الشرق. يسمح بالاطلاع على تداعيات الحروب الصليبية وعلى موقف بعض قادة أوربا من التوسع العثماني. كما يتيح امكانية تكوين فكرة عن منظومة الأفكار والقيم

التي كان يتبناها المثقفون ورجال السياسة في القرن الخامس عشر عن المجال وعن الإنسان في بعض مناطق دار الاسلام. كما نروم من ورائه اثراء الجناح الخاص بكتب الرحلة في المكتبة العربية.

والله ولي التوفيق

وجدة حاضرة زيري بن عطية
في 16 شوال 1447
الموافق 04 أبريل 2026

مقدمة

ذكر الباحث جبور الدويهي في معرض حديثه عن "الرحلة وكتب الرحلات الأوربية الى المشرق حتى نهاية القرن الثامن عشر"[1]، أن عملية نشر كتب الرحلات تراجعت في فرنسا بعد منتصف القرن الثامن عشر لأن القراء الفرنسيين أصبحوا يعرفون عن المشرق كل شيء تقريبا[2]. ودعم ما ذهب اليه بما كتبه جون دو لا روك (Jean de la Roque)[3] في كتاب "رحلة الى سوريا وجبل لبنان": "لن أقول هنا شيئا خاصا حول مدينة طرابلس، لأنها أصبحت اليوم معروفة تماما من قبل الأوربيين بسبب العدد الكبير من كتب الرحلات الى الشرق"[4].

ويفيد ما ذكره جبور الدويهي وما كتبه جون دو لا روك، بأن مؤلفات الرحالة الفرنسيين الى الشرق كانت كثيرة خلال القرن الثامن عشر. حتى انها بلغت حد "التخمة"، ولذلك اخذ الناشرون يتراجعون عن وضعها رهن اشارة القراء. ثم استعادت عملية النشر توهجها خلال القرن الموالي حين أخذت الرحلات تتم بالموازاة مع تنامي حركة الاستعمار.

ويبدو في اعتقادنا أن "التخمة" التي حدثت بعد منتصف القرن الثامن عشر تمثل تتويجا لتزايد حدث منذ مطلع القرن السابع عشر وفق إفادات أحد الباحثين، الذي يذكر أنه تم طبع ما ينيف عن مائتي نص من النصوص الرحلية التي تمت الى "الشرق" خلال هذا القرن، من ضمنها عدد كبير من النصوص الفرنسية[5].

---

[1] - مقال صدر له بمجلة الفكر العربي، العدد 32، أبريل-يونيو 1983، ص.ص. 58-69.

[2] - نفسه، ص. 62.

[3] - رحالة وصحفي وأديب فرنسي. توفي سنة 1745. قام برحلة الى الشرق بين سنتي 1708 و1710.

[4] - وردت القولة في الجزء الأول، ص. 4 من رحلته الموسومة ب:
Voyage de Syrie et du Mont-Liban, Editions Herman Uytwerf, Amsterdam, 1723, 2 volumes

[5] - Thierry Hentsch, L'Orient imaginaire. La vision politique occidentale de l'Est méditerraneen, Paris, Les Éditions de Minuit, 1988, p. 124.

ومعنى ذلك أن الرحلة كانت تندرج ضمن تقاليد واهتمامات عامة وخاصة الفرنسيين الذين جبلوا على حب السفر منذ القدم. فارتادوا الآفاق، فرادى أو جماعات.

وقد حطوا الرحال بمناطق كثيرة من أوربا وشمال افريقيا وآسيا. ولكن الأرض المقدسة كانت تمثل أهم نقطة استقطاب بالنسبة لهم منذ القرون المسيحية الأولى.

فرحل اليها عدد كثير منهم قبل اندلاع الحروب الصليبية كما وضح ذلك الباحث ليدوڤيتش لالان (Ludovic Lalanne) في مقال مطول انجزه في أواسط القرن التاسع عشر[1]. ذيله بجرد كرونولوجي لأسماء أبرز رجال الدين ورجال السياسة والفرسان والمفكرين المسيحيين، ومن ضمنهم الفرنسيين، الذين زاروا الأرض المقدسة، والشرق عموما، منذ القرن الثالث حتى القرن الحادي عشر. وعاد ميخائيل ماك كورميك (Michael Mc Cormick) لتأكيد هذه الحقيقة في بحث نشره سنة 1999. ودعم تلك الحقيقة بمعطيات رقمية حول عدد الحجاج المسيحيين الذين زاروا القدس خلال القرنين الثامن والتاسع وحول نسبهم المائوية[2].

والراجح أن وتيرة تلك الرحلات كانت ترتفع خلال فترات السلم بين المسلمين والمسيحيين. كما حدث مثلا خلال فترة حكم الامبراطور شارلمان والخليفة هارون الرشيد، اللذين ساد الود بينهما وتبادلا السفارات والهدايا. فشجع ذلك الود كثيرا من مسيحيي غالة (فرنسا) على الرحلة الى المشرق الاسلامي من أجل الحج أو التجارة[3].

وانتهى زمن الود بين القائمين بالأمر. وبدأ زمن العداء بعد قيام دولة السلاجقة. ثم تحول العداء الى اصطدام تجسد في سلسلة الحروب الصليبية. وكان من المنتظر أن تتوقف، رحلات المسيحيين، ومن ضمنهم الفرنسيين،

---

[1] - يحمل عنوان:

"Des pèlerinages en Terre sainte avant les croisades", in, Bibliothèque de l'École des Chartes, Paris,1845- 1846, Tome 2, pp.1-32.

[2] - أنظر بحثه الموسوم ب :

"Les Pélerins occidentaux à Jérusalem, VIIIe-IXe siècles", in Voyages et voyageurs à Byzance et en Occident du VIe au XIe siècle, Liège, Presses Universitaires de Liège, 1999.

[3] - أنظر:

- Dom Martin Bouquet, Recueil des historiens des Gaules et de la France, Paris, les Libraires associés, 1744, tome V, p. 126.

وكذلك بحث ميخائل ماك كورميك الذي يفيدنا بأن عدد "المسافرين" المسيحيين الى الأرض المقدسة تضاعف أربع مرات خلال القرن التاسع مقارنة مع القرن السابق.

الى الأرض المقدسة والى الشرق عامة. ولكن ذلك لم يحدث. فالحملات الصليبية كانت في حد ذاتها شكلا من أشكال الرحلة بالنسبة للقادة المدنيين والعسكريين والمحاربين وكذلك بالنسبة للمتطوعين ورجال الدين الذين كانوا يرافقون تلك الفئات. وكان عدد من هؤلاء ينتهزون فرصة وجودهم بالمنطقة، فيتبركون بزيارة المواقع المقدسة. ومنهم من كتب عن زيارته لها في مصنف.

نذكر هنا على سبيل المثال، الراهب والإخباري فوشي الشارتري (Foucher de Chartres) الذي كان من أبرز المتحمسين للحرب الصليبية. رافق بودوان الأول (Baudoin Ier)[1]، الذي تولى حكم قمطية الرها سنة 1098، وقام خلال مقامه بتلك الديار بزيارة بيت المقدس وتحدث عن تلك الزيارة في مؤلف[2]. وعلى غراره، رافق رجل الدين والإخباري إرنول (Ernoul) سيده القائد بليان دو ابلان (Balian d'Ibelin) الى الأرض المقدسة. ومن المحتمل ان يكون قد شارك معه في وقعة حطين سنة 1187. وقد تحدث عنها وعن سقوط مملكة بيت المقدس في اخباريته[3]. كما خص مدينة الخليل بوصف وجيز في نص مستقل[4].

وبموازاة تلك الزيارات، التي كانت في حدذاتها رحلات، تخللت الحروب الصليبية رحلات بالمعنى المتعارف عليه، قام بها عدد من رجال الدين ورجال السياسة والفرسان والمفكرين. بعضهم اكتفى بزيارة الأرض المقدسة، وبعضهم أدرج ضمن رحلته مناطق اخرى. ودون عدد منهم مشاهداته في مؤلف. نذكر من بينهم على سبيل المثال: غليوم الروبروكي (Guillaume de Rubrouck) الذي زار امبراطورية المغول بين سنتي 1253 و1254 ودون مشاهداته في مؤلف: "سفر في امبراطورية

---

[1] - نبيل فرنسي. شارك في الحملة الصليبية الأولى وأسس قمطية الرها سنة 1098. وتولى حكم مملكة بيت المقدس بعد اخيه گودفروى (Godefroy) الذي سنعرف به لاحقا.

[2] - Histoire des croisades par Foucher de Chartres, édition et traduction François Guizot, Collection des mémoires relatifs à l'histoire de France, Paris, J-L-J. Brière Libraire, 1825.

[3] - Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier, éditée par Louis. de Mas-Latrie, Société de l'histoire de France, Paris, 1871.

[4] - Fragments relatifs à la Galilée, in Itinéraires à Jérusalem et description de la terre Sainte aux XIe-XIIe et XIIIe siècles, publiés par Henri Michelant et Gaston Raynaud, Genève, Imprimerie Jules Guillaume Fick, 1882, p.p. 55-86.

المغول"[5]. وجون دو ماندوڤيل (Jean de Mandeville) أو جون البورگوني، الفارس الطبيب، الذي قام برحلة الى مصر والهند والصين بين سنتي 1322 و1356. وعاد الى فرنسا ليحرر مشاهداته في كتاب يعرف بكتاب "عجائب العالم"[1].

وبعد منتصف القرن الرابع عشر، بدأ الوضع الجيوسياسي في التغير بظهور قوى اسلامية صاعدة تمكنت من طرق أبواب أوربا. وكان من الممكن أن يفضي ذلك الى تراجع الرحلات الى الشرق ومن ضمنه الأرض المقدسة، ولكن المسيحيين ظلوا يشدون اليهما الرحال كما كان الأمر من قبل. وربما أكثر من ذي قبل.

وقد أكد بيير- ڤانسون كلَڤوري (Pierre-Vincent Claverie)[2] أن "مئات" الرحالة المسيحيين جابوا مناطق الشرق بين سنتي 1300 و1500. من بينهم 447 رحالة دونوا نصوصا تتضمن مشاهداتهم. ومن بينها نصوص وضعها رحالة فرنسيون كأوجيي دو أنڤلير (Ogier d'Anglure) الذي زار الأرض المقدسة في بحر سنة 1395. ودون مشاهداته في كتاب: "السفر المقدس الى أورشليم (القدس)"[3]. وكوبار دو ڤلين (Coppart de Velaine) الذي قام برحلتين الى القدس. الأولى بين سنتي 1423 و1424، والثانية بين سنتي 1431 و1432. ودون كسابقيه ومعاصريه مشاهداته في كتاب: "الحج الى الأرض المقدسة"[4].

---

[5] - Guillaume de Rubrouck, ambassadeur de Saint Louis en Orient, récit de son voyage, trad. Fr., Louis de Backer, Paris, Ernest Leroux, 1877.

[1] - Le livre des merveilles du monde, édition critique, Christiane Deluz, Paris, CRNS, 2000.

[2] - أنظر مداخلته الموسومة ب:

"Les relations islamo-chrétiennes à l'aune du récit de pèlerinage de Jacques
de Vérone (1335)".

وقد شارك بها في ندوة دولية صدرت أعمالها تحت عنوان:

Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk eras, Uitgeverij Peeters, Leuven-Paris-Walpole, MA., 2010, tome VI, pp. 191-207.

[3] - Le saint voyage de Jérusalem, Paris, Bureau de la Bibliothèque Catholique de voyages et de romans, 1858.

[4] - Le pélerinage du tournaisien Coppart de Velaine en Terre sainte (1423-1424 et 1431-1432), Valentiennes, Presses Universitaires de Valenciennes, 2007.

ولكن بعض تلك الرحلات أخذت تنحوا منحى جديدا. اذ لم يعد جميع الرحالة، من رجال دين وفرسان ونبلاء ورجال سياسة ومفكرين، يذهبون الى الشرق من أجل الحج أو من أجل التجارة أو من أجل التعرف على عوالم جديدة، وإنما أخذ بعضهم يذهب اليها من أجل الاستطلاع و"الاستخبار" لحساب بعض الملوك والأمراء المسيحيين. وتأكد هذا المنحى بعد مطلع القرن الخامس عشر. ولكن هذا الأمر لا يعني أن هاجس الاستطلاع أو"الاستخبار" كان غائبا تماما عن رحلات القرون السابقة.

فقد أضحى معروفا اليوم، أن بعض الرحلات التي قام بها رجال دين وفرسان قبيل اندلاع الحروب الصليبية أو خلال مجرياتها، كانت من أجل "الاستخبار". وتمت بايعاز من ملوك فرنسا وأنجلترا. وقد توقفت سوزان بربارا ايجينتون (Susan Barbara Edgington) عند تلك التي واكبت الحملة الأولى[1].

واستمر هذا النوع من الرحلات خلال القرون التي استغرقتها الحملات الصليبية. حيث جاب رحالة مناطق كثيرة في الشرق، بأمر من بعض من كانوا يمارسون السلطة في أوربا، لجمع معلومات حول جغرافية تلك المناطق وحول مناخها ونظمها السياسية والعسكرية ونمط عيش سكانها وما الى ذلك قصد تنفيذ مشاريع عسكرية. ويكفي أن نذكر في هذا المجال أن غليوم الروبروكي، الذي ذكرنا اسمه فيما مضى، شد الرحال الى امبراطورية المغول بأمر من ملك فرنسا لويس التاسع[2]. وحين عاد قدم له تقريرا عن رحلته يتمثل في الكتاب المشار اليه من قبل.

يذكر غليوم في مقدمة هذا الكتاب:" قلتم لي، وأنا أودعكم [قبل السفر]، بأن أكتب لكم واصفا كل شيئ أبصرته بين التاتار. وطمأنتموني بألا أخشى أن أكتب بشكل مستفيض. إني أنفذ ما أمرتموني به بنوع من التوجس والخجل، لأنني لا أجد الكلمات المناسبة التي أتوجه بها لجلالتكم"[3].

---

[1] - أنظر مداخلتها الموسومة ب:
"Espionage and military intelligence during the first cruasade 1095-99"
وقد شاركت بها ضمن كتاب جماعي تحت عنوان:
Crusading and warfare in the Middle Ages. Realities and representations. Ess- ays in honour of John France, Edited by Oxford University and Nottingham Trent University, 2014, pp. 75-85.

[2] - حكم بين سنتي 1226 و1270. اشتهر بالنبل والعفة والتدين فلقب بالملك القديس. قام بدور مهم في الحملات الصليبية. اذ قاد الحملة السابعة، ثم الحملة الثامنة التي توفي أثناء قيادته لها وهو يدخل مدينة قرطاج التونسية.

[3] - رحلته السالف ذكرها، طبعة 1877، ص. 3 وص. 4.

ولا بأس من التنبيه، بأن عمليات "الاستخبار" التي كانت توكل من قبل الملوك لبعض الساسة أو الفرسان، كان يقوم بها كذلك أفراد آخرون (رجال دين أو تجار) من تلقاء أنفسهم. دون أن تسند لهم من قبل سلطة دينية أو سياسية. فكانوا يدونون مشاهداتهم ويعرضونها بعد ذلك على احدى تينك السلطتين[1]. ولم تكن تتلوها حملات عسكرية حتما. بل قد تتلوها دسائس على سبيل المثال أو يتلوها دعم لقوى معينة ضد السلطة المركزية في الكيان السياسي الذي تم فيه "الاستخبار".

ورغم أن بعض ملوك غرب أوربا استعملوا الاستخبار أو الاستعلام كأداة إبان فترات الصراع فيما بينهم أو كأداة في علاقاتهم مع العالم الاسلامي، فلا نعتقد أن النشاط "الاستخباراتي" أخذ صبغة تقليد متبع من قبل جميع الملوك وفي مختلف الممالك. كما لا نعتقد أنه كان مؤطرا أو ذا طابع مؤسساتي كما حدث منذ مطلع الأزمنة الحديثة. ونختلف مع ما قال به بعض الباحثين في هذا الصدد.

فقد ذهبت أود سيريي (Aude Cirier)، في مداخلة شاركت بها في ملتقى علمي عقد سنة 2007[2]، الى القول بأن بعض القائمين بالأمر في الغرب الأوربي الوسيط كانوا يسخرون التجسس على نطاق واسع لخدمة ممالكهم واماراتهم. وإن حكام كمونات ايطاليا، ما قبل القرن الرابع عشر، جعلوا منه أحد الركائز التي استندوا عليها في بناء كياناتهم السياسية.

---

[1] - من بين النماذج التي يمكن الاستدلال بها في هذا الصدد "رحلة" الايطالي ايمانويل بيلوتي (Emmanuel Piloti) الذي كان يمتهن التجارة. واستقر في مصر مدة تزيد قليلا عن 22 سنة (بين 1395 و1419). قام خلالها بأسفار هنا وهناك. مارس خلال مقامه بمصر التجارة. واغتنى وأضحى له نفوذ في البلاط. واشتغل "جاسوسا" من تلقاء نفسه. فجمع معلومات كثيرة حول طبيعة مصر وحول النشاط التجاري بها وحول نظامها السياسي. كما اقترح مشروعا لغزوها. ودون كل ذلك في كتاب التمس من البابا، أو من أي رجل سلطة مسيحي، استغلال مضامينه. والتفكير جديا في شن حملة صليبية للسيطرة على مصر باعتبارها المدخل الى الأرض المقدسة. وبعرف هذا الكتاب ب:

Traité d' Emmanuel Piloti sur le passage en Terre sainte (1420), publié par Pierre-Herman Dopp, Louvain et Paris, Nauwelaerts, 1958.

[2] - هي المداخلة الموسومة ب :

"La face cachée du pouvoir. L'espionnage au service d'Etat (s) en construction en Italie à la fin du Moyen Age (XIIIe - fin XIVe siècle)", in L'envers du décor. Espionnage, complot, trahison, vengeance et violence en pays bourgui-gnons et liégeois, 48è rencontre du Centre Européen des Etudes Bourguigno- nnes, Vol. 48, Publications du Centre Européen des Etudes Bourguignonnes, 2008.

وعلى غرارها أكد بينوا ليثوني (Benoît Lethenét)، في كتاب اصدره في يونيو 2019[1]، أن "الإستعلام" كان من بين الأدوات التي استعملها دوق بورگونيا يوحنا الأول (Jean Ier) في الصراع الذي اندلع بين دوقيتيه ودوقية اورليان عند أواخر القرن الرابع عشر. وقد ساندته البورجوازية في هذا الصراع. وخاصة بورجوازية مدينة ماكون (Mâcon) التي انخرط عدد من افرادها في "شبكة استعلامات" كانت تمد رجالات الدوقية بالمعلومات. وقد تطورت تلك الشبكة مع مرور الوقت حتى كادت أن تصبح "جهازا"[2].

وعلى أي، فإن الأمر الذي نستطيع تاكيده، هو أن البعد الاستخباراتي أو الاستعلاماتي أصبح حاضرا بقوة في بعض الرحلات التي قام بها فرنسيون الى الشرق بعد مطلع القرن الخامس عشر. وأبرزها رحلتا كل من گيبير دو لانوى وبرتراندون دو لا بركيير السابق ذكرهما.

ومن المفيد التذكير بأن الرحلتان تمتا بأمر من فليب الطيب الذي كان يحكم دوقية مستقلة عن مملكة فرنسا. ولكنه كان أحد أفصال ملكها. كما تمتا بتزكية من ملكي فرنسا وانجلترا. وحررتا بلغة واحدة كانت متداولة في بورگونيا وفرنسا. ولذلك لا نجد ما يمنع ادراج الرحلتين ضمن رحلات الفرنسيين.

وقد شاءت الظروف التي كانت تمر بها كل من مملكتي فرنسا وأنجلترا، خلال القرن الخامس عشر، أن يصبح فليب الطيب أبرز زعماء ذلك القرن تحمسا لخوض الحرب المقدسة. فأمر الرجلان بالرحيل الى الشرق قصد تحيين معلوماته عن هذه الربوع وعن الأتراك العثمانيين المتحكمين في مقدراتها في سياق الإعداد لتلك الحملة التي كان يمني النفس بخوضها على رأس مسيحيي أوربا.

والجدير بالإشارة في هذا المقام، الى أن موقف فليب الطيب لا يمثل حالة فريدة، رغم أنه كان يحكم دوقية مستقلة كما ذكرنا. بل نعتقد أنه يجسد موقف القائمين بالأمر في فرنسا عامة. اذ أنهم نصبوا أنفسهم حماة للمسيحيين وللمؤسسات المسيحية في الشرق منذ عهد شارلمان. حتى أن أحد

---

[1] - Espions et pratiques du renseignement. Les élites mâconnaises au début du XVe siècle, Stasbourg, Presses Universitaires de Strasbourg, 2019.

[2] - أنظر الفصل الرابع من الكتاب.

الباحثين زعم بأنه (أي شارلمان) "كان حاميا للأرض المقدسة"[1]. وظل الساسة لفرنسيون بعد ذلك أبرز المتحمسين للحملات العسكرية التي سيرها المسيحيون نحو الشرق. فلم يكن لهم من منافس في أوربا سوى ملوك أنجلترا. لذلك تزعموا الحروب الصليبية. فكان القمط ثم الدوق، كودفروى دو بوييون[2] (Godefroy de Bouillon)، أول قائد لأول حملة صليبية. كما كان أول من حكم مملكة بيت المقدس من المسيحيين بعد تلك الحملة[2]. وبعده، قاد الملك لويس التاسع بنفسه الحملتين السابعة والثامنة.

وعلى كل، فإن الحملات العسكرية التي قام بها القائمون بالأمر في بوركونيا- فرنسا القرن الخامس عشر[3]، أو تلك التي فكروا في القيام بها ولم ينفذوها، تمثل حلقة في سلسلة تلك الحملات التي انطلقت منذ وقعة بلاط الشهداء (بواتيي) سنة 114 هجرية/732 ميلادية.

وبالمثل تعد الرحلات التي قام بها الرحالة البوركونيون أو الفرنسيون من أجل الاستطلاع والاستخبار احدى الوسائل التي استعملت في الحملات العسكرية المشار اليها. وتمثل رحلة برتراندون دو لا بركيير إحداها.

سنخصص هذا الكتاب لهذه الرحلة ولصاحبها. وسنوزع صفحاته الى مجموعة فصول. سنخصص أولها للتعريف بالرحلة وبصاحبها. وسنوضح في الفصل الثاني داعي "الاستخبار" أو "التجسس" الذي كان وراء القيام بها والسياق التاريخي الذي تمت فيه. وسنتتبع في الفصل الثالث مسار الرحلة من خلال ترجمة النص برمته. وسنخصص الفصل الرابع للتعقيب ولإبداء ملاحظات حول ما اورده الرحالة من ملاحظات وانطباعات. وخاصة ما له صلة وثيقة بموضوع الرحلة كانطباعاته حول بعض رجالات السلطة الذين رآهم عن كثب، وأبرزهم السلطان مراد الثاني، وملاحظاته حول النظام السياسي والعسكري العثماني في عهد هذا السلطان. وملاحظاته حول

---

[1] - Louis-Hugues Vincent,"Le protectorat de Charlemagne sur la Terre Sainte", Revue Biblique (1892-1940)، Vol. 36, no 2, 1927, pp. 237-242.

[2] - فارس فرنسي نبيل. كان يحكم دوقية لوثرنجيا السفلى حوالي سنة 1087.شارك في الحملة الصليبية الأولى بين سنتي 1096 و1099. وحكم على إثرها مملكة بيت المقدس. وتوفي بها في شهر يوليوز سنة 1100. أنظر في ذلك على سبيل المثال لا الحصر مؤلف:

- Pierre Aubé, Godefroy de Bouillon, Paris, Fayard, 1985.

[3] - سنتحدث بايجاز أحيانا أو باسهاب أحيانا أخرى عن تلك الحملات في الفصول الموالية. نود فقط أن نشير هنا بأن أهمها حدثت على مشارف القرن الخامس عشر. وتمثلت في حملة نيكوبوليس الشهيرة (1396). أما تلك التي حدثت خلال القرن الخامس عشر، فتمثلت في حملة 1441 وحملة 1444- 1445 وحملة 1464 التي لم تسمح مستجدات بتنفيذها.

التحصينات العسكرية على طول الطريق البري الذي سلكه خلال العودة الى موطنه. وسنخصص حيزا للتعقيب على انطباعاته حول الحواضر والقرى التي زارها في فلسطين وبلاد الشام ومنطقة الأناضول وحول مجتمعات تلك الحواضر والقرى خلال زمن الرحلة.

الفصل الأول
في التعريف ببرتراندون دو لا بركيير ورحلته

أولا: في التعريف ببرتراندون دو لا بركيير

ولد برتراندون دو لا بركيير حوالي سنة 1399 أو سنة 1400 ميلادية في أحد حصون گويبانا (la Guyenne) (Guiana)[1] الواقع حاليا ضمن مقاطعة أعالي نهر الگارون (département de la Haute-Garonne). وينحدر من أسرة معروفة في المقاطعة، ولكن لم يكن لها حضور وازن زمن ولادته.

فقد أوردت كتب الاخباريات التي تناولت الأحداث التي شهدتها دوقية بورگونيا خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر[2]، وكذلك المعاجم التي يعرف واضعوها بالأعلام[3]، اسمه ومعلومات عن أسرته. ولكنها لا

---

[1] - مقاطعة فرنسية. تقع في الجنوب الغربي بين أكيتانيا وأكسيتانيا. أصبحت دوقية منذ أبريل 1229. وعاصمتها بوردو.

[2] - من أهمها:

- La Chronique de Enguerrand de Monstrelet (mort en 1453), publiée par Louis Claude Douët d'Arcq, Paris, Jules Renouard Libraire, 1857, 6 tomes.
- La Chronique des ducs de Bourgogne de Georges Chastellain (mort en 1475), publiée par Jean Buchon, Paris, Verdière Libraire, 1827, 2 tomes.
- La Chronique de Mathieu d'Escouchy (mort en 1482), publiée par Gaston du Fresne de Beaucourt, Paris, Jules Renouard Libraire, 1863-1864, 3 tomes.
- Les Mémoires d'Olivier de La Marche (mort en 1502), publiés par Henri Beaune et Jean d'Arbaumont, Paris, Jules Renouard Libraire, 1883-1888, 4 vol.

[3] - من بينها:

- Biographie universelle ancienne et moderne, ouvrage collectif en plusieurs tomes, Supplément, tome 59, Paris, Louis Gabriel Michaud, Libraire, 1835, p. 286.
- Dictionnaire des orientalistes de langue française, ouvrage collectif sous la direction de François Pouillon, Paris, les Editions Carthala, 2012, pp. 112-113.

تتضمن أية إشارة عن طفولته وعن بداية شبابه حتى سنة 1421 حين اقتحم الحياة العامة بانضمامه الى خدام بلاط فليب الطيب (Phlippe le Bon) دوق بورگونيا[1] بين سنتي 1419 و1467. فقد عينه ضمن "خَدَمَة المائدة". وهم الأشخاص الذين يسهرون على إعداد المائدة التي يجلس اليها الدوق لتناول الوجبات اليومية. وكان برتراندون دو لا بروكيير مكلفا، ضمن هذا الفريق، بمهمة تقطيع اللحوم الموضوعة في الصحون قبل أن يتناولها الدوق. وظلت هذه المهمة مرادفة لاسمه. فعرف "ببرتراندون دو لا بركيير أول قاطع لفليب الطيب" (Bertrandon de la Broquière premier écuyer tranchant de Philippe le Bon).

ومن المفيد التذكير، بأن لفظة "écuyer" بالفرنسية و"squire" بالأنجليزية، مشتقتان من لفظة "سْكوتَرْيوس" (scutarius) اللاتينية التي استعملت منذ العصر القديم. وكانت تطلق على الفتيان الذين يحملون دروعا ويشكلون فيلاقا من حرس الامبراطور[2]، ثم أصبحت تطلق في العصر الوسيط على الفتيان الذين يحملون دروع الفرسان أو رماحهم. وتدخل هذه المهمة في إطار التداريب التي كان يتوجب عليهم القيام بها في انتظار التحاقهم بفئة الفرسان الذين أضحوا يمثلون خلال العصر الوتلك الحقبة الشريحة السفلى في الطبقة الأرستقراطية.

ولكن برتراندون دو لا بركيير لم يكن يحمل درعا أو رمحا، وإنما كان يحمل سكينا يستعمله في قطع اللحوم التي توضع في الصحن على مائدة الدوق وكذلك اللحوم التي توضع في صحون الضيوف بمناسبة المآدب التي يقيمها الدوق. وقد مكنته تلك المهمة من العيش في البلاط. فأبان عن مؤهلات غير عادية جعلته يكسب ثقة الدوق ورضاه. فأدرجه بعد فترة وجيزة ضمن خاصته. ثم أضحى أحد مستشاريه. وفي سنة 1423 كلفه بمهمة سرية لدى كل من قمط فوا (Foix)، بجنوب فرنسا، وملك ناڤار بشبه جزيرة أيبيريا. ثم عهد له بعد ذلك بمهام أخرى خاصة. وفي شهر فبراير من سنة 1432 ميلادية /835 هجرية، كلفه القيام برحلة استطلاعية الى الشرق قصد جمع معلومات عن الأتراك (تحت ستار أداء مناسك الحج). فدون خلال تلك الرحلة مشاهداته في كراسة. وبعد فترة من عودته، قام باستنساخ محتوى الكراسة في مصنف بامر من الدوق.

---

[1] - سنعرف بفليب الطيب وبدوقية بورگونيا لاحقا.

[2] - أنظر مادة "écuyer" في موقع:
Centre National des ressources Textuelles et Lexicales
https://www.cnrtl.fr/lexicographie/%C3%A9cuyer/0

يفيدنا شارل شيفر محقق ذلك المصنف، أنه اطلع على احدى وثائق حسابات دوقية بورگونيا. وقد ورد فيها أن تعليمات صدرت للآمر بالصرف في الدوقية، "بأن يصرف لبرتراندون دو لا بركيير مبلغا ماليا قدره 200 ليرة (livres) من القطع الكبرى الفلاندرية، لشراء كسوة تجعله يبدو في زي محترم للقيام بسفر بعيد كلفه الدوق القيام به"[1].

استغرق ذلك "السفر البعيد" ثمانية عشر شهرا. عاد بعده الى حاضرة الدوقية. فكرمه فليب الطيب وأجزل له الصلات العينية والنقدية. ومن بينها مبلغ مالي قدره 800 ليرة (livres).

وفي سنة 1435، عينه ضمن الوفد الذي سافر الى مدينة آراس (Arras) لإجراء مفاوضات مع ملك فرنسا شارل السابع قصد ارساء علاقات ودية بين مملكة فرنسا ودوقية بورگونيا بعد عداء دام عدة سنين.

وقد استغرقت تلك المفاوضات فترة امتدت بين الثالث عشر من شهر فبراير ومطلع شهر غشت. قام خلالها برتراندون دو لا بروكيير بدور متميز. وانتهت بتوقيع اتفاقية أراس الشهيرة التي وضعت حدا للصراع بين البورگونيين والأرمنياكيين (les Armagnacs). كما ظلت بورگونيا بموجبها دوقية مستقلة على أساس أن يكون دوقها فليب الطيب فصَلا للملك شارل السابع.

وبعد العودة الى حاضرة الدوقية، نال برتراندون دو لا بركيير حظوة من الدوق فليب الطيب نظير دوره في تلك المفاوضات، بأن عينه قائدا للحامية العسكرية المكلفة بحراسة حصن مرسيني- لي نونان (Marciny-les- Nonains) والمعروف أيضا بحصن مرسينياكوس (Marciniacus). ويقع على الضفة اليمنى لنهر اللوار على الحدود مع دوقية البوربون (le Bourbon) [2].

وكان من تداعيات اتفاقية أراس، أن أصبحت العلاقات جد ودية بين دوقية بورگونيا ومملكة فرنسا. إذ ازدان بعدها يوم 4 فبراير 1436 فراش الملك شارل السابع بمولود جديد ذكر، فسماه فليب. وكان الدوق فليب الطيب، الذي أُطْلِق إسمُه على المولود، أول المدعوين لحفل العقيقة. فبعث مرة أخرى برتراندون دو لا بركيير الى باريس محملا بالهدايا الملوكية. ومن ضمنها لوحة من ذهب مرصعة بالحجارة الكريمة هدية للملكة وقرنا

---

[1] - وردت الإفادة في الصفحة 17 ضمن مقدمة شارل شيفر محقق رحلة برتراندون دو لا بركيير الموسومة "بالسفر ما وراء البحر". وسنحيل على نص الرحلة منذ هذا الهامش بهذا العنوان.

[2] - أنظر مقدمة شارل يشفر، ص. 18.

(un cornet) مصنوعا من الذهب ومرصعا بالحجارة الكريمة هدية للمولود الجديد. ومبلغا من المال هدية للمشرفات على تربيته[1].

وتوالت نجاحات برتراندون دو لا بركيير الذي سطع نجمه في القيام بالمهمات الدبلوماسية والتوسط، باسم دوق بورگونيا فليب الطيب، لفض النزاعات بين بعض أقماط مملكة فرنسا. بل نجح أيضا في مآزرة ملك فرنسا إثر أحداث الفتنة التي تزعمها بعض الأقماط ضده في بحر سنة 1440. فأثار اعجاب الأعداء قبل الأصدقاء. فأخذ المتمردون يلتمسون منه التوسط لدى شارل السابع ليصفح عنهم.

وفي أعقاب كل مهمة، كان الدوق فليب الطيب يهب برتراندون دو لا بركيير الصلات ويغدق عليه الأموال بسخاء[2].

وفي سنة 1442 أشرف الدوق شخصيا على عقد قران برتراندون دو لا بركيير بإحدى بنات السنيور جون (Jean) الذي كان ثريا. وبعد وفاته، ورثت عنه ابنته ثروة عقارية طائلة. فأضحى برتراندون دو لا بركيير، بحكم هذا الزواج، أحد أكبر الملاكين العقاريين في دوقية بورگونيا. فارتقى الى طبقة النبلاء دون أن يكون سليل أسرة نبيلة.

وفي أواخر شهر شتنبر من السنة الموالية لعقد قرانه، توفي قائد حامية حصن روبِلْمُنْد (Rupelmonde)، الواقع جنوب غرب الأراضي المنخفضة على ضفاف نهر ايسكو (Escault)، فلم يجد الدوق فليب الطيب أجدر من برتراندون دو لا بركيير، الذي كانت له تجربة سابقة في هذا المضمار. فعينه خلفا للقائد الراحل.

فأصبح بموجب هذا المنصب العسكري، يرافق فليب الطيب في الحملات العسكرية التي خاضها. ومن بينها تلك التي قام بها سنة 1452 لإخماد انتفاضة سكان مقاطعة گاند (Gand)، الواقعة حاليا ضمن ممتلكات مملكة بلجيكا. كما حضر في بحر شهر يوليوز من السنة الموالية، رفقة المقربين من الدوق فليب الطيب، المراسيم التي نظمت لتلاوة نص البيان على ممثلي سكان المقاطعة عقب اخماد تلك الانتفاضة.

واستقر برتراندون دو لا بركيير بهذا الحصن. وأخذ يميل أكثر الى حياة الدعة والاهتمام بأسرته وممتلكاته. ولكن اسمه عاد لى الواجهة سنة

---

[1] - نفسه، ص. 19. وكذلك اخبارية انگيرا ن دي مونسترلي:
Enguerrand de Monstrelet (mort en 1453), Chronique, publiée par Louis Douet d'Arcq, Paris, Jules Renouard, 1857, Tome V, p. 217.

[2] - يورد محقق "السفر ما وراء البحر"، بالعودة الى سجل حسابات دوقية بورگونيا، المبالغ التي كان يتلقاها برتراندون دو لا بروكيير عقب كل مهمة.

1455، حين أصدر اليه الدوق فليب الطيب أمرا بتحرير ما دونه عن رحلته في كتاب. فقام بالعملية وسلم للدوق نسخة من الكتاب سنة 1457.

ويبدو غريبا كيف أن الدوق الذي كلف برتراندون دو لا بركيير القيام بهذه الرحلة، تأخر كل هذه المدة بعد عودة الرحالة ليأمره بتسليمه نصا مكتوبا حولها. وكان الرحالة قد اكتفى باحاطة سيده علما بمجرياتها وبنتائجها حين قابله بعد العودة مباشرة.

وكان من الممكن أن يكون برتراندون دو لا بركيير قد نسي أشياء تتعلق بالرحلة حين شرع في تحرير نصها. ولكن لحسن الحظ، ظل محتفظا بكراسة كان يسجل فيها كل شيئ خلال المدة التي استغرقتها رحلته.

وعلى كل، انتهت حياة برتراندون دو لا بركيير الحافلة، بوفاته بمدينة ليل الفرنسية في اليوم التاسع من شهر مايو سنة 1459.

ثانيا: في التعريف برحلته

تعرف رحلة برتراندون دو لا بركيير اختصارا باسم: "السفر ما وراء البحر لبرتراندون دو لا بركيير" (Le Voyage d'Outremer de Bertrandon de la Broquière). صدرت نسخة حديثة منها بمدينة تولوز الفرنسية سنة 2010 بقلم الباحثة إلين باصو (Hélène Basso) التي قامت بنقل نص الرحلة الى اللغة الفرنسية المستعملة حاليا انطلاقا من النسخة التي نشرها شارل شيفر (Charles Schefer). وكان هذا الأخير قد نشر تلك النسخة سنة 1892 تحت عنوان طويل مؤلف من شقين: شق رئيسي مكتوب بخط سميك وشق فرعي مكتوب بخط رقيق. وقد صاغ ذلك العنوان على النحو الآتي:

السفر ما وراء البحر لبرتراندون دو لا بركيير

أول قاطع ومستشار فليب الطيب دوق بورگونيا

Le voyage d'outremer de Bertrandon de La Broquière

Premier écuyer tranchant et conseiller de Philippe le Bon Duc de Bourgogne

وتحمل نسخة 1892 رقم 12 ضمن سلسلة "نصوص السفر والوثائق التي تخدم تاريخ الجغرافية منذ القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن السادس عشر". وهي سلسلة كان يشرف عليها شارل شيفر. ونص الرحلة محرر بما يسمى بالفرنسية الوسطى (le moyen français) التي كانت متداولة زمن

المؤلف. ويقع هذا النص في 323 صفحة من القطع الكبير. من ضمنها مقدمة طويلة في 73 صفحة بقلم المحقق شارل شيفر وفهرس خاص بالأعلام والمواقع من 48 صفحة.

اعتمد شارل شيفر في انجاز تحقيقه على أربع نسخ مخطوطة من الرحلة. توجد ثلاث منها في الخزانة الوطنية بباريس.

تحمل النسخة الأولى رقم 9087. وتتضمن صفحتها الأولى ديباجة تفيد بأن النسخة مهداة للدوق فليب الطيب. وقد ورد ذكر هذه النسخة فعلا في قائمة الجرد الخاصة برصيد خزانة دوقية بورگونيا من المؤلفات والوثائق، وهي القائمة التي تم تحريرها سنة 1467. ثم ورد ذكرها أيضا في القائمة التي وضعت بمناسبة عملية الجرد التي تمت سنة 1487.

وتحمل النسخة الثانية رقم 5639. وقد ورد ذكرها هي الأخرى في القائمتين السالف ذكرهما.

وتحمل النسخة الثالثة رقم 5593. ويذكر شارل شيفر أن مصدرها مجهول. وتختلف عن النسختين السابقتين في كون صفحتها الأخيرة تحمل تاريخ وفاة مؤلف النص.

وتوجد النسخة الرابعة بخزانة الأرسنال بباريس. وتحمل رقم 4798. وهي نسخة في حالة جيدة كما يذكر شارل شيفر. واجهتها مزينة برسمين ملونين وكبيري الحجم نسبيا. كما أنها مذيلة بتاريخ الانتهاء من النسخ (17 شتنبر 1460). وتتضمن أربع لوحات تجسد مناظر مختلفة. بينما لا توجد هذه اللوحات في النسخ الأخرى.

استهل شارل شيفر مقدمة تحقيقه بالقول بأن رحلة برتراندون دو لا بركيير هي واحدة من بين ثلاث رحلات قام بها فرنسيون الى الشرق خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر. الأولى قام بها نمبار دو كومو (Nompar de Caumont)[1] سنة 1418. والثانية قام بها گيبير دو لانوى[2] سنة 1421.

---

[1] - رحالة فرنسي من أصل نبيل توفي سنة 1428. قام برحلة الى القدس سنة 1418. وقد تم نشر نص رحلته بباريس سنة 1858 تحت عنوان:
Voyaige d'oultrmer en Jherusalem par le seigneur de Caumont l'an 1418.

[2] - ولد سنة 1386 في أحضان أسرة نبيلة. كان أخوه البكر فارسا وقائدا لفيلق من فرسان فليب الطيب. التحق بدوره بحملة السيف منذ نعومة أظافره. وكان ميالا للرحلة وحب السفر. فجمع بين خوض الحروب وارتياد الآفاق. وفي هذا الإطار رحل الى الشرق حاجا سنة 1401. ثم كلفه الدوق فليب الطيب بالقيام برحلة استطلاعية الى المشرق سنة 1421. فدون ملاحظاته التي تم نشرها كما سبق الذكر.

واستغرب كيف أن هذه الرحلة المهمة لم تحظ بعناية المثقفين الفرنسيين أو البلجيكيين. فظلت مخطوطا حبيس الرفوف لمدة طويلة. رغم أن ذكرها ورد في عدد من القوائم التي كان يضعها المكلفون بجرد رصيد خزانة دوقية بورگونيا. ومن بينها القائمة الأولى التي وضعت سنة 1467 والقائمة الثانية التي وضعت سنة 1487 وقائمة ثالثة يعود تاريخ تحريرها لسنة 1526.

ولم ينل نص الرحلة الاهتمام الا في غضون سنة 1799، حين اختار الفرنسي بيير جون- باتيست لوگران دوسي (Pierre Jean-Baptiste Legrand d'Aussy)، الباحث في تاريخ الشعر الفرنسي، نسخة، من بين النسخ الثلاث المحفوظة في الخزانة الوطنية، وشرع في ترجمتها الى اللغة الفرنسية المتداولة. ونشرها ضمن مواد المجلد الخامس من مذكرات المعهد الوطني للعلوم والفنون (Mémoires de l'Institut National des Sciences et Arts) الصادر سنة 1804. وقد نشر الترجمة تحت عنوان: "سفر ما وراء البحر وعودة من أورشليم الى فرنسا عبر البر، خلال سنتي 1432 و1433، من قبل برتراندون دو لا بركيير، مستشار وأول قاطع لفليب الطيب دوق بورگونيا".

Voyage d'outremer et retour de Jérusalem en France par la voie de terre, pendant le cours des années 1432 et 1433, par Bertrandon de la Broquière, conseiller et premier écuyer de Philippe le Bon duc de Bourgogne.

وكان قد القى عرضا في موضوع الكتاب، قبل نشره، في جلسة عقدتها "مؤسسة فرنسا"[1] (l'Institut de France) يوم 10 يوليوز 1799.

ورغم الجهد الذي بذله لوگران دوسي في تعريف مثقفي عصره وعموم القراء بكتاب قيم كانوا يجهلونه تماما، فقد اكتفى شارل شيفر بتعداد النقائص والهفوات والأخطاء التي تضمنتها النسخة التي نشرها. والملاحظ أن شيفر انطلق في تقييمه من العرض الذي ألقاه لوگران دوسي خلال الجلسة المذكورة، وليس انطلاقا من النسخة المترجمة في حد ذاتها. ورغم ذلك خلص الى القول بأن تلك النسخة لا ترقى الى مستوى العمل العلمي.

ولكنه لم ينكر بأنها لقيت اهتماما من قبل الباحث الأنجليزي طوماس جونس (Thomas Johnes) الذي عكف على ترجمتها وترجمة نص

[1] - هي مؤسسة فكرية أرقى من الأكاديمية. كانت تعنى بتطوير المعرفة في مختلف الحقول. تأسست يوم 25 أكتوبر 1795. وكانت تضم وقتها خمس أكاديميات.

العرض الى اللغة الأنجليزية. ونشرهما بهفود (Hafod) سنة 1807. وأخذ عليه شارل شيفر كونه قام بترجمة النسخة والعرض على علاتهما دون مراجعة أو تدقيق.

وأهم ما حققه إنجاز طوماس جونس، في نظر شارل شيفر، هو أنه أثار اهتمام الباحثين برحلة برتراندون دو لا بركيير. فقام ڤيڤيان دو سان مارتان (Vivien de Saint-Martin) بإدراج ملخص عنها في اثني عشر صفحة ضمن الجزء الثاني من كتابه: "وصف تاريخي وجغرافي لآسيا الصغرى" الذي أصدره سنة 1852.

وفي سنة 1855، اقتطف لويس دو ماس لاتري (Louis de Mas Latrie) نصا من رحلة برتراندون دو لا بركيير، يتعلق موضوعه بسفارة بعثها ملك جزيرة قبرص لابراهيم بك الكرماني، وأدرجه ضمن الجزء الثالث من كتابه حول "تاريخ جزيرة قبرص".

ولكن شارل شيفر أبدى أسفه لكون لا أحد من الباحثين فكر يوما في مراجعة النص وتحقيقه وإخراجه في حلة تليق بأهميته. ولذلك أخذ على عاتقه القيام بهذه المهمة. وأكد في ذات السياق بأن العناء الذي قد يترتب عن هذه المهمة يبدو هينا بالنظر لقيمة نص الرحلة ولمصداقية صاحبها ودقة المعلومات التي أوردها.

ويبدو أن شارل شيفر كان محقا فيما قاله عن قيمة كتاب"السفر ما وراء البحر"، وعن مؤلفه برتراندون دو لا بركيير. إذ أصبحا، بعد مطلع القرن العشرين، أكثر تداولا بين المؤرخين الفرنسيين الذين أنجزوا أبحاثا حول تاريخ فرنسا خلال القرن الخامس عشر أو حول تاريخ أوربا الشرقية خلال تلك الحقبة أو حول تاريخ الدولة العثمانية. كما أصبحا متداولين أيضا بين الباحثين الانجليزيين والايطاليين والبلغاريين والهنغاريين والبولنديين والروسيين والأمريكيين الذين لم يكتفوا بالإشارة لنص الرحلة ولصاحبها، وإنما اعتمدوا النص في أبحاثهم. ومنهم من قام بنقله للغة بلاده.

والغريب في الأمر أن الباحثين التركيين، الذين كان من المفروض أن ينضموا لهذه الجهود، لم يهتموا بالرحالة وبكتابه الا منذ مطلع خمسينيات القرن الماضي. فقد تحدث عنه عز الدين مِحْمِد (Izeddin Mehmed)، وعن الرحالة القرطبي- القشتالي بدرو طيفور، في مقال من ثمان صفحات نشره سنة 1951[1]. بينما أحال خليل انالجيك على رحلته في بعض المواضع

[1] - "Deux voyageurs du XV^e siècle en Turquie: Bertrandon de la Broquière et Pedro Tafur", Journal asiatique, 239, 1951, pp. 159-167.

من كتاب حول تاريخ الدولة العثمانية نشره باللغة الأنجليزية سنة 1973[1]. ونقل منها فقرة يتحدث فيها برتراندون دو لا بركيير عن بلاط السلطان مراد الثاني. ولم يتم نقل نص الرحلة الكامل الى اللغة التركية الا سنة 2000 من قبل الباحث الهان أرضا (Ilhan Arda)[2].

وشارك الباحثون العرب بشكل جد محتشم في هذه الجهود بواسطة الفلسطيني محمود زايد الذي نقل نص الرحلة الى اللغة العربية سنة 1954 نقلا عن النسخة الأنجليزية في إطار رسالة ماجستير ناقشها بالجامعة الأمريكية ببيروت. فتبين له فيما بعد أن تلك النسخة غير دقيقة. فعاد لمراجعة رسالته اعتمادا على النسخة الفرنسية التي نشرها شارل شيفر. ولكنه لم ينشر النص الكامل لرسالته الجامعية. بل اكتفى بنشر الصفحات المتعلقة بفلسطين وسوريا ولبنان في مقال مطول ضمن عدد من مجلة "الأبحاث" صدر سنة 1962[3].

---

[1] - صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب تحت عنوان:
History of the Ottoman Empire classical age, 1300 -1600.
ونقله الى اللغة العربية محمد م. الأرناؤوط. وأصدره عن دار المدار الاسلامي ببيروت سنة 2002.

[2] - Bourgogne Dükü Philippe le Bon'un müşaviri ve baş écuyer tranchant'ı Bertrandon de La Broquièréin Denizaşırı seyahati, trad. Ilhan Arda, Istanbul, Eren, 2000.

[3] - "رحلة برتراندون دي لابركيير الى فلسطين ولبنان وسورية (1432م.)"، الأبحاث، مجلة تصدرها هيئة الجامعة الأمريكية ببيروت، السنة الخامسة عشرة، الجزء الثالث، شتنبر 1962، ص.ص. 299-335.

الفصل الثاني
دواعي الرحلة وسياقها التاريخي

أولا: دواعي الرحلة

نعود للتذكير في مستهل هذا الفصل، بأن كْيبير دو لانوى انطلق الى الشرق في رحلة استطلاعية يوم رابع مايو 1421 بأمر من دوق بورگونيا فليب الطيب وبتزكية من ملكي فرنسا وأنجلترا. وكانت رحلته هي أولى رحلات القرن الخامس عشر التي صدر أمر القيام بها عن سلطة سياسية. وكان صاحب الرحلة فارسا ورحالة. خاض عدة وقائع وسافر مرارا الى بعض ممالك اوربا. كما قام "من تلقاء نفسه" برحلة حج الى القدس سنة 1401، بمعية جون دو ڤرشان (Jean de Werchin) أحد كبار قادة الجند في قمطية هينو (le Hainaut)[1].

أما برتراندون دو لا بركيير، فكان رجل سياسة في المقام الأول. ولم يكن رحالة رغم أنه قام بعدة أسفار داخل أوربا في إطار مهام دبلوماسية كلف بها. وفي بحر شهر فبراير 1432، اتجه هو الأخر الى االشرق بأمر من سيده فليب الطيب دوق بورگونيا. لم يفصح عن ذلك مباشرة، ولكنه ذكر بأن الدوق فليب الطيب هو الذي أمره بتدوين رحلته، حيث أورد في الأسطر الأولى من نص الرحلة ما يلي: "**رغبة في إثارة قلوب الرجال النبلاء الراغبين في رؤية العالم** وتحبيبه إليهم وكذلك تلبية لأمر سيدي **المبجل القوي، المهاب، فليب، الذي هو بمنة من الله دوق بورگونيا** (...)، قمت **أنا برتراندون دو لا بركيير**، المولود بدوقية گويانا (...) **بتدوين السفر المتواضع الذي قمت به انطلاقا مما احتفظت به من ذكريات ومما كنت قد سجلته من ملاحظات في كتيب احتفظت به على سبيل الذكرى**"[2].

---

[1] - أنظر:

Emile Bachet, Examen critique des voyages et ambassades de Guillebert de Lannoy (1399-1450), Bruxelles, Wouters, Raspoet et compgnies, Imprimeurs-libraires, 1843, p. 10.

[2] - أنظر السفر ما وراء البحر، ص. 1. نشير الى أن المحقق رقم مقدمة التحقيق بأرقام رومانية. ثم أعطى للنص المحقق تسلسلا مستقلا بالأرقام العربية.

ثم عاد في آخر صفحة من نص الرحلة ليذكّر القارئ بأن الدوق هو من أمره بتدوين رحلته، دون أن يفصح بأنه هو من أمره بالقيام بها. فقال: **"ألتمس من القراء ألا يعتبروا حديثي عن الدول وعن المناطق التي مررت بها أو التي ذكرتها كان من منطلق الرغبة في تحقيق المجد أو ابراز الذات، وإنما كان لأمرين: الأول هو أن كل رجل نبيل أراد الذهاب هناك، سيجدني ذكرت كل المسالك وسيكتشف إن كان ماذكرته مطابقا للحقيقة أم لا. والثاني هو أن سيدي القوي الدوق، هو من أمرني بتدوين رحلتي انطلاقا مما كنت أسجله من ملاحظات في كتيب كلما أتيحت لي فرصة الكتابة"**[1].

وكما أشار برتراندون دو لا بركيير ضمنا بأن الدوق هو الذي كلفه القيام بالرحلة، وصرح علنا بأنه هو من أمره بوضع مؤلف في موضوعها، لم ينتظر طويلا ليكشف عن دواعي تلك الرحلة. فذكر في الصفحة الثانية: **"قمت بهذا للإفادة في حالة ما إذا أراد ملك أو أمير مسيحي القيام بغزو القدس أوقيادة جيش عبر البر، أو في حالة ما إذا أراد رجل نبيل الذهاب والعودة. فسيكون على دراية بالمدن والبلدات والمناطق والأنهار والجبال والمسالك الوعرة الموجودة في تلك الدول وكذلك السادة الذين يحكمونها ابتداء من القدس حتى دوقية بورگونيا"**.

ويبدو أن الرحالة أدرك للتو أنه تسرع في الافصاح عن سر كان يجب كتمانه، لذلك حاول التراجع في الصفحة ذاتها عما قاله. فذكر: "انطلقت في سفري، الذي كان المراد منه أداء مناسك الحج في القدس، من حظيرة سيدي القوي، مدينة گاند (Gand)، التي كان مقيما بها. وكان ذلك في شهر فبراير 1432"[2].

ولكن دافع "الاستخبار" وجمع المعلومات لحساب الدوق فليب كان الدافع الأقوى من أي دافع آخر. وأفصح عنه برتراندون دو لا بركيير بصورة جلية حين حط الرحال بمدينة بلغراد. فشرد ذهنه في إحدى اللحظات وأخذ يفكر في الطريقة التي يمكن بواسطتها تخليص مسيحيي أوربا من سلطة الأتراك العثمانيين. فانبرى في تلك اللحظة للحديث عن قدرات العثمانيين العسكرية وعن الاستراتيجية الواجب اتباعها من قبل الفرنسيين والأنجليز والألمان لتحقيق المامورية المشار اليها.

---

[1] - السفر ما وراء البحر، ص. 261.

[2] - نفسه، ص. 2. ننبه بأن مؤلف الرحلة لم يذكر اليوم الذي انطلق فيه.

ثم أفصح بطريقة غير مباشرة عن الداعي للقيام بتلك الرحلة سنوات بعد عودته الى موطنه عندما ذيل نسخة الكتاب التي أعدها للدوق فليب الطيب بوثيقة تتألف من أربع صفحات في النسخة التي حققها شارل شيفر. وهي عبارة عن تقرير من وضع فارس ورد ذكره في تلك النسخة باسم "يوحنا طورزيلو" (Jean Torzelo). "كان أحد خدام الامبراطور البيزنطي يوحنا الثامن باليولوگ. وقد رحل الى حاضرة العثمانيين التي مكث فيها إثنا عشر سنة. ارتاد فيها البلاط السلطاني عدة مرات. وخبر خلال مقامه امكانيات العثمانيين العسكرية. فحرر يوم 16 مارس 1439 تقريرا باللغة الفلورنسية. توصل لفليب الطيب بنسخة منه"[1].

يتحدث "طورزيلو" في هذا التقرير عن تعداد قوات العثمانيين من الفرسان ومن المشاة وعن أسلحتهم. ويقترح الأعداد الواجب التوفر عليها من قبل المسيحيين لخوض حرب ضدهم وهزمهم للسيطرة على اليونان ومنها القدس. كما يقترح طرق توزيع أعداد المقاتلين المسيحيين عند اتجاههم الى اليونان وكذلك المسالك الواجب التوجه عبرها للوصول بأمان

---

[1] - أورد برتراندون دو لا بركيير هذه المعلومات عن المدعو جون طورزيلو في أربعة أسطر لا تسلط عليه ما يكفي من الضوء. ولذلك قمنا ببعض التحريات حول هذا الشخص. لم تفض الى نتائج ذات بال. وإن أهم ما حصلنا عليه من معلومات حوله وردت في مؤلفين. الأول من وضع:
Georges Doutrepont, La littérature française à la cour des ducs de Bougogne, Paris, Honoré Champion, 1909.
ويمثل هذا الكتاب الجزء الثامن من سلسلة: Bibliothèque du XVe siècle
والثاني من وضع:
Constantin Marinescu, La politique orientale d'Alphonse V d'Aragon roi de Naples (1416-1458), Institut d'Estudis Catalans, Barcelona, 1994.
فقد ذكر مؤلف الكتاب الأول في الصفحة 248 أن "يوحنا طورزيلو (Jean **Torzelo**) هو حاجب الامبراطور البيزنطي [يوحنا الثامن باليولوگ]. التحق بحاضرة الدولة العثمانية. وعمل لحساب سلطانها مدة اثنا عشر سنة. ونشر تقريرا بفلورنسا سنة 1440".
أما مؤلف الكتاب الثاني، فيتحدث في الصفحة 141عن شخص يسمى يوحنا طورسيلو (Jean**Torcello**) وليس طورزيلو (Torzelo). ويذكر في هذا الصدد ان الامبراطور البيزنطي يوحنا الثامن باليولوگ حاول اثارة اهتمام ألفونسو الخامس بمسالة الدفاع عن الامبراطورية. فبعث الى نابولي **جون طورسيلو** الذي كان قنصلا ممثلا للقطلانيين في القسطنطينية بين سنتي 1428 و1434.
ويبدو، أن هذه المعطيات تنطبق على الشخص المذكور في رحلة برتراندون دو لا بركيير. وأن كتابة كنيته بحرف السين هي الصواب لأن تسمية طورسيلو تطلق على جزيرة ابطالية صغيرة تقع قبالة البندقية. من المرجح جدا أن جون المذكور ينتمي اليها. وما يرجح هذه الفرضية كذلك هو أن التقرير كتب باللغة الفلورنسية. ومن المستبعد أن يكون من وضعه رجل اغريقي.

الى معاقل العثمانيين. ويشير في سياق ذلك الى إمكانية الاعتماد على المقاتلين المسيحيين المنتمين للأقاليم المسيحية الخاضعة للعثمانيين.

وقد استعان برتراندون دو لا بركيير بمن ترجم معه التقرير الى الفرنسية وأدرجه كما ذكرنا في ذيل نسخة الكتاب التي قدمها للدوق فليب الطيب. وعلق على محتواه في ضوء ما عاينه عن كثب بمناسبة رحلته. وسندرج بدورنا نص ذلك التقرير وتعقيب برتراندون دو لا بركيير عليه في أعقاب نص الرحلة كما فعل شارل شيفر.

تتضح من خلال ما تقدم، أهمية الرحلة والدواعي التي أملت القيام بها. وبناء عليه، يبدو أن المد العثماني كان يشكل خطرا داهما على أوربا. ففكر الزعماء المسيحيون عامة ودوق بورگونيا بوجه خاص، في خوض حملة عسكرية لايقافه. ولذلك أخذوا يستعدون لتلك الحملة بمختلف الوسائل بما في ذلك "الاستخبار" عن الطرف الذي سيخوضون ضده تلك الحملة وعن الميدان الذي سيشهد وقائعها.

فلا بد على هذا الأساس من تسليط الضوء على السياق الذي تمت فيه الرحلة المذكورة والذي كان وراء هذه الاستعدادات المكثفة. ذلك ما سنحاول التطرق له في الصفحات الموالية من زاويتين: زاوية المركز الذي انطلقت منه الرحلة وزاوية المجال الجغرافي الذي تمت فيه الرحلة.

1) السياق في دوقية بورگونيا والغرب المسيحي

تطلق تسمية "بورگونيا"، من وجهة نظر تاريخية، على مجال شاسع يشمل الأقاليم التي تمثل مدينة ديجون (Dijon) عاصمتها، والأقاليم المعروفة بفرانش- كونتي (la Franche-Comté) ثم الأقاليم الواقعة في غرب سويسرا الحالية. وكان هذا المجال الشاسع "من نصيب" القبائل الجرمانية المسماة بالبورغنديين (les Burgondes) الذين استوطنوه بعد أن أخذوا في الزحف تدريجيا، بمعية قبائل أخرى[1]، الى الولايات الغربية التابعة للامبراطورية الرومانية. واستغلوا في ذلك حالة التدهور والفوضى السياسية التي ظلت تتخبط فيها تلك الامبراطورية منذ القرن الثالث حتى انهيارها سنة 476.

[1] - من بينها قبائل الوندال والقوط الشرقيين والقوط الغربيين والفرنجة. نزحت من شمال اوربا الى منطقة جرمانيا التي استقرت بها ردحا من الزمن. ومنها زحفت، فيما يعرف بالموجة الأولى من غزوات القبائل الجرمانية، الى غرب أوربا.

وقبيل انهيار الامبراطورية، شرع البورغنديون في إقامة مملكة شملت إبان فترات توسعها جميع الأقاليم التي يتألف منها المجال السالف الذكر. وظلت تعرف بمملكة بورغونديا (regnum Burgondiæ)[1].

ولم يقدر لهذه المملكة ان تستمر طويلا ككيان قائم بذاته. فقد سيطر عليها الفرنجة سنة 534. وتمكنوا من إقامة مملكتهم المعروفة بالمملكة الميروفنجية. فآلت إليهم ممتلكات البورغنديين. ثم انتقلت تلك الممتلكات فيما بعد للأسرة الكارولنجية[2].

ونجح بعض ملوك هذه الأسرة في توسيع مجال نفوذهم. وكان أبرزهم شارلمان، الذي شيد امبراطورية شملت جميع أقاليم غالة وأجزاء من ايطاليا ومن جرمانيا (ألمانيا).

وبعد وفاته سنة 814، آلت الامبراطورية لوريثه الوحيد إبنه لويس، الذي عُرف، خلال فترة حكمه، بالتقي (le Pieux). وكان لهذا الأخير ثلاثة أبناء نازعه إثنان منهم السلطة وهو على قيد الحياة، بسبب عدم رضاهما على ما آل اليهما بعد عملية تقسيم ممتلكات الامبراطورية من قبل أبيهما.

وبعد وفاة الأب سنة 840، أصبح النزاع على أشده بين الاخوة الثلاث. وأفضى في نهاية المطاف الى تجزئة الامبراطورية بمقتضى معاهدة ڤردان (Verdun)[3] التي تم توقيعها في شهر غشت سنة 843.

وكان من تبعات تلك المعاهدة، أن قسمت بورغونديا التاريخية الى قسمين: قسم مكون من الأقاليم الواقعة غرب نهر الساون (la Saône)، أصبح تابعا لمملكة فرنسيا الغربية (la Francie occidentale) التي حكمها شارل الأصلع (Charles le Chauve) بين سنتي 843 و877. بينما القسم المؤلف من الأقاليم الواقعة شرق نهر الساون والرون le

---

[1] - Justin Favrod, Les Burgondes. Un royaume oublié au cœur de l'Europe, Lausanne, Presses polytechniques et universitaires romandes, 2002, pp. 57-73.

[2] - لا بأس من الإشارة الى أن بعض تلك الممتلكات، وصلت اليها الجيوش الاسلامية قبيل سنة 732. فقد نجحت في تجاوز جبال البرانس. وتمكنت من الوصول الى مشارف باريس. فسيطرت في بعض الفترات على مراكز بورغندية مثل ماكون (Mâcon) وشالون (Chalon) وأوتون (Autun). وكان من الممكن أن يستمر فيها الوجود الاسلامي لولا الهزيمة التي تكبدها المسلمون في وقعة بلاط الشهداء (Poitiers) سنة 114 هجرية / 732 ميلادية.

[3] - عن حيثيات القسمة ومعاهدة فردان، أنظر:

- Pierre Ripert, L'Empire éclaté de Charlemagne, le temps des épées. Toulouse, Privat, 2002.

-Pierre Richet, Les Carolingiens. Une famille qui fit l'Europe, Paris, Pluriel, 2012.

(Rhône)، أضحى تابعا لمملكة فرنسيا الوسطى (la Francie médiane) التي كان يحكمها لوثير (Lothaire) قبيل معاهدة ڤردان. وظل على رأسها حتى سنة 855[1].

وإن القسم الأول، أي المكون من الأقاليم الواقعة غرب نهر الساون كما ذكرنا، هو الذي احتضن دوقية بورگونيا التي يعود تاريخ نشأتها لحولي سنة 918. وقد كانت تلك الأقاليم، بين سنتي 843 (تاريخ ضمها لمملكة فرنسيا الغربية) و918 (تاريخ نشأة الدوقية)، موزعة بين عدة قمطيات يتولى تدبير شؤونها أقماط خاضعين مبدئيا للملوك الذين تعاقبوا على حكم "فرنسيا الغربية" منذ وفاة شارل الأصلع سنة 877.

وكان من بين أولائك الأقماط، المدعو ريشار (Richard). وهو سليل أسرة نبيلة كانت مستقرة بڤيينا عند ولادته سنة 858. وكان أبوه المدعو بڤين الڤييني (Bevin de Vienne) ، نسبة الى تلك المدينة، يتولى إدارة قمطية الأردين (Ardennes). بينما كان إبنه اليافع ريشار يتولى إدارة قمطية أتون (Autun). وقد استطاع مد سلطته على عدة حواضر وقرى محاذية لها. ثم أضاف اليها قمطية أوكسير (Auxerre) التي آلت اليه بعد اقترانه، سنة 888، بابنة قمطها المتوفى[2].

ويبدو أن ريشار كان حاكما محنكا. فقد أدار الشأن العام لحسابه بدراية دون أن يقطع ولائه للملوك الكارولنجيين ونجح في التصدي لغارات النورمانديين. وسعى لتحقيق العدل والمساواة بين الأهالي. فكسب قلوبهم. وأضحى يلقب بريشار العادل (Richard le justicier). فانقادت له الأمور. وبسط سلطته على سائر القمطيات المحاذية لمجال نفوذه مثل سانس (Sens) وشالون (Chalon). وتمثل هذه القمطيات جزءا من مملكة بورغونديا البائدة.

---

[1] - عن تقسيم ممتلكات بورغونديا في سياق تلك المعاهدة، أنظر:

- Joseph Calmette, Les grands ducs de Bourgogne, Paris, Albin Michel, 1949.

- Renée-Paul Guillot, Les ducs de Bourgogne, Paris, Éditions Fernand Lanore, 1998, p. 29.

[2] - أنظر:

- Edouard Clerc, Essai sur l'histoire de la Franche- Comté, Besançon, Bintot Imprimeur-Libraire, 1840, Tome I, pp. 190-200.

- Philippe Lauer, Robert Ier et Raoul de Bourgogne rois de France (923-936), Genève, Slatkine Reprints et Paris, Honoré Champion, 1976, pp. 1-8.

ونظرا لقوة شكيمته وحرصه على خدمة العرش الفرنسي، غض الملك أود الأول (Eudes I) الطرف عن الحروب التي خاضها خادم الأعتاب ريشار قصد السيطرة على بعض القمطيات. بل سمح له سنة 898 بضم جميع ما تحت يده فيما يشبه إمارة ولقبه "بماركي بورگونيا" (Marquis de la Bourgogne)[1].

وظل ريشار العادل يحمل هذا اللقب حتى سنة 918، حيث استبدله بلقب "الدوق" (Dux). واتخذ من مدينة ديجون (Dijon) المنيعة، قاعدة لكيانه السياسي[2].

وهكذا أرسى لبنات الكيان الذي سيعرف حتى نهاية القرن الخامس عشر بدوقية بورگونيا (dicatus burgundionum). فارتبط اسمه بالدوقية. وأضحى يغلب عليه بعد ذلك لقب ريشار البورگوني (Richard de Bourgogne).

وبعد وفاته سنة 921، خلفه على رأس الدوقية ابنه راوول (Raoul) الذي لم يقدر له أن يحكم طويلا. فقد توفي سنة 936 ليخلفه على رأس الدوقية أخوه هيوغ الأسود (Hugues le Noir) الذي ظلت ممتلكات الدوقية منذ بداية عهده حتى وفاته سنة 952، موضوع تجاذب بينه وبين الملوك الكارولنجيين المتأخرين.

وابتداء من مطلع القرن الحادي عشر تعاقب على حكم الدوقية رجال ينحدرون من عائلتين فرنسيتين نبيلتين هما: آل كابيت (les Capetiens) وآل ڤالوا (les Valois).

فقد بدا الكابيتيون حكمها منذ سنة 1031 في شخص روبير التقي ((Robert le Pieux الذي اجتاحت قواته أراضي الدوقية بعد ان كانت قد استولت على قاعدتها ديجون منذ سنة 1016.

ودام حكم الكابيتيين لدوقية بورگونيا حوالي ثلاثة قرون. ثم خلفهم على رأسها أدواق من عائلة آل ڤالوا. وكان أول من حكمها منهم فليب الثاني

---

[1] - ماركي، لقب قديم كان يستعمل منذ العهد الروماني ويحمل دلالات عسكرية، لأنه كان يطلق على حاكم منطقة نائية تقع في أطراف الامبراطورية. ومن ثم، فإن حامل اللقب كان يتولى القيادة السياسية والعسكرية. وظل اللقب يستعمل بنفس المعنى في العهد الكارولنجي. فكان يطلق على القمط الذي يحكم قمطية تقع في منطقة حدودية نستطيع تسميتها بالثغر.

[2] - أنظر الكتابين المحال عليهما. ولمزيد من التفاصيل، يمكن العودة للبحث المستفيض الذي انجزه جون ريشار (Jean Richard) منذ مطلع خمسينيات القرن الماضي تحت عنوان:
Les ducs de Bourgogne et la formation du duché du XIe au XIVe siècle, Paris, les Belles Lettres, 1954.

(Philippe II) الملقب بالجسور (le Hardi)، الذي اعتلى سدة الحكم بها في مطلع يونيو من سنة 1364.

وقد شمل حكمه، بالاضافة للدوقية المذكورة، بعض الجهات المحاذية لها. وحدث أن اقترن بالمدعوة مرغريتا (Marguerite)، السيدة الأرملة سليلة أسرة حاكمة ثرية. توفي أبوها لويس الثاني قمط فلاندر (la Flandre) سنة 1384. فورثت عنه جميع الأراضي التي كان يحكمها. فأخذ حكم فليب االجريئ يشمل بعد هذا التاريخ اراضي شاسعة تقع في فرنسا وهولاندا الحالية. وقد نجح في حكمها بدراية وحنكة كما يذكر الإخباري جون فرواسار[1]. فأضحت دوقيته بمثابة مملكة تضاهي مملكة غالة.

وآل حكم الدوقية بعد وفاة فليب الجسور في أواخر شهر أبريل 1404، لابنه جون الأول (Jean I) الذي أُقصِيَ منذ بداية عهده من هيئة مستشاري ملك فرنسا شارل السادس بالنظر لكونه كان ابن عم الملك فقط. ومن ثم، لم يكن بمقدوره التمتع بحضور قوي في البلاط الفرنسي على غرار أبيه. فحز ذلك في نفسه وحاول تحقيق استقلال أكبر عن مملكة فرنسا. وتجلى ذلك في اجراءات قام بها لاستعادة الاستقلالية الجبائية التي فرط فيها ابوه كثيرا، لأن أهالي الدوقية كانوا في عهد الأب، يدفعون الضرائب للتاج الفرنسي وكأن دوقيتهم جزء من مملكة فرنسا. ولذلك رفض جون الأول منذ أواخر فبراير 1405 مساهمة أهالي بورگونيا في تأدية ضريبة جديدة اقترح الملك شارل السادس فرضها على الأقاليم الخاضعة لسلطته الفعلية أو الإسمية[2]. وزاد عن رفضه، بأن أسقط بعض الضرائب عن البورگونيين وشرع في القيام بحملات عسكرية لتوسيع مجال نفوذه[3]. فساءت علاقته مع بعض المقربين من الملك، وعلى رأسهم لويس قمط أورليان (Orleans)، وهو أحد اخوة الملك. فاشتد النزاع بين الرجلين. وانتهى باغتيال قمط اورليان في أواخر

---

[1] - Jean Froissart (mort vers 1410) , Œuvres de Froissart. Chroniques, publiées par le baron Kervyn de Lettenhove, Bruxelles, Victor Devaux, 1867-1877, Vol. VX, p. 54.

ولمزيد من التفاصيل، يمكن العودة لكتاب:

Joseph Calmette, Les grands ducs de Bourgogne, Op. Cit.

[2] - Amable-Guillaume-Prospère Brugière de Barante, Histoire des ducs de Bourgogne de la maison de Valois, 1364-1477, Paris, Ladvocat, Libraire, 1826, Tome IV, Jean sans peur, p. 12.

[3] - La chronique d'Enguerrand de Monstrelet, op.cit., tome I, p. 98, p. 113, p. 120, p. 177, p. 389.

نونبر 1407، بايعاز من جون الأول[1]. فاندلعت حرب ضروس بين البورگونيين والأورليانيين وحلفائهم. فزادت هذه الحرب الأهلية، التي استغرقت حوالي ثلاثة عقود[2]، من تفاقم الأوضاع في مملكة فرنسا التي كانت تخوض حرب "المائة سنة" ضد انجلترا منذ سنة 1337. وتلقت خلالها عدة هزائم. من بينها واحدة[3] تزامنت مع وقائع الحرب الأهلية.

وانطلاقا مما تقدم، نخلص الى القول، بأن علاقة الدوق جون الأول بفرنسا تميزت بتوتر حاد خلافا للأب فليب، الذي كان من أشرس المدافعين عن العرش الفرنسي. حتى أنه كاد أن يلقى حتفه في احدى الوقائع ضد الانجليز. فنال على إثر تلك الوقعة لقب "الجسور". ومن سوء حظ الابن جون الأول، أنه أدى ثمن عدائه لفرنسا. وكان حطب وقائع الحرب الأهلية بين الأقاليم والحرب القارية بين فرنسا وانجلترا. اذ لقي حتفه مغتالا هو الآخر في أوائل شتنبر سنة 1419[4]. وشاع أن ابن شارل السابع، الذي كان مرشحا لولاية العهد، هو من دبر عملية اغتيال الدوق جون الأول.

فتولى الحكم بعده ابنه فليب الطيب، الذي يعتبر أحد أبناء دوقية بورگونيا بامتياز. فقد ولد في قاعدتها ديجون في متم شهر يوليوز من سنة 1396. وقضى ردحا من طفولته وشبابه بها. ثم اعتلى عرشها في اليوم العاشر من شتنبر سنة 1419.

ويذكر بعض الإخباريين[5] والباحثين المحدثين[6]، انه كان شديد الحب لأبيه. فترك مقتله في نفسه أثرا بالغا. وأقسم أن ينتقم له. وعاش باقي حياته

---

[1] - عن حيثيات عملية الاغتيال، أنظر اخبارية انگران (Enguerrand) التي أحلنا عليها. المجلد الأول ص.ص. 156-158.

[2] - اندلعت الحرب في أواخر سنة 1407 بعد اغتيال قمط أورليان. ولم تضع اوزارها الا بعد توقيع اتفاقية آراس يوم 21 شتنبر 1435. وقد خصص انگيران (Enguerrand) معظم صفحات الجزء الثاني من إخباريته للحديث عن اطوار تلك الحرب.

[3] - كانت الهزيمة في وقعة أزنكور (Azincourt) أو (Agincourt) التي دارت رحاها يوم 25 اكتوبر 1415.

[4] - أنظر تفاصيل العملية في اخبارية انگران السالف ذكرها، الجزء الثاني، ص.ص. 338-346.

[5] - من بينهم انگران الذي سبقت الاحالة على اخباريته:

- Enguerrand de Monstrelet, Chronique, tome II, p. 346.

[6] - من بينهم على سبيل المثال:

- Amable-Guillaume-Prospère Brugière de Barante, Histoire des ducs de Bourgogne de la maison de Valois, op.cit., Tome V, Philippe le Bon, p. 5.
- Joseph Calmette, Les grands ducs de Bourgogne, Op. Cit, p. 312.

فيما يشبه حالة حداد مرتديا قميصا طويلا أسود تعبيرا عن هذه الحالة[1].

وكان من تداعيات حادث الاغتيال المباشرة، أن ارتمى فليب الطيب في أحضان مملكة الأنجليز التي كان لها حضور قوي في فرنسا بحكم احتلالها لعدة مناطق فرنسية. فاستغل هذه الغلبة للقيام بمناورة قصد الحيلولة دون تولي ابن شارل السادس الحكم بعد وفاة أبيه. وأفضت مناورته الى إقناع الأنجليز بالضغط على الفرنسيين لتوقيع اتفاقية. وهي اتفاقية تروا (Troyes)[2] التي نصت بعض بنودها على تقديم شارل السادس لابنته كزوجة لملك أنجلترا. وعلى أحقية هذا الأخير في اعتلاء عرش فرنسا بعد وفاة شارل السادس. كما تم توقيع اتفاقية على هامشها بين هنري الخامس وفليب الطيب. تعهد هذا الأخير بموجبها بالإدانة بالولاء لملك فرنسا وبعد وفاته لملك أنجلترا. كما قدم إحدى أخواته زوجة لأحد إخوة هنري الخامس.

وأضحى فليب الطيب بمقتضى الإتفاقيتين، وما واكبهما من مصاهرات، أقوى حليف للأنجليز طيلة فترة من عهده. فسانده الأنجليز، عقب توقيع الاتفاقيتين مباشرة، في ملاحقة ابن شارل السادس. وأعانوه في السيطرة على مدينتي سانس (Sens) وملان (Melun). بينما ساند فليب الطيب الأنجليزيين في السيطرة على باريس. واشترك معهم بعد ذلك بقواته في وقائع خاضوها ضد الفرنسيين، كما فعل أبوه من قبل.

ومن المفيد التذكير بأن تلك الوقائع حدثت في سياق حرب المائة سنة التي ظلت مستعرة بين فرنسا وانجلترا منذ سنة 1337. وقد أفضت (الوقائع

---

[1] - أنظر في هذا الموضوع:

Sophie Jolivet, "La construction d'une image: Philippe le Bon et le noir (1419-1467)", in Se vêtir à la cour en Europe 1400-1815, Ouvrage collectif, Ville-neuve d'Ascq, Publications de l'Institut de recherches historiques du Septen-trion, CEGES Université de Lille, 2011, pp. 27-42.

[2] - تم توقيعها بين هنري الخامس ملك أنجلترا وشارل السادس ملك فرنسا يوم 21 مايو 1420. وكانت مذلة لمملكة فرنسا التي كانت في موقف ضعيف جدا بالنظر لكونها كانت محكومة من قبل ملك مختل عقليا. ولكونها كانت منهزمة في حربها ضد انجلترا. للاطلاع على بنودها الاتفاقية وسياقها التاريخي، يمكن العودة للعناوين التالية:

- de Barante, Histoire des ducs de Bourgogne, op. cit. Tome V, Philippe le Bon, pp. 10-11 et pp.23-36.
- Eugène Cosneau, Les grands traités de la guerre de Cent ans, Paris, Alphonse Picard, 1889.
- Jean-Marie Moeglin, "Récrire l'histoire de la Guerre de Cent Ans : une relecture historique et historiographique du traité de Troyes (21 mai 1420)", Revue historique, no 664, octobre 2012, pp. 887-919.

والحرب) الى تقوية أنجلترا رغم التكاليف العسكرية. بينما أدت الى تشرذم فرنسا. فأضحت مقسمة بين أربع مناطق نفوذ. منطقة خاضعة لملك أنجلترا، ومنطقة خاضعة لفليب الطيب، ومنطقة خاضعة لشارل السادس، ومنطقة خاضعة لابنه الهارب.

وما يهمنا، هو أن التوتر بين دوقية بورگونيا ومملكة فرنسا، كان يقتضي من فليب الطيب العمل على إرساء دعائم كيان قوي. ولذلك شرع في حشد القوات وتقوية الموارد بالموازاة مع التقرب من انجلترا. فأعاد النظر في تنظيمات الدوقية. وأحاط نفسه بمستشارين أكفاء. وعمل على تقوية قواته. التي انخرط فيها سائر نبلاء الدوقية الذين كانوا يستنفرون ما تحت إمرتهم من محاربين. فخاضت تلك القوات عددا من الوقائع اثبتت فيها جاهزيتها وقدرتها على خوض أية معركة داخل أوربا أو خارجها. فنجح فليب الطيب في بسط سلطته على عدة أقاليم تقع في فرنسا وفي الأراضي المنخفضة عن طريق الحملات العسكرية وكذلك عن طريق الشراء والمصاهرات والعلاقات العائلية. واجتهد في ارضاء زعامات تلك الأقاليم بمنحهم الهدايا الملوكية والامتيازات والألقاب. وحرص أيضا على كسب سكان الحواضر والأرياف بتجنب الشطط في استخلاص الجبايات وترشيد النفقات.

ويفيدنا هنري دوبوا (Henri Dubois) في هذا المقام، أن النظام الجبائي في دوقية بورگونيا، لم يعد يقوم منذ عهد فليب الجسور على المكوس والمغارم والضرائب المستخلصة مباشرة من سكان الحواضر والأرياف فقط، بل أضحى يقوم أيضا على الضرائب الغير مباشرة. وقد دعم فليب الطيب هذا التوجه. فأخذت الضرائب الغير مباشرة، مثل الضريبة المفروضة على مادة الملح والضرائب المفروضة على البضائع التي كانت تعرض في الأسواق[1]، تمثل قسما مهما من مداخيل الدوقية. وفضلا عن ذلك حرص فليب الطيب على الإستفادة من عائدات النشاط الفلاحي ومن عائدات المبادلات التجارية البرية والبحرية التي انخرطت فيها الدوقية بشكل فعال، مستفيدة في ذلك من موقعها كمعبر بين مختلف نواحي اوربا وبين أوربا والعالم.

---

[1] - أنظر مقاله:

"Population et fiscalité en Bourgogne à la fin du Moyen Âge". In, Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 128e année, no 4, 1984. p..553.

ولا بأس من التذكير في هذا الصدد بأن مدينتا كْاند (Gand) وبروج (Bruges) كانتا من أكبر مراكز التجارة بين اوربا وآسيا منذ قرون. وازداد ت أهميتهما في تلك التجارة في عهد فليب الطيب.

وعاد برتران شْنيرْب (Bertrand Schnerb)، ليؤكد بدوره أن دوقية بورگونيا لم تكن على درجة كبيرة من الثراء كما كانت مملكتا انجلترا وفرنسا او جمهورية البندقية. ولم يكن سكانها مصدر الثروة الرئيسي في أعين حكامها. وكان الانفاق في المجال العسكري يستنزف 60 بالمائة من ميزانيتها[1]. ورغم ذلك كانت ماليتها دائما متاوزنة منذ سنة 1384.

ومهما يكن من أمر، فالراجح أن الأدواق الأوائل من عائلة آل ڤالوا نجحوا في انشاء كيان سياسي شاسع المساحة. شمل إقليم بورغونديا، قلب مملكة البورغنديين، بالاضافة الى كل من منطقة الفلاندر والآرتوا وفرانش-كونتي وشارولي. وزاد فليب الطيب، خلال ثمان واربعين سنة من الحكم في توسعة ذلك الكيان بأن أضاف اليه أقاليم البرابنت وبيكارديا واللوكسمبورغ. كما زاد في توهج ذلك الكيان. وقد أقر معظم الباحثين المحدثين والمعاصرين بكونه كان اقوى كيان في غرب أوربا. ضاهى مملكة فرنسا. وظل منافسا وعدوا لها أمدا طويلا.

ولم تتراجع حدة العداء بين فليب الطيب وملوك فرنسا الا بعد رجوح كفة حرب المائة سنة لصالح فرنسا عقب فترة طويلة من الغلبة لصالح الأنجليز. وحدث بالتزامن مع هذا التحول، أن توفيت اخت فليب الطيب التي كانت زوجة لشقيق ملك أنجلترا، وتزايدت مطالبة الأنجليز له بالتنازل عن أراضي كانت تحت حكمه، فأخذ الفتور يدب في علاقته بهم[2] وشرع في التقرب من الفرنسيين. وانتهت محاولات التقرب بتوقيع اتفاقية آراس التي حضر ببرتراندون دو لا بركيير مراسيم توقيعها كما ذكرنا عند التعريف به. وقد تضمنت الاتفاقية عدة بنود. خصص أولها لرد الاعتبار لجون الأول والد فليب الطيب[3]. فأرست تلك الاتفاقية اسس علاقات متينة بين الكيانين. وتجسد

---

[1] - لمزيد من التفاصيل يمكن العودة لمداخلته:
"Richesse, historiographie, perception. Trois aspects d'une politique de pres -tige"
وقد ألقاها ضمن فعاليات ندوة دولية عقدت بباريس أيام 9، 10 و11 أكتوبر 2007 في موضوع:
La cour de Bourgogne et l'Europe, Éditions, Jan Torbecke Verlag, Ostfildern, 2013, pp. 55-62.

[2] - أنظر الجزء الخامس، ص. 203 وص. 205 من إخبارية انكْران (Enguerrand). التي سبقت الاحالة عليها.

[3] - نفس المصدر والجزء، ص. 155.

ذلك بعد بضعة أشهر من عملية التوقيع، حيث ضم فليب الطيب قواته الى القوات الفرنسية التي زحفت على باريس وحررتها من قبضة الانجليز[1].

ويبدو أن أحداثا كبرى تتصل بشخص الدوق جون الأول، هي التي حددت طبيعة علاقات فليب الطيب بالعالم الخارجي. ونستطيع القول بأنه صاغ تلك العلاقات تحت "يافطة الثأر".

فقد كان مقتل الأب وراء عداء الابن للفرنسيين كما رأينا. وإن هزيمة الأب في وقعة نيقبوليس (Nicopolis) سنة 1396، كانت وراء عداء الابن للأتراك العثمانيين وتحمسه لخوض حملة صليبية في المشرق. وما أتينا على ذكره في هذا الشأن هو بالذات ما يوحي به أرمون ڤرانزڤيك (Armand Grunzwweig) في مقال نشره في خمسينيات القرن الماضي[2].

ويتضح، في ضوء هذا المعطى، بأن فليب الطيب أمر برتراندون دو لا بركيير القيام برحلته بهدف تحيين المعلومات عن الأتراك العثمانيين في سياق الاستعدادات لشن حملة ضدهم كما أشرنا الى ذلك فيما مضى. ورغم أن الحملة لم تتم لاعتبارات سنوضحها فيما بعد، فإن الرحلة، وكذلك ما سبقها وما واكبها وما تلاها من اجرءات، أمور تعبر كلها عن رغبة فليب الطيب في الانتقام لأبيه وللمسيحيين من تلك الهزيمة النكراء.

ومن المفيد التذكير في هذا المقام، بأن الأتراك العثمانيين سيطروا على بلغاريا منذ سنة 1393. فخشي سجيسموند ملك هنغاريا أن تلقى بلاده نفس المصير. فأرسل مبعوثيه الى ممالك غرب أوربا لالتماس العون. فسارع فليب الجسور، دوق بورڤونيا وقتها، لتلبية النداء باسم شارل السادس ملك فرنسا. وكان هذا الأخير يعاني من اضطرابات عقلية، بينما كان فليب الجسور عمه وصيا على العرش.

ويتفق معظم الباحثين المحدثين والمعاصرين، بأن، فليب الجسور سارع لتبية النداء لاعتبارات شخصية في المقام الأول. فقد كان يسعى لبسط سلطته الفعلية على مملكة فرنسا بعد أن بات سيد دوقية بورڤونيا بدون منازع. كما كان يريد تحقيق المجد لشخصه ولأسرته بغض النظر عن مآلات الحملة[2].

---

[1] - نفسه، ص.ص. 216-217.

[2] - "Philippe le Bon et Constantinople", Byzantion, Vol., 24, no 1, 1954, pp. 47-61.

[2] - يمكن العودة بهذا الخصوص الى:

- Jim Magee, "Le Temps de la croisade bourguignonne : l’expédition de Nicopolis", in Nicopolis 1396–1996, livre sous la direction de Jacques

وعلى كل، يفيدنا الإخباري جون فرواسار المعاصر للأحداث، بأن فليب الجسور أرسل قوات تحت امرة ابنه جون الأول، الذي كان آنذاك شابا يافعا يتولى إدارة قمطية نڤيرس (Nevers) (مقاطعة نـييـڤر (Nièvre) حاليا)[1]. وانضمت للقوات الهنغارية والبورگونية والفرنسية، وحدات من بولاندا وألمانيا وبعض القطع البحرية من جنوة والبندقية. غير أن الحملة لم تحقق المبتغى. فانهزم المسيحيون على ضفاف نهر الدانوب عند ابواب نيقبوليس.

وكان المحاربون البورگونيون في مقدمة القوات المسيحية، حسب رواية فرواسار. وقد حققوا بعض الانتصارات في المناوشات الأولى وهم متجهين نحو نيقبوليس. وواصلوا التوغل في الأراضي العثمانية، منتشين بتلك الانتصارات. فوجدوا أنفسهم بغتة في مواجهة الفرسان العثمانيين الذين كانوا رابضين في مواقع متأخرة. فانقضوا عليهم وأفنوا عددا كبيرا منهم. وأسروا عددا آخر[2]. وكان من بين الأسرى عدد من نبلاء بورگونيا وعلى رأسهم القائد جون الأول. وقد توفي جملة من الأسرى. ولم يعد الأحياء منهم الى بورگونيا الا بعد أن قدم فليب الجسور للأتراك العثمانيين مبلغا ضخما[3].

وإذا كانت الانتكاسة قد خلفت أصداء كبرى في العالم المسيحي. وأضافت جرحا الى الجراح التي كان مثخنا بها من جراء الصراع العسكري والانقسام الديني والانتفاضات الاجتماعية، فقد استغلها فليب الجسور، ومن بعده جون الأول وفليب الطيب، في تلميع صورتهم وتنصيب أنفسهم في مقدمة الساعين للدفاع عن المسيحية. ويذكر برتران شنيرب (Bertrand Schnerb)، في هذا الصدد، أن دوقية بورگونيا اضحت بين سنتي 1420 و1460 إحدى أبرز الكيانات الأوربية المروجة للفكر الصليبي والمتحمسة لخوض حرب ضد الأتراك العثمانيين[4].

Paviot et Martine Chaunez-Bouikkot, Dijon, Société des Annales de Bourgogne, 1997, p. 55.

[1] - لأخذ فكرة عن تلك القوات، وعن عتادها، وعن الحملة عموما، يمكن العودة لمصنف فرواسار الذي سبقت الاحالة عليه:

Les chroniques, Tome XV, p. 225.

[2] - Froissart, Les chroniques, Tome XV, p.p. 315-320.

[3] - Ibid. p. 354.

[4] - أنظر في هذا الشأن:

- Bertrand Schnerb, L'État bourguignon, Paris, Perrin, 2005, p. 469.

- Marie-Gaëtane Martenet, "Le Récit de la bataille de Nicopolis (1396) dans les Chroniques de Jean Froissart : de l'échec à la gloire", Questes, no 30, 2015, pp. 125-139.

وإذ لم يجرؤ جون الأول، بعد عودته من الأسر، على معاودة حرب الأتراك العثمانيين خلال الخمسة عشر سنة التي قضاها على رأس دوقية بورگونيا (اي بين سنتي 1404 و1419)، فإن فليب الطيب، هو الذي أبدى تحمسا لتلك الحرب. وقد بدا يستعد لها، فيما يبدو، منذ سنة 1425 من خلال سلسلة اجراءات نجمل الحديث عنها كما يلي:

أولا: حرص أن يكون، ومستشاروه، على دراية بكل ما يتعلق بالانسان والمجال في المناطق الشرقية من دار الاسلام. ولتحقيق هذا المبتغى، أمر القيمين على خزانة ديجون، قاعدة الدوقية، بتوفير كل المصنفات التي تساعد على ذلك. ويذكر جاك باڤيو (Jacques Paviot) في هذا الشأن، أن تلك الخزانة أضحت في عهد فليب الطيب تضم أكبر رصيد من هذا النوع من المؤلفات في غرب أوربا[1].

ثانيا: قام باعادة تنظيم اسطوله الحربي والزيادة في عدد القطع التي يتألف منها بعد فشل الحصار على مرفأ كالي (Calais) الذي كان الأنجليز يتخذونه قاعدة لهم منذ سنة 1347.

ويفيدنا جاك باڤيو (Jacques Paviot) في هذا الصدد[2]، أن فليب الطيب أدرك أن من أسباب فشل الحصار، قلة عدد قطع الأسطول. ولذلك شرع ابتداء من سنة 1438 في انشاء مراكب جديدة. واسند المهمة لطاقم من البحارة البرتغاليين بالنظر لشهرة بلادهم في هذا المضمار.

ورغم الجهود المبذولة، فان الحصيلة كانت ضعيفة نسبيا وفق جاك باڤيو. لأن فليب الطيب لم يشترك سوى بقطع بحرية قليلة في حملتي 1441 و1444-1445 لمساندة مسيحيي جزيرة رودس في صد هجومين قام بهما مماليك مصر ضدها كما سيأتي الحديث عن ذلك لاحقا.

ثالثا: أصدر أوامره لبعض الأطباء والجراحين للقيام بجرد لكل الأدوية واللقاحات وأدوات الجراحة، وكل ما تتطلبه حملة عسكرية كبيرة في منطقة نائية. وظلت الوثيقة، والاستعدادات المتصلة بموضوعها طي الكتمان.

---

[1] - أنظر مداخلته الموسومة ب:

"Les nouvelles de Levant à la cour de Bourgogne"

وقد شارك بها ضمن فعاليات ندوة دولية في موضوع:

Pays bourguignons et Orient : diplomatie, conflits, pèlerinages, échanges (XIVe-XVIe siècles), Publications du Centre Européen d'Etudes Bourguignonnes, volume 56, 2016, pp. 27-40.

[2] - أنظر بحثه الموسوم ب:

La politique navale des ducs de Bourgogne. 1384- 1482, Lille, Presses Univer- sitaires de Lille, 1995.

يذكر راباح علي باشا (Rabah Ali Bacha) ولوري باڤيي (Laury Baveye) اللذان أنجزا مقالا في الموضوع أنهما اكتشفا، ضمن مجموع من الوثائق، وثيقة تتضمن الجرد المشار اليه. ولاحظا أنها لا تحمل أسماء واضعيها أو الغرض منها. واتضح لهما، بعد التحري، أن الجرد بوشر في إطار الاستعدادات للقيام بحملة صليبية. لأن سياق وضعه يؤكد ذلك. ولأن أسماء بعض الأدوية التي تتضمنها الوثيقة، لا تستعمل الا لمعالجة بعض الأمراض أو الاصابات التي تحدث في مناطق جافة أو شبه جافة[1].

رابعا: رغم أن فليب الطيب وأعوانه كانوا يتوفرون على معلومات ضافية عن المشرق من خلال المصنفات التي تم جمعها، فقد راى ضرورة بعث مخبرين الى عين المكان لتحيين تلك المعلومات. فأرسل ڤيبير دو لانوى وبعده برتراندون دو لا بركيير للقيام بتلك المهمة.

والراجح أن الأوضاع في بورڤونيا ومحيطها ظلت تحول منذ سنة 1425 دون القيام بحملة صليبية كبرى. فقد اندلعت انتفاضة عارمة في منطقة ڤاند تطلب اخمادها كثيرا من الجهد والوقت والمال والرجال والعتاد. وانضافت لتلك الانتفاضة، الحرب ضد الأرمنياكيين. ثم وقائع حرب المائة سنة التي استنزفت قوة الفرنسيين والأنجليز. كما استنزفت جانبا من قوة البورڤونيين الذين شاركوا في بعض وقائعها الى جانب الأنجليز. ثم شاركوا في وقائع اخرى الى جانب الفرنسيين بعد توقيع اتفاقية آراس.

وهكذا رأى فليب الطيب أن سنين طويلة مضت منذ اعتلائه عرش بورڤونيا، دون خوض الحرب المقدسة التي كان يرغب في خوضها. كما مضت سنون منذ عودة مخبريه بمعلومات ميدانية عن أرض المعركة وعن العدو، ولم يفعل شيئا. واكتفى بالقيام بمناوشات محدودة ضد المسلمين في مجال غير المجال الذي كان يتوق أن يخوض فيه الحرب.

فقد شاركت قواته البحرية في حملتين صليبيتين. كانت الأولى سنة 1441. وتمثلت في مد العون لمسيحيي جزيرة رودس في صراعهم ضد مماليك مصر كما ذكرنا من قبل. وساهمت في افشال هجوم قام به مماليك

---

[1] - أنظر مقالهما:

"Le mauvais coté de la croisade ? A propos d'un document établi par les chirurgiens de Philippe le Bon", Revue du Nort, no 380, 2009, pp. 491-510.

مصر قصد السيطرة على الجزيرة[1]. وكانت الثانية سنة 1444. وتمثلت في مشاركة بعض قطع الأسطول البورگوني في حملة مسيحية ضد العثمانيين. جرت وقائعها في ڤارنا (Varna). وانتهت بهزيمتهم كما حدث في نيقبوليس.

وحدثت الطامة الكبرى حين سقطت القسطنطينية في حوزة الأتراك العثمانيين. فكان لا بد عندئذ من ردة فعل في مستوى الحدث. فكان اعلان 1454 الشهير الذي صرح فيه فليب الطيب أمام الملأ عن رغبته في خوض حرب صليبية ضد العثمانيين. وكانت قد مضت وقتها حوالي احدى وعشرين سنة على رحلة برتراندون دو لا بركيير. ولكن ذلك لا يمنع، في اعتقادنا، من التطرق لذلك الإعلان الشهير. طالما أنه يندرج في إطار استعدادات الدوق لخوض الحرب المقدسة. ويسلط مزيدا من الضوء على السياق البورگوني الذي تمت في اطاره رحلة برتراندون دو لا بركيير.

تم ذلك الاعلان في إطار حفل مهيب نظمه فليب الطيب بمدينة ليل (Lille) يوم 17 فبراير 1454. حضره نبلاء الدوقية وكبار الفرسان وعدد من المدعوين من خارج دوقية بورگونيا. أراد الدوق أن تصل أصداؤه الى كافة أنحاء العالم المسيحي[2]. وتعهد خلاله بكونه على أتم الاستعداد لتخليص الأراضي المسيحية من قبضة الأتراك العثمانيين إن استنفر الفرنسيون قواتهم لتحقيق ذلك. فهلل الحاضرون وعبروا بالهتاف والإشارات عن استعدادهم للقتال تحت امرة زعيمهم[3].

---

[1] - لمزيد من التفاصيل، يمكن العودة لكتاب شريف عبد الحميد محمد عبد الهادي، نيابة طرابلس الشام في عصر سلاطين المماليك (688ه -922ه / 1289م – 1516م) دراسة تاريخية، دار التعليم الجامعي للطباعة والنشر والتوزيع، الاسكندرية، 2018، ص.ص. 58-60.

[2] - خصص الإخباري ماثيو الاسكوشي (Mathieu d'Escouchy) (المتوفى سنة 1482)، صفحات مطولة لهذا الحفل. تحدث فيها عن الأجواء التي تم فيها وعن كبار المدعوين والمدعوات الذين حضروه وعن الفضاء الذي جرت فيه مراسيم الحفل والإعلان. للاطلاع على هذه المعطيات أنظر:

Mathieu d'Escouchy, Chronique publiée par Gaston du Fresne de Beaucourt, Paris, Jules Renouard, 1863, tome II, pp. 130-135.

[3] - يفيدنا الباحث البلجيكي جورج دوتربون (Georges doutrepont) أنه اطلع قبيل سنة 1916 على وثائق لم يسبق نشرها تتضمن 112 تعهدا خطيا موقعة من قبل نبلاء من أهالي أربعة مدن بورگونية لم يقدر لهم حضور ذلك الحفل لأسباب مختلفة. فتعهدوا خطيا بمساندتهم لأية خطوة يقدم عليها فليب الطيب. أنظر إفاداته في المقال الموسوم ب:

"Une participation inconnue à la croisade de Philippe le Bon contre les Turcs", Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres, 1916, p. 268.

ورغم نية الدوق الصادقة في الدود عن المسيحية، فالراجح حسب إفادات بعض الشهود الذين عاينوا الحدث عن كثب، أن الإعلان كان ينطوي على جانب دعائي. لأن الدوق كان يعلم جيدا أن زعماء أقوى كيانات أوربا، بمن فيهم البابا نفسه، كانوا غير مستعدين للاستجابة لندائه نظرا لانشغالاتهم المحلية.

واتضح ذلك جليا في أواخر شهر ابريل من السنة الموالية حين اتجه الى راتيسبون (Ratisbonne) (أو رجنسبورگ) الألمانية لحضور أشغال إحدى دورات برلمان الامبراطورية المقدسة، واقتراح التداول في خطة موحدة لصد الأتراك العثمانيين. ولكن الإمبراطور لم يحضر اشغال الدورة لسبب غير معروف[1]. فعاد دوق بورگونيا بخيبة أمل. ثم أرسل في السنة الموالية مبعوثا عنه لحضور دورة اخرى لتلك الهيئة التداولية. فعاد المبعوث ليخبره بأن كلا من الامبراطورفردريك الثالث والبابا نيكولا الخامس غير متحمسين كثيرا للحرب الصليبية. وأبلغه أن أمراء الأمبراطورية الرومانية المقدسة متذمرون منهما نظرا لنفاقهما وحرصهما على جمع الأموال فقط[2].

وظل الدوق فليب الطيب مكتوف الأيدي حتى سنة 1464، حين دعا البابا بيوس الثاني المسيحيين لخوض الحرب ضد الأتراك العثمانيين. فاستجاب لهذه الدعوة بأن استنفر ما يناهز عشرين قطعة من أسطوله انطلقت من أحد موانئ الأراضي المنخفضة يوم 21 ماي من السنة المذكورة. وأبحرت بمحاذاة ساحل شبه جزيرة ايبيريا. ولكنها لم تصل الى أرض المعركة. لأن البابا بيوس الثاني توفي يوم 15 غشت من تلك السنة. فعادت القطع البحرية الى قواعدها.

وتوفي فليب الطيب حوالي ثلاث سنوات بعد ذلك في الخامس عشر من شهر يونيو 1467 دون أن يتحقق مسعاه.

---

[1] - توصل فليب الطيب بدعوة من الإمبراطور شخصيا لحضور أشغال تلك الدورة. فتجشم عناء السفر. وعاد خاوي الوفاض. لأن الامبراطور تغيب عن حضور الجلسة لسبب غير معروف. ولأن المتدولين تحدثوا عن كل شيئ سوى عن الحرب المقدسة. أنظر:

Verner Paravicini, "Philippe le Bon en Allemagne (1454)", Revue belge de phi- lologie et d'histoire, no 75, 1997, pp. 967-1018.

[2] - لمزيد من التفاصيل، يمكن العودة للمقال التالي:

Georges Le Brusque, "Une campagne qui fit long feu. Le saint voyage de Philippe le bon sous la plume des chroniqueurs bourguignons (1453-1464)", Le Moyen Age, Tome CXII, 2006, pp. 529-544.

2) السياق في الشرق

بدأ برتراندون دو لا بركيير رحلته الى الشرق من مدينة يافا التي وصل اليها بحرا بعد إقلاعه من ميناء البندقية ومروره بموانئ أخرى بجزيرتي رودس وقبرص.

وقد زار بعد حلوله بيافا عددا من حواضر فلسطين وبلاد الشام وديار الأتراك العثمانيين بما فيها المناطق المسيحية في أوربا التي أدرجوها ضمن ممتلكاتهم قبيل بداية الرحلة. وعاد الى موطنه سالكا الطريق البري عبر صربيا وبلغاريا والنمسا وألمانيا الى أن وصل الى فرنسا.

وبناء عليه، سنتحدث عن السياق في الشرق وفق مسار الرحلة. فحين انطلق من موطنه في فبراير 1432، كانت المناطق الواقعة بين يافا وقبينا موزعة بين ثلاث قوى سياسية وعسكرية. تتمثل الأولى في دولة المماليك المتهالكة، التي كان نفوذها يشمل مصر وفلسطين وبلاد الشام والحجاز. وتتمثل الثانية في دولة العثمانيين الصاعدة، التي كانت تحكم أجزاء من آسيا الصغرى ومن البلقان. وتتمثل الثالثة في الإمبراطورية البيزنطية المتهالكة هي الأخرى. وكانت سلطتها تشمل أجزاء من المناطق الواقعة شرق البحر المتوسط.

أ) دولة المماليك المتهالكة

حين حل برتراندون دو لا بركيير بيافا، كانت فلسطين وبلاد الشام تحت سيادة دولة المماليك البرجية التي كانت تمر بالمرحلة الأخيرة من عمرها قبل السقوط سنة 1517. وتميزت تلك المرحلة، التي ابتدأت سنة 1421، بتدهور على جميع الأصعدة كما يجمع على ذلك معظم الباحثين الذين سنحيل على مؤلفاتهم[1]. وتجلت أبرز مظاهر ذلك التدهور في ضعف السلاطين وتسلط المماليك الجلبان واستشراء الفساد في مؤسسات حاضرة الدولة كما في الولايات التابعة لها. بالاضافة الى الاضطرابات الاجتماعية وتدهور الأوضاع الاقتصادية.

---

[1] - من بينهم على سبيل المثال سهيل زكار، فلسطين في عهد المماليك. من أواسط القرن السابع الهجري الى مطلع القرن العاشر الهجري، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، بيروت، 1990. ومحمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، (648 ه - 923 ه/ 1250 م- 1517 م)، دار النفائس، بيروت، 1997. ومحمود شاكر، التاريخ الإسلامي، الجزء السابع، العهد المملوكي، المكتب الإسلامي، بيروت، 2000

وقبل القيام باستعراض وجيز لتلك المظاهر، لا بأس من الإشارة الى أن هذه الدولة المتهالكة كانت خلال فترات من تاريخها قوية مهابة الجانب. إذ يعزى الفضل لبعض سلاطينها في تحرير فلسطين وبلاد الشام من الوجود الصليبي.

فقد بدأ مسيرة التحرير الظاهر بيبرس في سنة 1263. واستكملها الأشرف خليل بن قالوون سنة 1291 باستعادة عكا قاعدة مملكة القدس اللاتينية وآخر معاقل الفرنجة في فلسطين[1]. فطهر بذلك سواحل بلاد الشام وفلسطين من الوجود الفرنجي الصليبي الذي دام قرابة قرنين. ولذلك ظل أحفاد هؤلاء الفرنجة يتوقون للعودة لهذه الديار. ومن ضمنهم فليب الطيب الذي أرسل برتراندون دو لا بركيير لاستكشاف امكانية العودة اليها في وقت تدهورت فيه دولة المماليك. وكان الغثمانيون وحدهم يشكلون القوى الواجب أخذها في الحسبان.

ولعل ما يؤكد تدهور دولة المماليك، هو أن عشرين سلطانا تعاقبوا على حكمها خلال الستة وتسعين سنة التي استغرقتها المرحلة الأخيرة من عمرها (أي بين سنتي 1421 و1517). بعضهم كان صغير السن. فاستبد الأوصياء دونهم بالسلطة. وأكثرهم كانوا ضعافا لا حول ولا قوة لهم. تحكم نفر من المتنفذين في تنصيبهم وعزلهم. حتى أن أحد أولائك السلاطين لم يحكم أكثر من ليلة. بينما حكم أحدهم ثلاثة أيام[2]. باستثناء أربعة، تراوحت مدة حكمهم بين 15 و29 سنة. من بينهم الأشرف برسباي الذي استطاع أن يحكم ستة عشر سنة بين 1422 و1438. وتزامنت زيارة برتراندون دو لا بركيير لفلسطين وبلاد الشام مع فترة حكمه.

ويجمع بعض الباحثين[3]، أن السلطان الأشرف برسباي نجح خلال عهده في اقرار الأمن والقضاء على بعض حركات التمرد في بلاد الشام. كما نجح في فتح جزيرة قبرص ومحاصرة جزيرة رودس. ولكنه فشل في تحسين الأوضاع الاقتصادية. فظلت راكدة طوال فترة حكمه رغم المحاولات التي قام بها لتنشيط المبادلات التجارية مع ممالك أوربا ومع العراق وبلاد الحجاز.

---

[1] - سهيل زكار، المرجع السالف الذكر، ص.ص. 544-556.

[2] - أنظر محمد سهيل طقوش، ص. 455.، ومحمود شاكر، التاريخ الإسلامي، الجزء السابع، ص. 70.

[3] - من بينهم محمد سهيل طقوش ومحمود شاكر الذين أحلنا على مؤلفيهما وفتحي سالم حميدي اللهيبي وفائز علي بخيت الحديدي مؤلفا كتاب جوانب من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر المملوكي "تفسير جديد"، الموصل، منشورات جامعة الموصل، 2014.

ولذلك ظلت الضرائب والمكوس والمغارم المفروضة على عامة الناس تمثل المصدر الرئيس لموارد بيت المال. بينما بدت ايرادات المبادلات التجارية[1] والغنائم الناتجة عن الحروب والحملات، غير كافية لتغطية النفقات التي كانت كثيرة. حيث كانت مبالغ طائلة تصرف في البذخ. ومبالغ اخرى تصرف في الحروب. من قبيل الحملات البحرية على قبرص أو الحروب التي خاضها لاخضاع بعض الولايات او تلك التي خاضها ردا على الغارات التي كان يشنها حاكم إمارة سيواس التركمانية على بلاد الشام.

وكان للعثمانيين نفوذ في تلك الإمارة وفي غيرها[2]. وهو الأمر الذي كان من الممكن أن يؤثر على علاقات السلطان الأشرف برسباي بالأتراك العثمانيين[3]. ولكن السلطان المملوكي حرص على أن تظل تلك العلاقات ودية. واستمرت كذلك في عهد السلطانين الظاهر جقمق والأشرف إينال. ولكن سيطرة العثمانيين على القسطنطينية مثلت بداية تحول في تلك العلاقات التي أخذت تجنح نحو العداء نظرا لاختلاف المصالح وتعاظم نفوذ العثمانيين. وتحول العداء الى صراع مكشوف عقب مساندة السلطان المملوكي الأشرف قايتباي للأمير جم في صراعه على السلطة مع أخيه بايزيد الثاني. وهدأ الصراع بعد ذلك لما ينيف عن عقدين من الزمن. ثم عاد ليطفو على السطح. وانتهى أخيرا بالاطاحة بدولة المماليك على إثر وقعة الريدانية في مطلع عام 1517[4].

ب) دولة العثمانيين الصاعدة

كان العثمانيون الذين استولوا على القسطنطينية سنة 1453 وأطاحوا بدولة المماليك سنة 1517، قد حققوا، قبل ذلك، نصرا كاسحا على المسيحيين في وقعة نيقبوليس سنة 1396. وقد وقع جون الأول أب فليب الطيب أسيرا في تلك الحرب كما ذكرنا فيما مضى. ولذلك قرر فليب الطيب رد الاعتبار لأبيه وللمسيحيين. فأخذ يستعد لخوض حملة صليبية ضد العثمانيين. وأرسل في هذا الإطار بعض الرجال المقربين منه للإستخبار

---

[1] - أنظر السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995، ص. 148.

[2] - محمود شاكر، المرجع السابق الذكر، ص. 79.

[3] - أنظر في هذا الشأن، غيثاء أحمد نافع، العلاقات العثمانية -المملوكية (868- 963 / 1464- 1517)، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 2005.

[4] - نفسه، ص. 214 وما بعدها.

عن قدراتهم العسكرية. فرحل الى ديارهم كُيبير دولانوى وبعده برتراندون دو لا بركيير. ولم يكن فليب الطيب يعلم آنذاك أنه سيكون لهم شان كبير.

والغريب في الأمر، أن العثمانيين، الذين أضحى الزعماء المسيحيون يهابونهم ويبعثون من يتجسس على قدراتهم العسكرية، كانوا قبيل قرن من رحلة برتراندون دو لا بركيير مجرد عشيرة "تتألف من أربعمائة خيمة وأربعة آلاف شخص"[1].

استقرت تلك القبيلة بعد فترة ترحال في منطقة لا تتجاوز مساحتها 2000 كلمتر مربع، تقع شمال غرب الأناضول في منخفضات جبال قرجة طاغ (Karacadağ) بالقرب من أنقرة الحالية[2].

وقد أظهر المدعو أرطغرل، الذي كان زعيم العشيرة آنذاك، موالاته لسلطان السلاجقة علاء الدين وسانده في عدة حروب. فأقطعه تلك المنطقة[3].

وآلت زعامة العشيرة بعد وفاة أرطغرل سنة 1299 لابنه عثمان الذي واصل موالاته للسلطان علاء الدين ومساندته في الحروب، فقلده منصب الإمارة وسمح له بسك عملة خاصة. فاستغل حماس مقاتلي عشيرته وأوضاع السلاجقة والبيزنطيين لتوسيع نفوذه بغرب الأناضول.

وقد قويت شوكة العشيرة بانضمام شباب المناطق التي سيطرت عليها والتحاق عدد من عناصر الجيش السلجوقي بصفوفها وفق افادات حاجي خليفة[4]. فواصل محاربو العشيرة، الذين سيعرفون بالعثمانيين، زحفهم دون ان تعترض سبيلهم قوة رادعة. فالسلاجقة دخلوا مرحلة تدهور بعد وفاة السلطان علاء الدين. بينما أخذ البيزنطيون يهملون منطقة الأناضول بسبب الحروب الأهلية التي اندلعت بين سنتي 1321 و1355[5] والتي جعلتهم يركزون جهودهم العسكرية على جبهة البلقان التي كانت تمثل مصدر تهديد

---

[1] - حسين جوكتشة وصالح كولن ولطيف جنتش، السلاطين الأوائل. عصر تأسيس الدولة العثمانية، ترجمة سمير عباس زهران، دار النيل، القاهرة، 2016، ص. 16

[2] - نفسه، ص. 16

[3] - أنظر عبد اللطيف بن عبد الله بن دهيش، قيام الدولة العثمانية، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة 1995، ص. 25.

[4] - هو مصطفى بن عبد الله، المعروف بحاجي خليفة (توفي سنة 1657)، فذلكة أقوال الأخبار في علم التاريخ والأخبار أو فذلكة التواريخ، تحقيق وتقديم سيد محمد السيد، دون ذكر مكان الطبع ودار النشر، سوهاج 2003، ص. 136.

[5] - اسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، 1995، ص. 13.

من قبل اللاتين[1]. أما المغول، فغضوا الطرف عن تحركاتهم طالما أن عثمان كان يدفع الجزية للألخانيين بانتظام[2].

فاستولى العثمانيون، تبعا لذلك، على ينى شهير (yenişehir) التي اتخذوها قاعدة لكيان سياسي على رأسه الأمير عثمان. فمثل هذا التطور، في نظر عدد من الباحثين[3]، انتقال العثمانيين من مرحلة "البداوة الى مرحلة التحضر" ومن نظام حكم العشيرة الى نظام الإمارة المركزية التي تبلورت مؤسساتها السياسية والعسكرية في عهد أورخان الذي تولى الحكم سنة 1326 بعد وفاة الأمير عثمان.

وقد كان قائدا للغزاة العثمانيين إبان فترة حكم أبيه. وهو من أشرف على اقتحام مدينة بورصة في وقت كان فيه عثمان على فراش الموت. ولم يتمكن شخصيا من فتحها بعد أن حاصرها العثمانيون مدة طويلة خلال فترة حكمه.

اتخذ أورخان من بورصة عاصمة جديدة للإمارة. وعكف على تنظيم مؤسساتها المدنية والعسكرية. فعين أخاه علاء الدين صدرا أعظم. وأقام دارا لضرب السكة. واستحدث جيشا نظاميا بعد أن كان المجاهدون المتطوعون قوام القوات العثمانية قديما.

والراجح، أن نواة جيش الإنكشارية تم وضعها في هذه الفترة بالذات. وفق شهادة لطفي باشا[4] التي أكدها حاجي خليفة[5] وأثراها بإضافات مفادها أن أبناء القبائل هم الذين كانوا قوام الجند يحشدون لخوض الحروب مقابل "درهم عثماني" لكل واحد ويمارسون الزراعة أوقات السلم. فتم توزيعهم الى وحدات: وحدة العشرة أفراد ووحدة المائة ووحدة الألف. ولما ازداد عددهم "وارتكبوا الفساد في السفر والحضر"، استقر الرأي "على جلب أولاد الكفار وضمهم الى العسكر لينالوا شرف الإسلام"[6]. ويذكر محمد فريد

---

[1] - محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة الى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس، بيروت، 2013، ص.ص. 19-20.

[2] - أحمد فؤاد متولي، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، ايتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005، ص. 36.

[3] - من بينهم على سبيل المثال لا الحصر: حسين جوكتشة وصالح كولن ولطيف جنتش وسماعيل احمد ياغي ومحمد سهيل طقوش الذين سنحيل على مؤلفاتهم في الهوامش اللاحقة.

[4] - توفي حوالي سنة 1562. وهو واضع كتاب تواريخ آل عثمان أو الوقائع التاريخية للدولة العثمانية حتى عام 961 ه./ 1553 م.، ترجمة محمد عبد العاطي محمد، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة دون ذكر تاريخ الطبع، ص. 123.

[5] - واضع كتاب فذلكة أقوال الأخيار الذي سبقت الإحالة عليه.

[6] - فذلكة، ص. 141.

بك المحامي في هذا الصدد، أن أسرى الحرب من الشباب والصبيان كانوا يؤخذون ويتم "فصلهم عن أصلهم وجنسهم ويربون تربية إسلامية عثمانية. بحيث لا يعرفون أبا إلا السلطان ولا حرفة إلا الجهاد في سبيل الله"[1]

وتزايد أفراد هذا التنظيم العسكري وتحسن اسلوبهم القتالي. وأصبحوا فيما بعد يشكلون الفيلق المركزي في الجيش العثماني الذي خاض الحروب في جبهة الأناضول كما في جبهة البلقان.

وكانت السيطرة على مدينة بورصة مدخلا نحو الاستيلاء على باقي حواضر وقلاع الأناضول التي أخذت تتساقط الواحدة تلو الأخرى. وأهم تلك الحواضر نيقية (إزنيك) التي سقطت في أيدي العثمانيين سنة 1331. واتخذها أورخان قاعدة مؤقتة لإمارته لقربها من اسطنبول التي كانت هدف العمليات اللاحقة[2]. وتمكن العثمانيون فعلا من الاستيلاء على الحواضر الواقعة في الطريق المؤدية الى اسطنبول كنيقوميديا (إزميت) التي حاصروها ثم استولوا عليها. وبعدها سيطروا على عدة حصون وقلاع.

وأصبحوا بعد هذه الفتوحات سادة غرب الأناضول تقريبا. فأخذ البيزنطيون
يتقربون منهم. حتى أن يوحنا السادس كنتاكوزين (Jean VI Cantacuzène)، الذي كان يتولى حكم الإمبراطورية آنذاك، عرض إحدى بناته على أورخان غازي للاقتران بها نظير مساعدته في وقف الغارات التي كان يشنها الصربيون على مدينة سالونيك. فاستجاب أورخان للعرض. وأصبح له بحكم هذه المصاهرة حضور في البلاط البيزنطي. كما اصبحت قواته تتوفر على قاعدة متقدمة في أوربا حين سمح له الإمبراطور بالمرابطة في قلعة جمبي (çympe)[3]. فاستطاع العثمانيون، انطلاقا منها، الاستيلاء على كّاليبولي المشرفة على بحر ايجة ومضيق الدردنيل[4]. فكان هذا العبور مدخلا نحو مرحلة جديدة من الفتوحات العثمانية.

ابتدات هذه المرحلة الجديدة مع عهد مراد الأول الذي خلف اورخان على عرش الإمارة سنة 1360. فعمل خلال السنوات الأولى من عهده على توطيد الوجود العثماني بمنطقة الأناضول. ثم ولى وجهه نحو جبهة البلقان

---

[1] - محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص. 123.

[2] - لطفي باشا، تواريخ آل عثمان، ص. 116. وحسين جوكتشة وصالح كولن ولطيف جنتش، السلاطين الأوائل، مرجع سبقت الاحالة عليه، ص. 41.

[3] - محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين، مرجع سبق ذكره، ص. 42. وعبد اللطيف الصباغ، تاريخ الدولة العثمانية، دون ذكر دار النشر ومان الطبع، 2013، ص. 10.

[4] - أحمد فؤاد متولي، تاريخ الدولة العثمانية، ص. 47.

التي واصل فيها الفتوحات التي تمت في عهد أبيه. فقاد العثمانيين الى مدينة ديدموتيقا (Didymotique) التي استولوا عليها سنة 1361. وهي السنة التي تمكنوا فيها أيضا من ضم مدينة أدرنة، عاصمة إقليم تراقيا،[1] التي أضحت، بعد أربع سنوات من سقوطها، حاضرة العثمانيين حتى سنة 1453، تاريخ سيطرتهم على القسطنطينية.

وقد حققوا هذه النجاحات نظرا لجاهزيتهم ورغبتهم الجامحة في السيطرة على مواقع متقدمة في أوربا ونظرا لتفاقم مشاكل الإمبراطورية البيزنطية وانشغال ملوك أوربا بالصراعات داخل ممالكهم أو فيما بينهم.

وحاول البابا أوربان الخامس إستدراك الموقف حين استنفر المسيحيين سنة 1364 لخوض حرب صليبية ضد العثمانيين. ولكن، لم يلب نداءه سوى الصربيون والبوسنيون والهنغاريون. فزحفوا على أدرنة. وتلقوا هزيمة نكراء على مشارفها حسب شهادة الإخباري البيزنطي دوكاس[2] الذي تطرق للحدث[3]. فاستغل العثمانيون ذلك النصر في توطيد وجودهم بمنطقة البلقان بتحصين مواقعها الاستراتيجية وبتشجيع مجموعات تركية على الانتقال من منطقة الأناضول وتعميرها. ومثل هذه السياسة كانت متبعة منذ بداية عهد أورخان. وساعدت السلاطين العثمانيين على ترسيخ وجودهم بالمدن والقلاع والحصون التي قاموا بفتحها.

ويجمع بعض الباحثين بأن الاستيلاء على أدرنة حسم الوجود العثماني في منطقة البلقان[4]، التي أصبحت تحت سيطرة العثمانيين. وقد دامت سلطتهم عليها خمس قرون. وبلغت مساحة ما كانوا يسيطرون عليه في هذه المنطقة 291 ألف كيلومتر مربع عند وفاة السلطان مراد الأول[5]. بينما لم تتجاوز مساحة ما كانوا يملكونه في منطقة الأناضول 208 آلاف كيلومتر

---

[1] - أحمد فؤاد متولي، تاريخ الدولة العثمانية، ص. 53. ومحمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص. 131.

[2] - إخباري بيزنطي مغمور. عاصر عهد الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر باليولوگ. توفي بعد سنة 1462. وضع مصنفا يتناول تاريخ البيزنطيين والعثمانيين لا يحمل عنوانا لكونه متوفر في نسخة واحدة بترت ورقتها الأولى والأخيرة. قام بتحقيقه ونقله الى الفرنسية جون ديانتيس (Jean Dayantis) في إطار أطروحة جامعية لنيل الدكتوراه. ناقشها بجامعة مونبوايي (Montpellier) الثالثة في دجنبر 2004.

[3] - Doukas, Histoire turco-byzantine, introduction, traduction et commentaire par Jean Dayantis, exemplaire dactylographié, p. 8

[4] - أحمد فؤاد متولي، تاريخ الدولة العثمانية، ص.ص. 63-64. ومحد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين، ص. 43.

[5] - يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود - يلماز أوزتونالمان، مراجعة وتنقيح محمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، إستانبول، 1988، ص. 101.

مربع[1]. ولكنهم قدموا ثمنا باهظا نظير ما تحقق باستشهاد مراد الأول في وقعة كوسوڤو ضد الصربيين سنة 1389.

ومال بايزيد الأول الذي خلفه على العرش، الى مهادنتهم. فمنحهم الحكم الذاتي مقابل التزامهم بدفع جزية سنوية واستنفار عدد من المحاربين للمشاركة في الحروب الى جانب العثمانيين. بينما ضم بلغاريا ورومانيا الى حضيرة الأملاك العثمانية.

وكان لسقوط بلغاريا صدى واسع في هنغاريا (المجر) التي استشعر ملكها سجسمند (Sigismond) الخطر الداهم. فألح في طلب العون من المسيحيين. فاستجاب لطلبه البابا بونيفاس التاسع وعدد من زعماء الممالك والإمارات الأوربية. وشنوا حربا صليبية ضد العثمانيين. انتهت بفشل ذريع في وقعة نيقبوليس التي تحدثنا عنها فيما مضى.

وشجع هذا النصرالعثمانيين على التوغل في بلاد اليونان. ثم الزحف مجددا على القسطنطينية. وكانوا على وشك اقتحامها لولا الغزو الذي تعرضت له ممتلكاتهم في آسيا من قبل المغول. فاكتفى بايزيد بتوقيع هدنة مع الامبراطور يوحنا السابع، الذي تعهد بدفع جزية سنوية للعثمانيين[2]. وانصرف لملاقاة القوات المغولية في وقعة انقرة الشهيرة. ولكنه وقع أسيرا ومات في الأسر.

وتفيد بعض الأبحاث أن مساحة ما كان يملكه العثمانيون من أراضي في أوربا، بلغت قبيل وفاة السلطان بايزيد حوالي 942 ألف كيلومتر مربع. بينما بلغت مساحة ما كانوا يمكونه من أراضي في الأناضول 500 ألف كيلومتر مربعا[3]. ومعنى ذلك أن المساحة الاجمالية للدولة تضاعفت عدة مرات عما كانت عليه عند وفاة السلطان مراد الأول.

وكان من الممكن أن تزداد ممتلكات العثمانيين في أوربا اتساعا. ولكن ذلك لم يتحقق لأن عددا من كيانات هذه القارة امتنعت عن الدخول تحت سلطة العثمانيين المباشرة مثل إمارة رومانيا وإمارة الصرب ودوقية أثينا وغيرها من الإمارات التي منحت استقلالا ذاتيا[4].

---

[1] - نفس المرجع والصفحة.

[2] - محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص. 144.

[3] - يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص. 111.

[4] - أنظر عن ذلك،

Jean-François Solnon, L'Empire ottoman et l'Europe : XIVe-XXe siècle, Paris, Perrin, 2017.

ولكن هذا التوسع وُضِع على المحك بعد وفاة السلطان بايزيد حيث دخلت الدولة في مرحلة فوضى سياسية وعسكرية بسبب الحركات الانفصالية وصراع أبنائه حول السلطة[1]. حتى استطاع أحدهم، وهو محد جلبي، حسم الصراع لصالحه سنة 1413. فقضى فترة حكمه القصيرة في اخماد الفتن واعادة وحدة البلاد الى أن وفاته المنية سنة 1421.

فخلفه على العرش، مراد الثاني الذي زار برتراندون دو لا بركيير الديار العثمانية خلال فترة حكمه. وقد أمضى مراد الثاني السنوات الأولى من عهده في التصدي لبعض المناهضين لحكمه. وكان أبرزهم دوزمة مصطفى ابن بايزيد الذي كان له نفوذ في سالونيك وأحوازها. "فاجتمع حوله خلق كثير"[2]. وسانده البيزنطيون بهدف الضغط على السلطان العثماني.

وتمكن مراد الثاني من القضاء على حركته. ثم ولى وجهه نحو القسطنطينية. فقامت قواته البحرية والبرية بمحاصرتها في يونيوسنة 1422. ودام حصارهم لها 64 يوما. فكان أطول حصار شهدته المدينة حسب شهادة الاخباري البيزنطي دوكاس الذي عاصرالحدث[3]. ولكن الحصار لم يفض الى اقتحام المدينة نظرا لحصانتها.

فاضطر مراد الثاني الى رفعه لمواجهة حركة عصيان جديدة تزعمها أخوه المدعو كجك مصطفى الذي حضي بدعم بعض أمراء الأناضول. فانسحبت القوات العثمانية بعد أن التزم الامبراطور البيزنطي يوحنا الثامن باعادة دفع الجزية السنوية التي نصت عليها معاهدة سابقة والانسحاب من تساليا وبعض المناطق الساحلية المطلة على البحر الأسود التي استردها العثمانيون[4].

وبعد تهدئة الوضع مع البيزنطيين واخماد حركة كجك مصطفى، اتجه مراد الثاني لإخضاع الحركات المناوئة في الأناضول. ثم تحرك بعد ذلك

---

[1] - يمكن العودة في هذا الشأن الى كتاب يلماز أوزتونا السالف الذكر، ص. ص. 147-148. وكتاب علي خليل احمد، الدولة العثمانية في سنوات المحنة (المقدمات، الوقائع والنتائج)، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان 2011، ص. ص. 121-153.

[2] - أنظر حاجي خليفة، فذلكة أقوال الأخيارفي علم التاريخ والأخبار، ص. 180. وخليل اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء الى الانحدار، ترجمة محمد الأرناؤوط، دار المدار الاسلامي، بيروت، 2002، ص. 34. ومحمود محمد الحويري، تاريخ الدولة العثمانية في القرون الوسطى ص.ص. 106-108.

[3] - دوكاس، التاريخ- التركي البيزنطي، مصدر سبقت الإحالة عليه، ص. 146. وكذلك يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص. 121.

[4] - يلماز أوزتونا، نفس المرجع، ص. 34. وسيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية النشأة- الإزدهار، ص. 151.

بقواته صوب سالونيك التي وضع سكانها مدينتهم تحت حماية البندقية. فحاصرها الأسطول العثماني لمدة ثلاثة أسابيع. وتمكن من اقتحامها في مارس سنة 1430. بينما اضطر البنادقة، في ضوء هذا الوضع، توقيع معاهدة مع العثمانيين أقروا فيها بسيادة هؤلاء على سالونيك مقابل السماح لمراكبهم التجارية بالابحار بمحاذاة سواحلها[1].

وعلى كل، حين انطلق برتراندون دو لا بركيير في رحلته الى الشرق سنة 1432، كان مراد الثاني قد نجح في إعادة تثبيت الوجود العثماني بوسط وغرب منطقة الأناضول. ولم تبق خارجة عن نفوذ الدولة العثمانية بهذه المنطقة سوى، بعض جهات الشرق. كما كان قد تمكن من استعادة معظم مناطق البلقان التي كانت خاضعة للعثمانيين في عهد با يزيد الأول[2]. باستثناء صربيا التي ظلت حجرة عثرة أمام المد العثماني في أوربا.

فقد توفي حاكمها استيفان لزاروڤيتش سنة 1427. وخلفه جورج برانكوڤيتش الذي جدد التزام مملكته بدفع الجزية السنوية والمساهمة ببعض الجنود لخوض الحروب تحت امرة العثمانيين. ولكنه تحالف في ذات الوقت مع الهنغاريين (المجريين). ووضع بلغراد وبعض المناطق الصربية التي كانت مستهدفة من قبل العثمانيين تحت سلطة سجسموند ملك هنغاريا.

وكان من تداعيات هذا التحالف، أن شرع السلطان مراد الثاني في التفكير في غزو هنغاريا وبسط سلطته على صربيا وفق افادات الباحث جون جفيرسون (Jean Jefferson) الذي استند فيما ذهب اليه على بعض الإشارات التي أوردها الإخباري عاشق باشا في الموضوع[3].

والواقع أن تأويل جون جفيرسون يتعارض مع المعطيات الكثيرة التي تفيد بأن مراد الثاني لم يكن يتبنى سياسة هجومية تجاه خصومه في البلقان. فقد كان أكثر ميلا نحو السلم. وان سياسة التحالفات ونكث العهود التي تبناهى الصربيون وتزايد نفوذ الهنغاريين هو ما دفعه للتفكير في المشروع الذي بدأت مراحله الأولى منذ سنة 1434 في شكل محاولات كثيرة من جانب العثمانيين لاختبار حصانة المواقع الواقعة في الطريق المفضي الى

---

[1] - دوكاس، التاريخ- التركي البيزنطي، ص. 153 وما يليها ويلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص. 90. وسيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص. 155.

[2] - أحمد فؤاد متولي، تاريخ الدولة العثمانية، ص.94.

[3] - لمزيد من التفاصيل يمكن العودة للصفحات 69-72 من كتابه:
The holy wars of king Wladislas and sultan Murad. The ottoman-christian conflict from 1438-1444, Brill, Leiden-Boston, 2012.

بلغراد. ثم حدث الانتقال الى مرحلة التنفيذ الفعلي بعد وفاة سجسموند سنة 1437.

فتحركت الجيوش العثمانية تحت إمرة مراد الثاني في اتجاه هنغاريا. ووصلت الى بلغراد التي حاصرتها لمدة ستة أشهر دون ان تتمكن من اقتحامها بسبب مناعتها وبسبب تفشي بعض الأمراض في أوساط عدد من الجنود العثمانيين[1].

وكان من تداعيات محاولة السيطرة على بلغراد، حدوث حرب صليبية بين العثمانيين وحلف من المسيحيين تشكل من الهنغاريين والصربيين والبلغاريين والبولنديين والألمان والأرغونيين. جرت اطوارها سنة 1443على مشارف مدينة نيش (Niś) الصربية. وانتهت بانهزام العثمانيين وإبرام معاهدة هدنة أدرنة – سجدين سنة 1444[2].

وكان من الممكن أن تؤثر تلك الهزيمة على الوجود العثماني في اوربا. لأنها توجت سلسلة انتكاسات عسكرية لحقت بهم بين سنتي 1434 و1444. وقد أبانت تلك الانتكاسات بأن مسيحيي البلقان لم يعودوا خانعين كما كانوا من قبل. حيث عبروا عن رغبتهم في وقف المد العثماني بأن نقضوا معاهدة أدرنة – سجدين قبل مرور سنة على توقيعها وشرعوا في الاستعداد للقيام بحملة عسكرية ضد العثمانيين.

وقد انضمت لتلك الحملة ممالك مسيحية من غرب أوربا من بينها دوقية بورگونيا التي شاركت فيها بتسع قطع بحرية من مختلف الأحجام[3]. وحدثت وقائع الحملة بالفعل في ڤارنا (Varna) سنة 1444[4]. وانتهت هذه المرة بانتصار العثمانيين. فوطد ذلك الانتصار وجودهم في الأراضي الأوربية. وتأكد ذلك الوجود أكثر بعد سيطرتهم على القسطنطينية. وبذلك استكان

---

[1] - أنظر تفاصيل الحادث في كتاب:

Charles-Marie d'Irrumberry, comte de Salaberry, Histoire de l'Empire ottoman depuis sa fondation jusqu'à la paix d'Yassi en 1792, Paris, le Normant Imprimeur Libraire, 1813, Tome I, p. 150 et les pages 157-168.

[2] - أنظر بنود الهدنة وتفاصيل عن الحرب التي سبقتها في كتاب تاريخ العثمانيين لمحمد سهيل طقوش، ص.ص. 90-95. وعند سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص. ص. 156-157.

[3] - كان على رأس ثلاثة قطع منها القائد جوفروى الطواسي (Geoffroy de Thoisy) الذي كان ضمن المجموعة التي رافقت برتراندون دو لا بركيير في رحلته. أنظر:

Jacques Paviot, " Croisade bourguignone et intérêt génois en mer Noire au milieu du XVe siècle", in Studi di storia medioevali e di diplomatica, no 12-13, 1992, p. 137.

[4] - أنظر تفاصيل الحملة في مصنف الإخباري دوكاس، ص. ص. 175-178.

مسيحيو أوربا الوسطى. بينما لم تعد نداءات مسيحيي غربها لخوض حرب صليبية سوى مجرد صيحات في واد كما رأينا عند الحديث عن محاولات فليب الطيب دوق بورگونيا.

ج) امبراطورية بيزنطة "المحتضرة"

رغم أن القسطنطينية امتنعت عن السقوط في يد العثمانيين قبيل عشر سنوات على بدء رحلة برتراندون دو لا بركيير الى الشرق، فالواقع أنها كانت حاضرة امبراطورية في حالة تدهور على جميع الأصعدة كما يجمع على ذلك معظم الباحثين الغربيين[1]. وقد اسطلح بعضهم على تسمية تلك الحالة "بالاحتضار"[2]. ومن بينهم جون كلود شوني (Jean-Claude Chenet) الذي جعل بداية مسلسل الاحتضار سنة 1180[3]. بينما اتفق معظمهم على أنه بدأ سنة 1260 واستغرق فترة حكم أسرة الباليولوگ حتى سقوط القسطنطينية.

وتجسد ذلك "الاحتضار"، أو التدهور، في الصراع حول السلطة والمشاكل المرتبطة بمشروعية تولي الحكم وفي تقلص رقعة الامبراطورية وتربص الأعداء بها من كل جهة فضلا عن تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية. وسنحاول تسليط الضوء على هذه التجليات باختصار خلال الفترة الممتدة بين سنة 1260 وبداية رحلة برتراندون دو لا بركيير.

كان ميخائيل الثامن أول رجل من أسرة الباليولوگ يعتلي عرش الإمبراطورية. والواقع أنه كان في البدء وصيا على عرش يوحنا الرابع

---

[1] - من بينهم على سبيل المثال لا الحصر:

- Louis Bréhier, Le monde byzantin. Vie et mort de Byzance, Paris, Albin Michel, 1969.

- Steven Runciman, The Last Byzantine Renaissance, Cambridge University Press, Cambridge, 1970.

- جون كلود شوني، تاريخ بيزنطة، ترجمة جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2008.

[2] - نعني هنا لويس بريهيي (Louis Bréhier) الذي عنون "الكتاب" الثالث من مؤلفه السالف الذكر: "باحتضار وموت بيزنطة". وماري-هلين كنگوردوالتي أوردت المصطلح في مقال لها تحت عنوان:

"Les byzantins face aux catastrophes naturelles sous les paléologues", Revue des études byzantines, no 67, 2009, pp. 151-163.

[3] - جون كلود شوني، تاريخ بيزنطة، ص. 110.

لَسْكاريس (Jean IV Lascaris) الذي كان صغير السن[1].

اقتنع ميخائيل الثامن بأن المرحلة تتطلب رجلا قويا قادرا على تدبير الشأن الداخلي والتصدي للأعداء. ولذلك وضع الإمبراطور الشرعي رهن الإقامة الجبرية وتولى الحكم. ولكي يخرس المعارضين لعملية "الإنقلاب" التي قام بها، فكر في استرجاع القسطنطينية التي كانت منذ ما يزيد عن نصف قرن تحت حكم الصليبيين اللاتين. ونجح في مسعاه. وما أن بدا الأمر يستتب له، حتى قام بسمل عيني الامبراطور المحتجز. فعارضه كبير البطارقة[2] وانتفض ضده سكان آسيا الذين كانوا يدينون بالولاء لأسرة لَسْكاريس وكذلك سكان اليونان الذين أصبحوا يرفضون الخضوع لحكم أباطرة القسطنطينية[3].

فحدث انقسام في أوساط رجال الدين في القسطنطينية بين معارض للامبراطور ومناصر له. واستمر هذا الإنقسام فترة طويلة[4]. وتكررت عملية اغتصاب السلطة في عهد أندرونيك الثاني الذي تولى الحكم سنة 1282. وذلك أنه في سنة 1320، نازعه حفيده اندرونيك الثالث السلطة. وكان الحفيد رجل حرب في المقام الأول يهوى المنازلات ويعتد بما تحت إمرته من رجال. ونشر بين الأهالي أنه يعتزم خفض الضرائب إذا نجح في اعتلاء العرش. فأراد الإمبراطور اتقاء شره بأن اقترح عليه مشاركته الحكم. ولكن الحفيد كان يطمح الى أكثر من ذلك. فنشب صراع بين الرجلين. زاد من اذكائه الصربيون والبلغاريون. ولم يحسم الصراع الا باعتزال أندرونيك الثاني سنة 1328[5].

وتكرر المشهد ذاته سنة 1341، حين تولى حكم الإمبراطورية يوحنا الخامس (Jean V) الذي لم يكن يتجاوز التاسعة من العمر. فكان الأمر يقضي بتكوين مجلس وصاية. ضم بين أعضائه أم الإمبراطور وبطريرق كنيسة القسطنطينية واحد كبار موظفي البلاط وكنتاكوزين (Cantacuzène) كبير الوزراء في عهد الأمبراطور أندرونيك الثالث. فاستغل البطريرق وموظف البلاط غياب كنتاكوزين في مهمة عسكرية

---

[1] - Louis Bréhier, Le monde byzantin, op. cit., p. 377.

[2] - لمزيد من التفاصيل، يمكن العودة لكتاب لويس بريهيي السالف الذكر، ص. 378.

[3] - جون كلود شوني، تاريخ بيزنطة، مرجع سبق ذكره، ص. 116.

[4] - محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية. مدخل لدراسة التاريخ السياسي والحربي، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، قنال السويس، 2000، ص. 351.

[5] - حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1983، ص. 298.

خارج القسطنطينية، واوعزا لأم الامبراطور بأنه يطمح في اعتلاء عرش الامبراطورية. واقترحا اقصاءه. ولكن أم الإمبراطور امتنعت عن إصدار أمر بعزله. وتفشى الخبر في ربوع الامبراطورية. فتجمع كثير من أنصار كنتكوزين ونادوا به إمبراطورا. فأعلن نفسه امبراطورا. وكان ذلك مقدمة نحو نشوب حرب أهلية استغرقت ست سنوات. وانتهت لصالح معسكر كنتاكوزين الذي تولى رسميا حكم الامبراطورية لمدة عشر سنوات بين سنتي 1347 و1357[1].

والغريب في الأمر أن هذه "الانقلابات السياسية" وباقي أشكال الصراع حول السلطة، كانت تحدث من أجل تولي حكم كيان سياسي إسمه "الإمبراطورية". ولكن هذا الإسم كان فارغا من أية دلالة. لأن رقعة "الإمبراطورية" أضحت ضيقة. اقتصرت، عند بداية حكم ميخائيل الثامن، على بعض مناطق شمال شرق آسيا وقسم من مقدونيا وبعض جزر الأرخبيل. وحتى العاصمة نفسها، أي القسطنطينية، لم تكن ضمن حدودها. فافتتح ميخائيل الثامن عهده بحرب ضد الصليبيين اللاتين لاستعادتها. وقام بجهود مضنية، تراوحت بين الحروب والدبلوماسية، من أجل استرجاع منطقة تراقيا وجزء من بلاد اليونان القارية وجزء من منطقة الأناضول.

ورغم ذلك، طلت عدة مناطق خارج نفوذه. كان اخضاعها يقتضي خوض حروب ضد قوى كثيرة كانت تتربص بالامبراطورية من كل جهة. تمثلت في الصربيين والبلغاريين واللاتين والبندقيين. فضلا عن الأتراك العثمانيين الذين كانوا يزحفون على بعض أراضي غرب الأناضول[2].

وبالإضافة الى تقلص رقعة "الامبراطورية"، كان تدهورالأوضاع الاجتماعية وركود الأنشطة الاقتصادية، من بين مكونات التركة التي ورثتها أسرة الباليولوگ عن العهود السابقة. وقد تعذر على ميخائل الثامن، وعلى الأباطرة الذين تولوا الحكم بعده، تحقيق نتائج طيبة في هذا المضمار لأن الامبراطورية فقدت كثيرا من الأراضي الصالحة للزراعة ولأن شرايين التجارة التي كان من الممكن أن تمدهم بالثروة، كانت خارج سيطرتهم منذ أمد بعيد. فطرق التجارة البرية المارة عبر الأناضول في اتجاه الشرق أخذت تتحكم فيها إمارات محلية. بينما طرق التجارة البحرية، أصبح يتحكم فيها

---

[1] - تطرق الإخباري دوكاس بإسهاب لمجريات تلك الحرب. كما تناولها بعض الباحثين العرب من بينهم على سبيل المثال حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، مرجع سبق ذكره، ص.ص. 299-301.

[2] - جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الدولة البيزنطية (1453-284)، دار المعرفة الجامعية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2005، ص. 278.

البندقيون والجنويون[1]. ولذلك أضحت الضرائب المفروضة على عامة الناس تمثل أهم موارد الخزينة. وكان قسط كبير من المداخيل يصرف في الحروب وفي مرتبات المرتزقة الذين أصبح الأباطرة يعولون عليهم أكثر من أي وقت مضى.

والجدير بالذكر في هذا الصدد، أن الأباطرة أخذوا يستنفرون، منذ عهد أندرونيك الثاني، المرتزقة القطلانيين في الحروب التي خاضوها ضد الأتراك العثمانيين وضد البلغاريين. فاستنزف هؤلاء المرتزقة موارد الامبراطورية كما ذكرنا. فضلا عن كونهم عاثوا في البلاد فسادا.

وانضافت الى مصاريف الحروب والمحاربين، الجزية التي أصبحت مفروضة على الأباطرة من قبل العثمانيين. ولذلك ظلت الوضعية المالية في الامبراطورية صعبة على الدوام منذ بداية حكم أسرة الباليولوگ[2]. حتى أن جميع نفائس وذخائر الامبراطورية عرضت للبيع في عهد يوحنا كنتكوزين[3]. بل إن الامبراطور يوحنا الخامس اضطر للاستدانة من بعض الأثرياء الأجانب. وحدث أن سافر الى ايطاليا، فتم اعتراض موكبه في البندقية وطولب برد مبلغ من المال استلفه من أحد أثرياء المدينة[4]. وفي سنة 1423، اضطر الامبراطور يوحنا الثامن الى التنازل للبندقيين عن مدينة سالونيك مقابل 50 ألف دوقة[5].

وظلت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية على هذا المنوال منذ سنة 1260. وزادت من حدتها الحروب الأهلية، كما رأينا. وبعض الآفات الطبيعية. وعلى رأسها الطاعون الأسود الذي انتشر بربوع الإمبراطورية سنة 1348. وفتك بكثير من العباد وأثر على النشاط الزراعي والمبادلات التجارية الداخلية.

وزاد من تفاقم تلك الأوضاع، الضغط الذي كانت تمارسه القوى الأجنبية على الإمبراطورية من جهتي الشرق والغرب معا. ولذلك اضطر معظم الأباطرة الى اتباع سياسة إمساك العصا من الوسط في علاقاتهم بتلك

---

[1] - لمزيد من التفاصيل بهذا الخصوص، يمكن العودة لكتاب شارل ديبل (Charles Diehl):
Byzance. Grandeur et décadence, Paris, Flammarion, 1961, p. 204 et suivantes.

وكتاب جون كلود شوني، تاريخ بيزنطة، ص. 121 وص. 125.

[2] - Loius Bréhier, Le monde byzantin, op. cit., p. 378. Et Charles Diehl, Byzance. Grandeur et décadence, op. cit. p. p. 211-214.

[3] – Charles Diehl, Byzance…, p. 212

[4] - Ibid., p. 214.

[5] - Ibid., p. 214.

القوى. بهدف الحد من المخاطر. ولكن ضغط تلك القوى ظل في تزايد، وخاصة من جانب الأتراك العثمانيين، الذين كانت شوكتهم تتقوى باستمرار. الأمر الذي لم يكن يسمح بالانكباب على تحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية إلا خلال فترات محدودة. مثلتها فترات السلم وتراجع حدة الضغط. وهذا ما يفسر طول فترة الاحتضار.

ويبدو أن الأتراك العثمانيين كان لهم دور حاسم في عملية الاحتضار. فقد انتزعوا من البيزنطيين كثيرا من ممتلكاتهم في منطقة الأناضول كما رأينا من قبل. ثم أخذوا يزحفون في اتجاه أوربا. فسيطروا على گاليبولي سنة 1354. ثم على ادرنة سنة 1360. فاتخذوها عاصمة لهم وزحفوا منها على تراقيا.

ومنذ ذلك الوقت كان ضغطهم على الامبراطورية، عامة وعلى القسطنطينية بوجه خاص، يشتد أو يضعف تبعا لأوضاعهم الداخلية ومستجدات علاقاتهم مع العالم الخارجي[1]. فقد اشتد الضغط ابتداء من سنة 1370، حتى أن امبراطور بيزنطة يوحنا الخامس أصبح تحت رحمة السلطان العثماني مراد الأول[2]. فتعهد بدفع الجزية ووضع عدد من المحاربين رهن اشارة السلطان العثماني للمشاركة في الحروب التي يخوضها. واستمر الوضع كذلك في عهد الإمبراطور مانويل الثاني حتى سنة 1394. فكانت بيزنطة بمثابة "مقاطعة تركية" خلال هذه الفترة[3].

ثم تراجع ذلك الضغط حين تعرضت ممتلكات العثمانيين في آسيا للغزو من قبل المغول. ثم حين دخلت الدولة في مرحلة فوضى سياسية وعسكرية عقب وفاة با يزيد. وعاد العثمانيون لاستئناف ضغطهم في عهد السلطان مراد الثاني الذي ضرب حصارا قويا على القسطنطينية سنة 1422[4].

وبناء عليه، يتضح بأن العثمانيين كانوا في موقع الهجوم والبيزنطيون في موقع الدفاع عشية انطلاق رحلة برتراندون دو لا بركيير. وقد كانوا يسيطرون على منطقة ثيساليا (Thessalie) وعلى مدينة سالونيك. فتقلص مجال نفوذ الأباطرة البيزنطيين وأضحت القسطنطينية لوحدها تختزل الإمبراطورية البيزنطية التي كانت أيام عظمتها تمتد شرقا وغربا.

---

[1] - أنظر في هذا الشأن النسخة المحققة من اخبارية دوكاس التي سبقت الاحالة عليها، ص.ص. 106-110.

[2] - محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطة، مرجع سبق ذكره، ص. 358.

[3] - جون كلود شوني، تاريخ بيزنطة، ص. 123.

[4] - أنظر إخبارية دوكاس السالف ذكرها، ص.ص. 142-147.

الفصل الثالث
مسار الرحلة
ومشاهدات وانطباعات برتراندون دو لا بركيير خلالها

إنطلق برتراندون دو لا بركيير في رحلته من مدينة ڭاند (Gand)، إحدى أهم حواضر دوقية بورڭونيا، في بحر شهر فبراير سنة 1432. ولم يذكر اليوم الذي انطلق فيه. كما لم يبرر لماذا اختار الانطلاق من المدينة المذكورة. ومن المحتمل أن يكون متواجدا بها رفقة سيده الدوق فليب الطيب الذي كان مقيما بحضرتها آنذاك. اذ لا يجب أن ننسى بأن برتراندون دو لا بركيير هو مستشار الدوق والمكلف بقطع اللحوم التي يتناولها في وجباته.

ومن المفيد التذكير بأن رحلة برتراندون دو لا بركيير استغرقت ثمانية عشر شهرا قطع خلالها مسافة طويلة ومر بمناطق مختلفة أوربية وأسيوية. فقد انطلق من ڭاند (الواقعة حاليا ببلجيكا) وعبر بعض مناطق فرنسا في اتجاه ايطاليا ثم فلسطين فلبنان وسوريا. ومنها واصل رحلته عبر بعض مدن وقرى آسيا الصغرى حتى مدينة أدرنة. ثم سلك في طريق العودة كلا من صربيا والمجر (هنغاريا) والنمسا وسويسرا وألمانيا ففرنسا.

وقد قضى عدة أيام في بعض المدن وفي بعض القرى. بينما اكتفى بقضاء ليلة واحدة في مدن وقرى أخرى. وهناك مجموعة مدن وقرى مر بها دون أن يمكث بها. وعليه توزعت رحلته بين عدة مراحل تبدأ كل واحدة منها بمحطة وتنتهي بأخرى.

ولذلك ننوي تخصيص هذا الفصل لاستعراض تلك المراحل والمحطات ونقل مشاهدات الرحالة وانطباعاته خلال كل مرحلة على حدة.

وننبه في هذا الصدد الى ثلاثة أمور:

أولها أن برتراندون دو لا بركيير تحدث عن المدن والقرى التي مر بها أو التي أقام فيها وتحدث عن المشاهد وعن الوحدات التضاريسة. كما سجل ملاحظاته وانطباعاته في نص مسترسل استعمل فيه أحيانا الضمير المستتر "أنا" كقوله "غادرت"، "مررت" واستعمل فيه أحيانا الضمير االمستتر "نحن" كقوله "غادرنا"، مررنا" "رأينا". كما لم يحرص على توزيع مادة ذلك النص الى فصول أو أقسام. وقد قام شارل شيفر بتحقيقه

ونشره محترما بنيته الأصلية. كما قام الهام أرضا بنقله الى اللغة التركية محترما بنيته الأصلية، بينما قامت إلين باصو (Hélène Basso)، عند نقل النص الى اللغة الفرنسية المتداولة حاليا، بتوزيع مادته الى خمسة عشر "فصلا"، أو بعبارة ادق خمسة عشر "عنوانا"، وضعت كل واحد منها بين معقوفتين واستندت في صياغتها على معياري المراحل (من مدينة الى أخرى) والموضوعات (أو التيمات). بينما ارتأينا، ونحن ننقل النص الى العربية، توزيع مادته على مراحل تتطابق مع الكيانات الجيو- سياسية التي زارها برتراندون دو لا بركيير وفق خط سير الرحلة.

ثانيها أننا سنقوم بترجمة نص الرحلة برمته، انطلاقا من النسخة التي حققها شارل شيفر وبالاستعانة بالنسخة التي أصدرتها إلين باصو (Hélène Basso). وسنوزع مادة النص المترجم على تلك المراحل بما في ذلك المرحلة الفلسطينية والمرحلة اللبنانية – السورية اللتان قام الباحث محمود زايد بتعريب الصفحات المتعلقة بهما انطلاقا منالنسخة المحققة الصادرة بالأنجليزية وليس انطلاقا من نسخة شارل شيفر[1].

وثالثها أننا سنثري النص بهوامش لتوضيع بعض القضايا أو الأحداث التاريخية أو للتعريف ببعض الأعلام. كما أننا سنضع بعض الكلمات أو العبارات الغير واردة في متن النص بين معقوفتين [...] حين يقتضي التوضيح ذلك.

ديباجة نص الرحلة

رغبة في إثارة قلوب الرجال النبلاء الراغبين في رؤية العالم وتحبيبه اليهم وكذلك تلبية لأمر سيدي المبجل القوي، المهاب، فليب الطيب، الذي هو، بمنة من الله، دوق بورگونيا وبرابنت واللوكسمبورغ و لوثيير (Lothier) وقمط فلاندر وآرتوا وبورگونيا ومحافظ قصر هينو وهولاندا وزيلاندا ونمور ومركيز الإمبراطورية المقدسة وسيد سلين (Salins) وملينس (Malines)، قمت أنا برتراندون دو لا بركيير، المولود بدوقية كويانا قاعدة القصر القديم، مستشار سيدي المهاب السالف الذكر والقاطع الأول لدى جنابه، بتدوين سفري المتواضع انطلاقا مما احتفظت به من

[1] - لا بأس من التذكير بأنه نشر تلك الصفحات في مقال مطول بمجلة "الأبحاث" التي كانت تصدرها الجامعة الأمريكية في بيروت. وقد سبق أن أحلنا عليه.

ذكريات ومما كنت قد سجلته من ملاحظات في كتيب احتفظت به على سبيل الذكرى.

قمت بهذا الأمر حتى إذا ما فكر ملك أو أمير مسيحي في القيام بغزو القدس وقيادة جيش كبير اليها عبر البر أو رغب أحد النبلاء قي الذهاب اليها أو العودة منها، سيكون على دراية بالمدن والبلدات والمناطق والأنهار والجبال والمسالك الوعرة الموجودة في تلك الجهات وكذلك السادة الذين يحكمونها بدءا من القدس حتى دوقية بورگونيا.

وبما أن الطريق الفاصل بين بورگونيا والقدس، أضحى مستأنسا ومعروفا من قبل الكثير، سأكتفي بوصفه في عجالة حتى سوريا التي عبرتها في مسيرة سفر دامت يوما كاملا بدءا من غزة، التي تمثل المدخل الى مصر، حتى مشارف حلب التي تمثل آخر مدينة في اتجاه الشمال بالنسبة للراغب في التوجه الى بلاد فارس...

أولا: المرحلة الفرنسية – الايطالية

... وهكذا للقيام بهذا السفر، الذي كان الهدف منه أداء مناسك الحج بالقدس، خرجت، في بحر شهر فبراير من عام 1432، من بلاط سيدي المهاب، الذي كان وقتئذ موجودا بمدينة گاند. فعبرت بعد مغادرة المدينة مقاطعة بيكارديا ثم شامبانيا وبورگونيا. ودخلت إقليم ساڤوا (Savoie). فعبرت نهر الرون (le Rhône). ثم عبرت جبل الشات (mont du Chat) ووصلت الى مقاطعة شامْبري (Chambèry). ثم عبرت منطقة شاسعة تتخلها مرتفعات حتى وصلت الى قدم أعلى تلك المرتفعات، جبل سنيس (Mont-Cenis)، الموصوف بخطورته خلال فترة التساقطات الثلجية نظرا لسببين وفق ما هو متداول بين الناس. أولهما لأنه يكون مكسوا بالثلوج فيتطلب عبوره الاستعانة بدليل من العارفين بالمسلك المفضي الى الجهة المقابلة له حتى لا يتيه العابر. وثانيهما لأن الصراخ أو الحديث بصوت مرتفع، أثناء عبوره، يترتب عنهما صدى يؤدي الى انهيار كتل الثلوج. ويمثل هذا الجبل حدا فاصلا بين فرنسا وإيطاليا.

وبعد عبور هذا الجبل، نزلت الى منخفض هو عبارة عن مرج رائق جميل تحيط به الجبال من ثلاث جهات. سرت به فوصلت الى مشارف مدينة تورينو. ثم عبرت نهرا كبيرا يقع بمحاذاتها، يسمى نهر بو (Pô) ووصلت الى مدينة أستي (Asti) التي تقع ضمن ممتلكات سيدي دوق أورليان. ومنها اتجهت الى مدينة ألسندريا (Alessandria) التي يقيم بها، كما هو شائع،

معظم الريبويين [الذين يقيمون معاملاتهم المالية على الربا]. ومنها وصلت الى مدينة بياتشينسا (Piacenza) التي تقع ضمن ممتلكات دوق ميلانو. وكان يوجد بها آنذاك الامبراطور سجسموند الذي سبق أن حل بمدينة ميلانو، حيث تم وضع التاج الامبراطوري على رأسه للمرة الثانية [25 نونبر 1431]. ومن بياتشينسا توجه الى مدينة روما التي تم بها تتويجه للمرة الثالثة.

ومن مدينة بياتشينسا، اتجهت الى مدينة بلونيا (Bologne) التي تخضع لسلطة البابوية. ومنها عبرت منطقة متضرسة ودخلت الى مجال نفوذ الفلورنسيين. فوصلت الى مدينة فلورنسا. وهي مدينة مزدهرة تحكم نفسها بنفسها بواسطة كمونة تنتخب كل ثلاثة أشهر أشخاصا ينتمون الى إحدى الطوائف المهنية والحرفية يحظون بكثير من التشريف طيلة تلك المدة، ثم ينصرف كل واحد منهم الى مهنته أو حرفته بعد انصرامها. ثم غادرت تلك المدينة في اتجاه الحصن المعروف بمونتبلتشانو (Montepulciano) الواقع على تل تحيط به بحيرة شاسعة من ثلاث جهات. ومن هذا الحصن، اتجهت الى مدينة سبوليتو (Spolèto). ومنها الى مونتفياسكوني (Montefiascone). ومنها الى ڤيتربو (Viterbo)، حيث يوجد مدفن القديسة وردة (Sainte Rose). ومنها وصلت الى مدينة روما التي يعرفها الجميع.

تفيد كتب التواريخ بأن الرومانيين أخضعوا العالم كله لسلطتهم لمدة سبعمائة سنة. وتشهد على ذلك المنشآت التي ما زال الكثير منها ماثلا للعيان بهذه المدينة. ومن بينها القصور الكبرى وأقواس النصر والأعمدة الرخامية وتماثيل الرجال والخيول التي بدت لي مدهشة عند الرؤية وعند التفكير في الطريقة التي صنعت بها وطريقة انتصابها فضلا عن أمور أخرى كثيرة يطول الحديث عنها لا شك أنها أثارت كثيرا من الناس كما أثارتني.

توجد في كنائس هذه المدينة بقايا وأشياء لمسها السيد المسيح (des reliques)، فضلا عن تلك التي لمسها عدد من الرهبان والشهداء والقساوسة والراهبات العذراوات أو تلك التي تمت لهم بصلة[1]. كما توجد

---

[1] ـ لتقريب القارئ من هذه البقايا ومن دلالاتها الدينية، لا بأس من الإشارة االى كون العمل ببعض أوجهها مازال العمل قائما به الى يومنا هذا. وقد تجلى ذلك بمناسبة تشييع جثمان الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله حيث كان كثير من المصطفين والمصطفات على جنبات الطرق التي مر بها الموكب الجنائزي يلقون ببعض قطع الملابس أو الأوشحة الى حارس السيد وحارس نعشه فيلتقطها من أعلى العربة ويمررها على النعش ثم يلقيها بدوره ليلتقطها من ألقوا بها اليه.

بقايا وأشياء مماثلة لها في الكنائس الواقعة بضواحي المدينة. وكلها ذات صبغة قدسية بعد أن شملها عفو [تنزيه] الباباوات عما يكون قد شابها من إثم أو خطايا.

وقد رأيت بمدينة روما البابا أوجين الرابع (Eugène IV)، المولود بمدينة البندقية والذي اعتلى كرسي البابوية في شهر مارس 1431. كان يحيط به عدد من الكردنالات. وأذكر بأنه في هذه الفترة أيضا شن أنطونيو كلونا (Antonio Colonna)، أمير سالرنو وصهر البابا مرتان الخامس (Martin V)[1]، الحرب على البابا أوجين.

وشرعت ابان فترة وجودي بروما في تأدية مناسك الحج. وبما أنني كنت أرغب في تأديتها على الوجه الأكمل، فقد غادرت مدينة روما يوم 25 مارس في اتجاه حاضرة القمط أفرسا (Aversa)، أحد أقرباء كردينال آل أورسيني (les Orsini). ثم دخلت المنطقة التي تخضع لسلطة القمط أوربان (Urbin). فوصلت الى قاعدة قمطيته. ومنها واصلت طريقي الى مجال نفوذ عائلة الملاتيستا (les Malatesta). ومنها اتجهت الى مدينة تقع على ساحل البحر تدعى ريميني (Rimini). ومنها الى المدينة المسماة رڤين (Ravenne) التي تخضع لسلطة البندقية. ثم اتجهت صوب نهر البو، الذي عبرته على متن زورق ودخلت الى المدينة المسماة شيوتجا (Chioggia). وهي مدينة تقع على ساحل البحر. كانت فيما مضى تتوفر على مرفئ جيد قام البنادقة، فيما يروى، بتخريبه حين كان الجنويون يحاصرون البندقية. ومن هذه المدينة، سرت عبر البحر حتى مدينة البندقية التي تبعد بخمس وثلاثين ميلا.

تعتبر البندقية مدينة مزدهرة. وهي مدينة أزلية جميلة تشتهر بكونها مركزا تجاريا تحيط به المياه من كل الجهات كما تخترقه من عدة مواضع مشكلة مجموعة من الجزر. لا يمكن التوجه من احداها الى أخرى الا بواسطة زورق.

توجد بهده المدينة عدة بقايا مقدسة (روليكات) كتلك التي تنسب للقديسة هلينا (Sainte Hélène) أم الامبراطور قسطنطين التي قامت بأعمال إحسان وأنفقت كثيرا من المال على بيت المقدس. وأشير بأنني شاهدت عن كثب بقايا أخرى مهمة ذات صلة بفئة الأبرياء (les saints innocents). وتوجد هذه البقايا في حالة جيدة بإحدى الكنائس الواقعة بجزيرة ريالتو (Rialto) المشهورة بصناعة الزجاج المنسوب الى البندقية، المعروفة

[1] - انتهت فترة اعتلائه كرسي البابوية بوفاته في 20 فبراير 1431.

بكونها مدينة محكومة بطريقة جد حكيمة. لأنه لا أحد يمكنه أن يكون عضوا بمجلس إدارتها أو يزاول احدى الوظائف بها، ما لم يكن نبيلا مولودا بهذه المدينة. ويوجد على رأس الهيئة الحاكمة دوق (أو دوقس). يقوم نبلاء البندقية عند وفاته بانتخاب أحد أكثرهم حكمة واستعدادا لخدمة الصالح العام لخلافته. يساعد هذا الدوق ستة رجال هم من أوجه النبلاء وأقدم أعضاء الهيئة.

انتقلت من البندقية ممتطيا حصانا في اتجاه مدينة بادو (Padoue) التي تدخل ضمن ممتلكات البندقية. وهي مدينة كبيرة جميلة ما ان وصلتها، عدت للتو الى البندقية.

ثانيا: المرحلة السلاڤونية (الكرواتية) ـ اليونانية ـ القبرصية

ولأستكمال مناسك الحج، غادرت مدينة البندقية في اليوم الثامن من شهر مايو على متن سفينة رفقة عدد من الحجاج. بينما امتطى عدد آخر من الحجاج سفينة أخرى. وأنطلقت السفينتان معا في اتجاه مدينة روفينيو (Rovigno) الخاضعة لنفوذ البندقية. ومنها توجهتا الى مدينة بولا (Pola) التي تتوفر على مرفأ جيد. وقد بدا لي بأن هذه المدينة كانت أكثر ازدهارا في الماضي. ومنها توجهت االسفينتان الى مدينة زارا (Zara) التي تقع الى جانب المدينتين السالفتي الذكر في إقليم سلاڤونيا (Esclavonie). ويحيط البحر بهذه المدينة من ثلاث جهات وتتوفر على مرفا جيد يمكن اغلاقه في وجه المراكب بواسطة سلسلة حديدية متينة. كما يقع بها مدفن القديس سيميون (Saint Siméon) الذي استقبل السيد المسيح عند مقدمه الى المعبد.

ومن مدينة زارا، انتقلنا بين مجموعة جزر الى مدينة سيبنيك (Sibenik) الخاضعة بدورها لسلطة البندقية. ومنها وصلنا الى جزيرة كورفو (Corfou) وقاعدتها تسمى كذلك كورفو. وهي مدينة مزدهرة توجد بها حصون وقلاع جميلة وتتوفر على مرفا جيد. ومنها وصلنا الى مدينة ميطوني (Methoni) الخاضعة هي الأخرى لسلطة البندقية. وهي مدينة مزدهرة تتوفر على مرفا جيد. ومنها وصلنا الى جزيرة كاندي (Candie). وهي جزيرة مزدهرة تفيض بالخيرات وتتوفر على مرفا حصين. يحكمها دوق يعينه سادة البندقية لمدة ثلاث سنوات ثم يخلفه آخر. ويتميز سكان هذه الجزيرة بكونهم بحارة مهرة.

ومن هذه الجزيرة اتجهت السفينة االتي كنت على متنها صوب جزيرة رودس. بينما اتجهت السفينة الأخرى الى قبرص. وقد غادرت السفينة عند رسوها في رودس للقيام بجولة في المدينة. ولكن لم يسعفني الوقت لزيارة الحصن، حيث عدت الى السفينة االتي أقلعت على التو.

وتوجهنا من رودس الى قبرص، حيث وصلنا الى مدينة مخربة تدعى بافوس (Paphos) يوجد بها مرفا غير عميق لا يسمح برسو السفن الكبيرة.

ثالثا: المرحلة الفلسطينية: برتراندون دو لا بركيير يؤدي مناسك الحج

ومن جزيرة رودس، وصلنا الى ارض الميعاد المقدسة حيث أرست سفينتنا بمرفا يدعى مرفا يافا. وهو مرفا غير عميق يصعب الرسو به وقد تجنح به السفن. ويافا هذه، عبارة عن مرتفع كانت توجد به قديما مدينة مسيحية محصنة هي الآن مخربة لا توجد بها مساكن باستثناء بعض المغارات التي يلجأ اليها الحجاج لتجنب حرارة الشمس. وابتداء من هذه المدينة تمتد الأماكن والبقاع التي يمكن بزيارتها الحصول على الغفران عند الحلول بالأرض المقدسة. ويوجد بيافا بين المياه واليابس ينبوعان يتدفقان بمياه عذبة. تغمر أحدهما مياه البحر حين تهب الرياح الغربية بقوة.

يأتي المترجمون وعدد آخر من أعوان السلطان الى يافا، عند وصول مواكب الحجيج، للاّ طلاع على عدد الحجاج وإرشادهم وكذلك لتحصيل المكس الواجب عليهم أداؤه لفائدة السلطان.

وقد غادرنا يافا واتجهنا الى مدينة الرملة. وهي مدينة جميلة لا تحيط بها أسوار. تقع في منطقة خصبة تفيض بالخيرات وتنشط بها الحركة التجارية. ومنها اتجهنا الى قرية اللد التي استشهد بها االقديس جورج (Saint Georges). ثم عدنا ادراجنا الى مدينة الرملة. ومنها توجهنا الى القدس التي ذاق فيها السيد المسيح سكرات الموت من أجلنا. وقد وصلنا اليها بعد يومين من السفر.

وبمجرد وصولنا الى مدينة القدس، قمنا بتأدية مناسك الحج التي تعود المسيحيون على القيام بها. فصعدنا الى الجبل الذي صام به سيدنا المسيح أربعين يوما. ومنه نزلنا الى نهر الأردن الذي تم به تعميده. وفي طريق العودة، قمنا بتأدية مناسك اعتيادية أخرى كزيارة كنيسة القديس يوحنا (Saint Jean) التي توجد بمحاذاة النهر ثم كنيسة القديسة مريم المجدلية (Sainte Marie-Madeleine) وكنيسة القديسة مارثا (Sainte

Marthe) التي أعاد فيها السيد المسيح الروح للشاب لعازر بعد أن فارق الحياة. وعدنا الى مدينة القدس التي انطلقنا منها صوب بيت لحم موطن ولادة السيد المسيح.

وهي مدينة يتألف معظم سكانها من المسلمين. لا توجد بها سوى قلة من مسيحيي الزنار (la ceinture)[1]، أتباع القديس توما (Saint Thomas) وعدد محدود من المسيحيين الكرادلة (les cordeliers)[2]، أتباع القديس فرنسوا (Saint François) الذين يقيمون الصلاة الكبرى بهذه الكنيسة. وجميعهم يخضعون لسيطرة المسلمين.

وقد توجهنا ونحن مقيمين ببيت لحم، الى المكان الذي ولد فيه يوحنا المعمدان. وتوجد به صخرة انصهرت حين قام الملك هيرودس الكبير (Hérode) بإعدام جماعة الأبرياء. فوضعت القديسة اليزابيث (Sainte Élisabeth) القديس يوحنا في هذا المكان، وعادت الصخرة الى هيئتها ومكث القديس يوحنا بداخلها يومين حسب الرواية المتداولة.

ومن هذا المكان توجهنا الى منزل زكرياء. ومنه الى كنيسة قديسة الصليب (Sainte Croix). وتمثل هذه الكنيسة المكان الذي نمت فيه شجرة الصليب. ومنها عدنا مرة أخرى الى القدس.

والظاهر أن مدينة القدس كانت فيما مضى أكبر حجما وأكثر ازدهارا عما هي عليه اليوم. وهي تقع في منطقة متضرسة وتخضع حاليا لحكم السلطان [المملوكي]. وإن وضعها محزن ومصدر قلق بالنسبة للمسيحيين. والمسيحيون الذين يقيمون بها اليوم قلة. ويتمثلون على وجه الخصوص في فئة الكرادلة. اثنان منهم فقط يوجدون في الضريح المقام في المكان الذي لفظ فيه السيد المسيح أنفاسه. وهؤلاء الكرادلة يخضعون بشكل تام لسيطرة المسلمين. وقد كنت شاهدا على ذلك طيلة الشهرين الذين أقمتهما بالمدينة، ولهذا أستطيع تأكيد هذا الأمر.

ويوجد كذلك في كنيسة القيامة بعض المسيحيين من أصول أخرى كالحبشيين، القادمين من بلاد الكاهن يوحنا، واليعاقبة والأرمينيين وبعض مسيحيي الزنار. ومن بين جميع هؤلاء، فإن الكرادلة هم الأكثرخضوعا.

---

[1] - طائفة من المسيحيين. كانوا مستقرين بمصر وبلاد الشام. وكانوا يضعون حزاما على خصرهم ليتميزوا عن الآخرين ولكون ذلك الحزام كانت له دلالة دينية.

[2] - الكرادلة أو الكردليين (les cordeliers). طائفة من المسيحيين الفرنسيين الفرنسسكانيين. نشات سنة 1210 ميلادية. كان أعضاؤها يكنون عداءا شديدا للمسلمين. شاركوا بأعداد كثيرة في الحملة الصليبية السابعة. وسموا "بالكردليين" لأنهم كانوا يرتدون لباسا خشنا رمادي اللون. وكان كل واحد منهم يشد ذلك اللباس الى بطنه بحزام هو عبارة عن حبل (une corde).

وبعد إتمام جميع مناسك الحج كما ذكرتها، شرعنا نحن الحجاج، وكنا عشرة أفراد وهم: أندري التولنجي (André de Toulonjeon) وميشال الليني (Michel de Ligne) وأخوه غليوم الليني (Guillaume de Ligne) وسانس اللالنكّي (Sanse de Lalaing) وجوفروا الطواسي (Jeoffroy de Thoisy) وهامبير البوفردي (Humbert de Buffard) وجون دو لا روى(Jean de la Roë) وبيير الڤودريي (Pierre de Vaudrey) و سيموني (...) (... Simonet)[1] وأنا شخصيا، (شرعنا) في الاستعداد للتوجه الى سيناء لأداء مناسك الحج بموناستير القديسة كترين (Sainte Catherine) وفق الطقوس المعمول بها. وبدأنا فعلا في التفاوض مع ناصر الدين كبير المترجمين في مدينة القدس.

ومن باب الإفادة، لا بأس من الحديث عن الطريقة الواجب اتباعها في هذا المقام. إذ يقتضي الأمر التفاهم مع المترجم حول المكس الواجب أداؤه من قبل كل شخص للسلطان وحول المبلغ الواجب دفعه للمترجم نظير خدماته. وحين يتم الاتفاق حول هذين الأمرين، يقوم المترجم بإرسال خطاب مستعجل الى مترجم غزة لينظر مع عرب الصحراء مدى استعدادهم لقيادة الحجاج الى المونـاستير. لأن هؤلاء العرب لا يطيعون السلطان دوما ويجب الإستعانة ببعض جمالهم التي يقومون بكراء كل واحد منها بعشر دوقات.

وحين نجح ناصر الدين في الحصول على التزام هؤلاء العرب: قادنا الى الجهة اليسرى من مصلى كنيسة القيامة (église de Saint Sépulcre) وطلب من كل واحد منا ذكر اسمه ولقبه وسنه. فسجل ما أدلى به كل واحد منا، ثم أردف ذلك بتسجيل معلومات حول هيئة كل واحد وقامته وما إذا كانت هناك علامة ظاهرة على وجهه كآثار جرح أو ما شابه ذلك. وقام بنسخ كل تلك المعلومات على ورقة ثانية بعث بها الى ترجمان القاهرة. وذكر لنا أن هذه الاجراءات تتخذ من أجل حماية الحجاج حتى لا يقوم

---

[1] - يتضح من خلال التعريف الوجيز الذي خص به شارل شيفر، محقق نص الرحلة كل واحد منهم، أنهم
كانوا من المزاولين لوظائف سامية في دوقية بورگونيا. فأندري التولنجي، على سبيل المثال، كان وكيلا مكلفا بخيول الدوق فليب الطيب. ثم عينه من بين مستشاريه. وكلفه بعدة مهام دبلوماسية. وجوفروا الطواسي كان من قادة الأسطول الحربي. وجون دو لا روي كان من رجال السياسة. رافق كّيبير دو لانوى، الذي ذكرناه فيما مضى، في رحلة الى بروسيا وبولاندا. كما رافقه في الرحلة التي قام بها الى الشرق. وبيير الڤودريي كان رجل سياسة ودبلوماسي محنك. أوكل اليه دوق بورگونيا عدة مهام دبلوماسية أنجزها بنجاح. أما سيموني، فلم يورد برتراندون دو لا بركيير اسمه الكامل. ولا يعرف عنه شيئ.

العرب باحتجاز أحدهم. وأعتقد أنه يقوم بذلك لضبط عدد الحجاج حتى لا يقع في سهو فيضيع منه مبلغ المكس الواجب أداؤه.

وبعد اتمام هذه الاجراءات والتزود بما يلزم من مؤونة يتوجب الحصول عليها من مدينة القدس كالنبيذ وغيره، وضع ناصر الدين رهن اشارتنا مترجما آخر يدعى سعد الله، كما وضع رهن شارتنا حميرا وبغالا لنمتطي بعضها ونحمل على بعضها الآخر أمتعتنا ومؤونتنا. ثم انطلقنا. فمررنا في طريقنا بقرية جالا التي يبدو أنها كانت أحسن حالا مما هي عليه الآن. فرأينا جماعة من امسيحيي الزنار في أطرافها يعتنون ببعض شجيرات الكروم. ثم وصلنا الى مدينة الخليل الواقعة في هضبة الخليل التي خلق الله فيها سيدنا آدم. فرأينا مسجدا يؤمه المسلمون توجد به قبور سيدنا ابراهيم واسحاق ويعقوب وزوجاتهم. فدنونا من بابه وكدنا أن ندخله، ولكن الترجمان نبهنا الآ نقوم بذلك. وقال لنا إن أي مسيحي تجرأ على الدخول الى أحد المساجد، قد يخسر حياته أو يضطر الى التخلي عن الكاثوليكية. ومن هذا المكان واصلنا طريقنا عبر هضبة شاسعة بمحاذاة الجبل الذي يقال ان يوحنا معمد المسيح كان يختلي به. ومنه توجهنا الى خان يقع في فضاء خال. وهذا الخان عبارة عن مأوى خيري يستطيع العابرون المبيت به أو اللجوء اليه لاتقاء حرارة الشمس. ومن هذا المكان، وصلنا الى غزة. وهي مدينة مزدهرة غير محصنة تقع عند مدخل الصحراء على جانب البحر. يقال إنها كانت قديما في حوزة شمشون بن منوح القوي. وقد رأينا بها قصره وكذلك بقايا القصر الذي قام بهدمه وما زالت أعمدته قائمة. ولكن لا أدري ما إذا كانت فعلا أعمدته أم لا.

لا يعامل الحجاج نبشكل لائق في مدينة غزة. وأحيانا يتم تعنيفهم. وكان من الممكن أن نلقى نفس المصير لو لم يشملنا الله برعايته ولطفه. ونشكره أنه شملنا برعايته على الأقل ثلاث مرات. في المرة الأولى لأننا ظللنا نحمل سيوفنا ولم تنتزع منا وفي المرتين الثانية والثالثة حين وقع سوء تفاهم بيننا وبين من يقومون بكراء الدواب. وهؤلاء من عرب غزة رفضوا بيعنا بعض الحمير وأرغمونا على كرائها. لأن سعر الحمار عند الشراء لا يتعدى دوقتين. وهم طلبوا منا خمس دوقات لكراء الحمار الواحد للتوجه الى موناستير القديسة كترين. ونحمد الله أن الأمر انتهى عند هذا الحد. وعلى كل فقد طلبت منهم أن يعلموني طريقة قود حمار وجمل في نفس الوقت. والحقيقة أننا كنا نرغب في شراء بعض الحمير لأن الجمال صعبة الانقياد بالنسبة لغير المتعود عليها. ولكن لحسن الحظ أن عونا شركسيا، يناهز عمره حوالي ستين سنة، كان قريبا منا وسمع ما دار بيننا وبين مالك

الدواب. فتدخل لصالحنا ولم يتم ارغامنا على شراء الجمال وحققنا ما كنا نرغب فيه.

فتزودنا بما نحتاج اليه أثاء الرحلة. ولكن في صبيحة اليوم الموالي الذي عزمنا فيه على الانطلاق، حدث أن ألمت وعكة صحية بأربعة أفراد من المجموعة. فمكثوا في غزة ومنها عادوا الى مدينة القدس، أما أنا والخمسة الآخرين، فتوجهنا نحو قرية الخلاصة الواقعة عند مدخل الصحراء. وهي آخر قرية في الطريق نحو موناستير القديسة كترين. ومنها عاد سانس اللالنكّي الى غزة. وانطلقت رفقة أندري التولنجي وبيير القودريي وجوفروا الطواسي وجون دو لا روي في الصحراء لمدة يومين لم أشاهد خلالهما شيئا يستحق الوصف، ولكن أصابتني خلالهما حمى شديدة كدت أن ألقى حتفي على إثرها. وفي صبيحة اليوم الثالث مع شروق الشمس كنت أول من رأى حيوانا يجري. له أربعة أرجل. حجمه في الارتفاع ككف يد كبرى وطوله حوالي ثلاثة أقدام. ما أن رآه العرب الذين كانوا يقودوننا حتى هابوه كما هابهم الحيوان بدوره واتجه الى كومة حشائش اختبأ بها ولكن ذيله ظل بارزا. فترجل السيدان أندري التولنجي وبيير القودريي وأخرجا سيفيهما من غمدهما. فلما اقتربا من الحيوان أخذ يصرخ كما يفعل قط حين يريد كلب مهاجمته. فضربه بيير القودريي على ظهره بسيفه ولكن الضربة لم تحدث به أثرا لأن ظهره كان صلبا تكسوه حراشف (des écailles) كتلك التي تكسو الحفش (un esturgeon). فاقترب الحيوان من السيد أندري الذي ضربه بسيفه على رقبته. فانشطر الحيوان وانقلب على ظهره وأرجله الى الأعلى. كان ذيله طويلا نسبيا كذيل الوزغات الخضراء الكبيرة (les lézards) وأرجله شبيهة بيدي طفل صغير ورأسه كرأس أرنب كبير. فقال العرب الذين كانوا يرافقوننا والترجمان بأن هذا الحيوان خطير.

وبما أن حالتي الصحية لم تكن على أحسن ما يرام، فقد واصل رفاقي الرحلة وتركوني رفقة أحد أولائك العرب الذي عاد بي الى غزة. كان رجلا طيبا ارتحت لرفقته، وهو أمر غير مألوف بالنسبة لبني جلدته في تعاملهم مع المسيحيين. فقد آواني ليلة وصولنا في خيمة بمكان توجد به مجموعة من الخيام مصطفة على اليمين وعلى اليسار. يكاد عددها يناهز الثمانين خيمة. وكل واحدة منها عبارة عن عمودين طويلين مثبتين في الأرض بشكل عمودي بينهما مسافة وفوقهما عمود طويل ثالث موضوع بشكل أفقي ومنشور فوقه غطاء كبير من صوف أو من ريش سميك،

وأذكر أنه عند وصولي الى الخيمة نادى العربي على أربعة أو خمسة رجال من معارفه فساعدوني على الترجل من الحمار الذي كنت أمتطيه

ومددوني على حشية (فراش) كنت أحمله على الحمار وقدموا لي بعض الاسعافات على طريقتهم حتى نمت. فلم يسرقوا حاجاتي ولا مسوني بسوء. وقد كان بإمكانهم ذلك لو أرادوا، لأنه كان معي جملان يحملان كمية من النبيذ والمواد الغذائية فضلا عن مبلغ مالي قدره مائتي دوقة.

وغادرت صبيحة اليوم الموالي بعد الفجر ذلك المكان في اتجاه غزة، التي حين وصلتها أخبرت بأن الرجال الخمسة من الجماعة الذين ذكرت أسماءهم سابقا والذين مكثوا بها قبل انطلاقنا نحو موناستير القديسة كترين، غادروها رفقة الترجمان في اتجاه مدينة القدس.

وصادفت في المدينة يهوديا من صقلية استطعت التفاهم معه. فقام باحضار رجل سامرائي مسن حاول معالجتي من الحمى التي كانت ما زالت ملمة بي. وفي صبيحة اليوم الموالي أحسست بتحسن نسبي، فدلني أحد العرب على الطريق الساحلي وغادرت غزة. فممرت بعسقلان على ساحل البحر، ثم توجهت نحو حصن يبنه (Yavné).

أذكر أن كل المنطقة الممتدة بين مدينتي غزة والرملة جميلة وخصبة. عبرتها فوصلت الى الرملة. ومنها توجهت الى مدينة القدس. وفي طريقي اليها التحقت بموكب أميرها[1] الذي كان عائدا بعد أداء مناسك الحج. وقد كان محاطا بحوالي خمسين فارسا ورفقتهم حوالي مائة جمل لا يمتطيها سوى النسوة وعدد من الأطفال كانوا عائدين بدورهم من الحج. وقد قضيت الليلة في المكان الذي آووا اليه. وفي صبيحة اليوم الموالي واصلت المسير نحو مدينة القدس. وبما أنني لم أكن قد استعدت بعد كامل عافيتي، فقد مكثت حتى اليوم التاسع عشر من شهر غشت في كنيسة جبل صهيون التي يقيم بها جماعة من الإخوة الكرادلة. وبها التقيت رفقائي الخمسة الذين كانوا ما زالوا قلقين على حالتي الصحية. وبدأت أستعيد فعلا عافيتي. فتذكرت ساعتها أنني سمعت فيما مضى من اناس كثيرين أنه يستحيل على مسيحي العودة عن طريق البر الى مملكة فرنسا. وأعتقد شخصيا أن رجلا قادرا على تحمل المشاق، يتمتع بصحة جيدة وفي حوزته مبلغ من المال، قادر على تحقيق المستحيل. وأرجو من الله ألاّ أكون بقولي هذا أعتبر نفسي أقوى من خلق الله.

---

[1] - يتعلق الأمر بأركماس الجلباني الذي كان نائبا على مدينة القدس ومكلفا بإدارة شؤون الحرمين في عهد الملك الأشرف برسباي، ثم عزله. وتوفي سنة 1434. أنظر، أحمد سامح الخالدي، رجال الحكم والإدارة في فلسطين من عهد الخلفاء الراشدين الى القرن الرابع عشر الهجري، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة 2013، ص. 58.

وهكذا قررت بمعونة سيدنا المسيح وأمه المجيدة التي لا تتخلى عن أحد يقصدها بقلب صادق، أن أسلك الطريق الذي ذكرت أو أن أمكث في مدينة القدس. ولم أحدث أحدا عن هذا القرار حتى وصلت الى مدينة بيروت، فبحت به للسيد أندري التولنجي بعد أن وعدني بألا يكشف لأحد عن االمشروع الذي أريد تنفيذه.

فتحدثت مع ناصر الدين كبير مترجمي مدينة القدس بأمر السلطان، أن يضع رهن اشارتي ترجمانا يرافقني للقيام بحج الناصرة وجبل طابورطالما أن مثل هذا الحج سيرضي سيدنا المسيح، ولكن كبير المترجمين لم يلتزم بما اتفقنا عليه وقال لي بأنه لم يجد أحدا يستطيع مرافقتي للقيام بهذا السفر لأن الحرب دائرة بين سكان بعض المدن الواقعة على تلك الطريق. وأضاف بأنه منذ فترة قصيرة ذهب ضحية تلك الحرب رجل من البندقية والدليل الذي كان برفقته. وإن حارس جبل صهيون، الذي علم بالأمر، لم يشجعني هو الأخر على القيام بهذا السفر.

وعلى إثر ذلك بدأت في الاستعداد للتوجه الى الرملة رفقة السيدين سانس اللالنكّي وهامبير البوفردي. وانضم الينا أحد الاخوة الكرادلة يدعى شمعون. واستعنا بترجمان قادنا حتى يافا. ومنها ذهب الجماعة للالتحاق بالسيد ميشال الليني الذي كان متعبا طريح الفراش في كنيسة جبل صهيون. وكان رفقته أخوه غليوم الذي ظل بجواره لرعايته بمعية أحد الخدام.

وأذكر أنني في اليوم السابق على انطلاقنا نحو يافا، وكان منتصف شهر غشت الذي يحتفل فيه بارتقاء مريم العذراء الى السماء، ذهبت رفقة الأخ شمعون الى كنيسة العذراء الواقعة بالقرب من مدينة القدس، حيث استمعنا الى بعض التراتيل التي أداها جماعة من الكرادلة وتراتيل أخرى أداها جماعة يدعون أنهم مسيحيون بدت لي غريبة عما تعودنا الاستماع اليه. وهنا تضرعت للسيدة العذراء بكل قلبي وجوارحي.

رابعا: المرحلة اللبنانية – السورية

وفي يافا امتطينا مركبا في حوزة العرب، قادنا الى عكا عبر عدة مواقع كانت فيما مضى في حوزة المسيحيين. وعند وصولنا، قمنا بحج الناصرة. ولكننا لم نستكمل ذلك الحج لأن مجموعة تجار من البندقية وجدناهم بها منعونا من ذلك.

وقد بدت لي مدينة عكا، من خلال معالمها، بأنها كانت مزدهرة وتحظى بأهمية في الماضي. ولكن اليوم لا يوجد بها سوى حوالي ثلاثمائة منزل

مجتمعة في أحد الأطراف بعيدا عن الساحل. وتتوفر المدينة على مرفا جيد محصن

ومررنا بعد ذلك قبالة مدينة صور، التي هي مدينة محصنة تتوفر على مرفا جيد. كما مررنا قبالة مدينة صيدا التي تقع هي الأخرى على ساحل البحر وتتوفر على مرفا جيد. ثم وصلنا الى بيروت التي تعتبر هي الأخرى مدينة ساحلية. يبدو أنها كانت أحسن حالا عما هي عليه الآن. يوجد بها حصن مدمر ما زال جزء منه قائم بمحاذاة المرفا الذي هو عميق جيد يمكن أن ترسو به المراكب بكل طمأنينة.

والتقيت أثناء تواجدي ببيروت بتاجر من جنوة يدعى يعقوبو بلافيتشينو (Jacopo Pallavicino). سألته بالمناسبة عن الطريق الذي يمكنني أن أسلكه. فنصحني بأن أتوجه الى دمشق وهناك سألتقي بعدد من التجار الجنويين والبنادقة والقطلونيين والفلورنسيين وغيرهم يمكنهم مساعدتي في أخذ قرار. واقترح على الاتصال بتاجر جنوي يدعى أتوبيونو سكوتو (Ottobiuno Scotto).

وهكذا التمست من السيد سانس اللالنڭي مرافقتي الى دمشق دون اخباره عما أريد أن أفعله هناك. فأعجب بالاقتراح وانطلقنا معا رفقة أحد المُكارين. وهؤلاء أناس يقومون بكراء الحمير والبغال ويدلون من يرغب في السفر عبر سوريا. وانطلقنا فعلا من بيروت عبر عدة مرتفعات حتى وصلنا الى سهل فسيح يدعى سهل نوح [سهل البقاع] الذي صنع فيه سيدنا نوح سفينته. ويخترق هذا السهل نهران، ولذلك فهو خصب وجميل يسر الناظر. يستقر بهذا السهل عرب يقيمون في قرى، تحيط بها شجيرات الكروم، تقع عند أقدام المرتفعات التي تبدو شاهقة من جانبيها.

ووصلنا الى دمشق بعد يومين على انطلاقنا من بيروت. وأفيد من يرغب في المرور من هنا بأن البرودة الشديدة تسود في الليل بسبب الندى المتساقط. وينطبق هذا الأمر على مجموع التراب السوري. وكلما كانت درجة الحرارة مرتفعة في النهار، يتساقط الندى بكثرة أثناء الليل وتكون درجة الحرارة منخفضة.

وبمجرد وصولنا الى دمشق، التقينا بعدد من التجار الفرنسيين والبندقيين والجنويين والفلورنسيين والقطلونيين. وكان من بينهم فرنسي يدعى جاك كور (Jacques Coeur) الذي سيصبح ذي سلطة في فرنسا وسيغدو ممول ملكها. وهو الذي قال لنا بأن المركب الذي أقلع من نربونة (Narbonne) واتجه الى الأسكندرية، سيأتي الى بيروت. وقال لنا كذلك بأنه يعتقد أن السيد أندري ورفاقه الثلاثة سيأتون على متن هذا المركب.

وقد ذهب التجار الفرنسيون لشراء بعض البضائع والمنتوجات ومن بينها التوابل لشحنها على متن المركب التجاري الراسي في الاسكندرية والذي سيتوجه بعد ذلك الى بيروت كما ذكرت.

أذكر أن عادة يجري العمل بها في سوريا وهي أن لا أحدا من المسيحيين قادر على التجول بين أزقة مدنها وهو يمتطي حصانا، ولذلك فإن المكاري الذي كان يرافقنا طلب مني ومن السيد سانس أن نترجل عند مدخل دمشق. وفجأة أتى عشرة أو إثنا عشر نفرا من المسلمين وأخذوا ينظرون الينا لأنني كنت أضع فوق رأسي قبعة كبيرة من فراء وهو أمر غير مألوف في هذه الجهات. وحدث أن مسلما كان يحمل عصا قصيرة، اقترب مني ونزع بعصاه القبعة التي طارت من فوق رأسي. وحركت ذراعي أريد أن أقوم بلطمه، ولكن المكاري حال بيننا ودفعني. وفجأة أحاط بنا حوالي ثلاثون أو أربعون مسلما. وأعتقد أنني لو كنت لكمته لتلقيت الصاع صاعين. أقول هذا لأنبه بأنه من غير المجدي الدخول في نزاع أو مشادة مع هؤلآء، لأنهم يبدون من أشرار الناس ذوو فكر محدود. لا يجب اظهار العداوة تجاههم، كما لا يجب الظهور أمامهم بمظهر الضعف أو ابداء نوع من الخوف وفق التجربة التي حدثت لي معهم. ويبدو لي أيضا أنه لا يجب أن يظهر المرأ أمامهم بأنه غني لأنهم قوم حقودين ولا يمكن ارضاؤهم الا في حالات نادرة. وان الحجاج يستطيعون الوقوف على هذا الأمر حين يصلون الى يافا حيث تقتضي الضرورة كراء الحمير للذهاب الى مدينة القدس والى بقاع الحج الأخرى المعتادة. ولهذا لن أضيف أكثر.

لقد دلني بعض الناس بالقرب من دمشق على الساحة التي التقى فيها القديس بولس بالسيد المسيح والتي سقط فيها من ظهر حصانه وفقد البصر كما يقال. ومن هذه الساحة أعاده الى المدينة لتعميده في المكان الذي يوجد به حاليا مسجد. وقد رأيت أيضا الساحة التي امتطى فيها القديس جرجس حصانه وذهب لمصارعة التنين. توجد في هذا المكان صخرة مربعة مقاسها قدمين من كل جانب، يقول البعض بأن المسلمين أرادوا انتزاعها عدة مرات ولكنهم لم يستطيعوا.

تمتد ثلاث جهات من دمشق على أراضي منبسطة، أما الجهة الرابعة في اتجاه الغرب، فتقع على جبل كبير، يوجد به منزل قابيل قبالة المدينة. وتنتشر على جانبي الجبل مجمعات سكنية، ولذلك تبدو دمشق مدينة كبيرة وفسيحة. كما توجد بها مجموعة بساتين جميلة هي من أكبر البساتين التي رأيت. تنتشر بها أشجار تجود بفواكه ذات جودة عالية وتتخللها المياه بوفرة.

ولذلك، فقليلة هي منازل المدينة التي لا تتوفر فيها نافورات حسب ما قيل لي.

يخترق المدينة نهر من عدة جهات. كما توجد بها أبراج جيدة تقع في الأطراف، بينما تقع المنازل في الداخل.. وهذه المنازل موزعة على المجمعات السكنية التي ذكرتها. ويقال بأن النيران أضرمت في المدينة وتعرضت للدمار على يد تيمورلنك سنة 1400. وما زالت آثار هذا الدمار بادية للعيان كما هو الشأن في أحد الأحياء، الواقع في اتجاه باب القديس بولس، الذي ما زال لم يتم ترميمه بعد.

توجد في دمشق دار كبيرة يضع فيها التجار بضائعهم في مأمن تسمى خان برقوق استثناها تيمورلنك، الذي تحدثت عنه، من الدمار تشريفا لبرقوق. وان برقوق هذا هو الذي فشل الفرس والتاتار في كسب أي معركة ضده في سوريا. وبالفعل ففي كل مرة كان يبلغه أن الأعداء يستعدون للتوجه الى سوريا، كان يستنفر قواته ويسبقهم الى النهر الواقع ما وراء حلب والذي يفصل بين سوريا وفارس. والملاحظ من معاينة البلد أن هذا النهر يخترق الأراضي التركمانية. ويبدو أن برقوق هذا كان رجلا شجاعا ولا زال اسمه يتردد في هذا البلد. وأعتقد أنه ينحدر من أصل فرنسي لأنه توجد داخل الدار صخرة منقوش عليها بعض زهور الزئبق التي تم نقشها عند تشييد الدار. ومهما كانت أصول تلك الزهور، فإن الرجل يستحق التنويه، ولذلك يعتقد كثير من السكان أنه لو كان حيا زمن تيمورلنك لما تجرأ هذا الأخير على المساس بسوريا[1].

يوجد كذلك في المدينة حصن كبير بارز وصلب يقع على أرض مستوية ويحيط به خندق عميق. يسهر على حمايته قبطان مكلف من قبل السلطان يمنع أمير المدينة من الدخول اليه. لأن هذا الأخير ثار مرة في وجه السلطان حسبما قيل لي.

وتمثل دمشق أكثر المدن المزدهرة التي يحكمها السلطان بعد القاهرة. وقد قيل لي بأن عدد سكانها يبلغ ألف نسمة. وتوجد بها حركة تجارية نشيطة جدا. وقد بدا لي بأن المسيحيين هنا منبوذين الى حد ما ولذلك يوجد أعوان مكلفين بغلق أبواب مراكز ايواء التجار بمجرد غروب الشمس. ولا يعودون لفتحها الا في صباح اليوم الموالي حين يروق لهم ذلك.

---

[1] ـ برقوق هذا الذي يتحدث عنه برتراندون دو لا بركيير دون ذكر اسمه الكامل هو الظاهر سيف الدين برقوق بن أنس الشركسي. بويع سلطانا على مصر سنة 1382. ويعد مؤسس السلطنة الشركسية التي شمل نفوذها مصر وبلاد الشام التي حكمها حتى وفاته سنة 1399

لقد غادرت دمشق رفقة السيد سانس وعدنا عبر نفس الطريق الى بيروت. وبينما نحن ننتظر في المرفا وصول المركب القادم من نربونة (Narbonne)، كان عدد من العرب يقيمون حفلا وفق تقليد جرى العمل به منذ القدم. وقد قيل لي بأن الحفل يبدأ بعد الغروب مع بداية حلول الليل. وكان جمهور من الحاضرين يرقصون ويرددون أناشيد بصوت مرتفع، بينما كان أفراد يطلقون طلقات مدافع من أعلى الحصن. في حين كان آخرون في المدينة يطلقون شهبا نارية في اتجاه السماء. كان الواحد منها أكبر حجما من المشعل بحيث لم أر قط مثلها. قيل لي بأنهم يستعملونها أحيانا ضد الأعداء القادمين من البحر لترهيبهم وحرق أشرعة مراكبهم. وأعتقد أنه بالإمكان استعمال هاته الشهب لحرق معسكر بأكمله أو مدينة يكسو أرضها تبن وحشائش. كما يمكن، عند حدوث معركة بين مجموعة فرسان، استعمالها لارهاب الخيول، فهي سهلة الصنع وقليلة التكاليف لمن يعرف استعمالها[1].

وقد طلبت بواسطة خادم مضيفي من الرجل الذي يصنع هذه الشهب أن يعلمني طريقة صنعها. ولكنه قال لي بأنه لا يستطيع ذلك لما يكتنف هذا العمل من مخاطر كبيرة اذ افتضح الأمر. فمنحته دوقة، فأحاطني بكل ما يعرفه عنها وأعطاني قوالب من خشب وأشياء أخرى نقلتها الى الجهة الأخرى من البحر [أي الى موطنه]. وكما قلت سابقا، يبدو لي أن العربي لا يتوانى عن فعل أي شيئ من أجل ربح المال.

ولم يصل المركب، الذي تحدثت عنه، الى مرفأ بيروت الا بعد ثلاثة أو أربعة أيام. وكان على متنه السادة أندري التولنجي وجوفروا الطواسي وجون دو لا روى الذين التقينا بهم. وفي تلك الليلة بالذات تحدثت مع السيد أندري التولنجي وأفصحت له عن الطريق الذي أنوي عبوره. وكان من الممكن أن يمنعني لولا الوعد الذي سبق أن قطعه على نفسه. وذكرني بالمشاق التي كابدتها في سفري والتي كان من الممكن أن تجعلني أفقد الاعتقاد في السيد المسيح. وعبر لي عن خشيته أن يحدث هذا الأمر. ولم

---

[1] - لا بأس من الإشارة الى أن الألعاب النارية التي يتحدث عنها برتراندون دو لا بركيير ظهرت في الصين منذ القرن السابع للميلاد. ولم تنتشر في أرجاء العالم الا بعد وقت متأخر. فقد انتشرت في العالم الإسلامي خلال القرن الثالث عشر ثم انتشرت في أوربا خلال القرن الموالي.. وتفيد بعض الأبحاث أن الشاميين كان لهم كسب السبق في استعمال الشهب والألعاب النارية. ووجد من بين ظهرانيهم كيميائيون طوروا استعمالاتها وتقنياتها. ومن بينهم نجم الدين حسن الأحدب المعروف بحسن الرماح الذي خصها بفصول في كتاب وضعه قبل وفاته سنة 1294 يعرف ب: الفروسية والمناصب الحربية: البارود، النيران الحربية، التقطير، تحقيق أحمد يوسف الحسن، منشورات معهد التراث العلمي العربي، بيروت، 1998.

أطلع الأخرين على ما أنوي القيام به، ولكنهم تمنوا لي بدورهم التوفيق وغادروا بيروت في اليوم الموالي بينما مكثت بها لوحدي.

وقد زرت بها مسجدا يقال ان القديسة بربارة (Sainte Barbe) كانت قد بنت في مكانه كنيسة ثم حولها السلمون الى مسجد. وكانوا كلما أرادوا الدخول اليه لأداء الصلاة يشعرون بأنهم يتعرضون للضرب. ومنذ ذلك الحين لم يعد أحد يجرؤ على دخوله.

وأذكر أن كرامة أخرى حدثت في موضوع تمثال يُشخص السيد المسيح، كان قائما في منزل أحد اليهود، حيث توجد الآن كنيسة كرادلة بيروت. فقد حاول جماعة من اليهود إزالته كما فعلوا قديما حين حاولوا المس بالسيد المسيح، فرأوا التمثال ينزف دما. فوقفوا مشدوهين من هذا الأمر وأخبروا الأسقف بذلك. ثم سعوا للتكفير عن ذنبهم وقدموا المنزل هية فتحول الى الكنسية التي يوجد بها الكرادلة في الوقت الحاضر.

وخلال مقامي بالمدينة، طلبت من التاجر البندقي الذي أقيم في ضيافته، ويدعى باولو بربريگو (Paolo Barbarigo)، أن يرشدني حول الطريق الذي يجب أن أسلكه للقيام بحج الناصرة وجبل طابور، فاتفق مع مكاري يدلني للوصول الى هناك. فأمدني هذا الأخير بلباس من النوع الذي يرتديه المسلمون وطلب مني ارتداءه. وقال لي لقد أصدر السلطان أمرا يقضي بالسماح للفرنجة بارتداء لباس مثل الذي يرتديه المسلمون حرصا على سلامتهم. وذلك ما حدث وانطلقت مع المكاري في اليوم الموالي الذي غادر فيه المركب مرفأ المدينة. وقبل انطلاقنا تعهد المكاري لمضيفي بربريگو بأن يضمن سلامتي حتى أصل الى دمشق.

بعد مغادرة بيروت، على بعد مرحلة في الطريق المفضي الى صيدا، رأيت غابة صغيرة تكسوها أشجار من الصنوبر الشاهق. وهي أشجار جميلة يُحتفض بها بعناية ولا يُسمح بقطعها. ولا أدري ما الغاية من ذلك. ثم واصلنا الرحلة بين الجبل والساحل. ثم عبرنا فوق قنطرة من حجارة نهرا عميقا نسبيا. فقال لي المكاري بأن مياه هذا النهر غير صالحة للشرب وأن النهر آت من سهل نوح [سهل البقاع]. وقد قضينا الليلة في خان بالقرب من القنطرة المذكورة. وفي صبيحة اليوم الموالي واصلت السير الى صيدا. فلاحظت أثناء الطريق أن الجبال تقترب في بعض المواضع من البحر حتى يضطر المرأ الى السير فوق الشاطئ. وتبتعد في مواضع أخرى، فيغدو

الفضاء الذي يخترقه المسلك عريضا قرابة نصف لوقة (une lieue)[1] أو ربع لوقة مما يسمح بوجود بعض المنازل. وعموما، فان الناحية كلها جميلة وخصبة.

أما مدينة صيدا، فهي مدينة تقع على ساحل البحر. مغلقة بأسوار من جهة اليابس. وتوجد بجوار تلك الأسوار خنادق غير عميقة. ومنها سرت الى مدينة صور التي وصلت اليها بين الليل وانبلاج الصبح. وهي مدينة ساحلية صغيرة. بدت لى جميلة رغم أنني لم أتوقف بها. وعلى بعد حوالي ربع دوقة (lieue) منها وجدت نافورة ماؤها عذب.

بدا لي بأن كلا من مدينتي صيدا وصور غير محصنتين بما فيه الكفاية، ولذلك تعرضتا للدمار في الماضي حسبما يتضح من أسوارهما التي ليست ذات قيمة مقارنة بأسوار مدن أخرى تقع على ساحل البحر.

رأيت على طول الطريق قرى تقع في مناطق تسر الناظر ممتدة على طول الجبل الذي يأخذ شكل قوس أو هلال ينتهي عند البحر. ولكن لا توجد قرى على السهل على امتداد البحر. وعلى بعد حوالي لوقة من مدينة صور، مررت بالشريط الساحلي الذي يمتد على شكل منحدر يضيق فيه الممر. وفي قمة هذا المنحدر يوجد برج محصن شاهق يتخذ نقطة لمراقبة الممر. لا يمكن لأي فارس السير في الطريق البري من صور الى عكا الا عبر المرور بهذا الممر الضيق. وبدءا من هذا البرج حتى عكا، فإن جميع الجبال منحدرة وتتنتشر بها المساكن التي يقيم في معظمها سكان من العرب. ومن هذا المكان وصلت الى عكا التي التقيت فيها برجل نبيل، من رجال المنطقة، يدعى فخر الدين. قدم الى هذه المنطقة ونقل معه خيامه وأقام ببعض الحقول وأصبح له أتباع.

تقع عكا في ناحية جميلة جدا تقع بدورها في سهل فسيح يمتد حوالي ثلاث أو أأربع لوقات. وتحيط بهذا السهل الجبال من ثلاث جهات، بينما تشرف الجهة الرابعة على البحر. وقد صادفت في هذه المدينة تاجرا من البندقية يدعى ألبرتو فرانكو (Alberto Franco). شعرت بالسعادة عند مقابلته وهو الذي دلني على المسلك الواجب اتباعه للذهاب الى الناصرة وجبل طابور.

وغادرت عكا فعلا في اتجاه الناصرة. ومررت عبر سهل فسيح حتى وصلت الى النافورة التي حول المسيح ماءها الى نبيذ بمناسبة حفل الزفاف

---

[1] - وحدة قياس استعملها فرنسيو العصر الوسيط لقياس المسافة في البر. وتبلغ في النظام المتري 4 كيلوميترات..

الذي أقيم في قانا. وتقع هذه النافورة بالقرب من قرية يقال بأنها القرية التي ولد فيها القديس بطرس.

واتجهت من هذه القرية صوب الناصرة التي هي عبارة عن قرية كبيرة تقع بين جبلين. وهي أيضا المكان الذي بشر فيه الملاك جبريل مريم العذراء. ولكنها قرية تثير الشفقة لأن الكنيسة التي كانت موجودة بها تم تدميرها ولم يبق سوى المكان الذي كانت مشيدة به والذي لم تعد له قيمة مع أنه هو المكان الذي كانت توجد به مريم العذراء حين ظهر لها الملاك جبريل.

وغادرت هذا المكان في اتجاه جبل طابور الذي تجلى فيه السيد المسيح. وحدثت به أيضا كرامات أخرى كما ورد في الكتاب المقدس. وأذكر بأنني وصلت الى هذا المكان تحت حماية رجلين رافقاني من الناصرة لهذا الغرض، لأن عدد العرب في جبل طابور كثير جدا. وعند وصولنا مع حلول الظلام، استعنت أيضا برجلين آخرين من سكان القرية. وفي الصباح شرعنا في صعود الجبل الذي كان شاهقا ويصعب تسلقه لعدم وجود مسلك يفضي الى القمة. فامتطيت بغلا صعد بي لمدة ساعتين حتى وصلت الى القمة. ولم أجد بها أي عربي مع أن العادة جرت بأن يوجد بها بعض العرب مع قطعانهم التي يصعدون بها للرعي في فضاء معشوشب هنا بمحاذاة القمة. وقد طفت بجميع الأماكن التي كانت توجد بها كنائس في هذا الفضاء الدائري الشكل والفسيح والذي يبدو أنه كان محاطا بأسوار لأن أسسها ما زالت قائمة.

وفي الطرف الآخر من هذا الفضاء، كانت توجد كنيسة يزورها المسيحيون لطلب الغفران الإلاهي. وعند قدم الجبل في الاتجاه الذي تشرق منه الشمس، تقع مدينة طبرية. ويأخذ نهر الأردن مجراه بين جبل طابور وجبل آخر يقع في الجهة المقابلة. أما في الاتجاه الذي تغرب منه الشمس، فيوجد سهل فسيح تنتشر به بساتين تغطيها أشجار النخيل المثقلة بالثمور، وبالقرب منها بساتين بها شجيرات تشبه شجيرات الكروم، تجود بالقطن الذي يبدو من جهة شروق الشمس كقطع صغيرة من الثلج تغطي أغصان تلك الشجيرات.

وبعد أن عاينت كل شيئ، نزلت الى قدم الجبل في الاتجاه الذي تغرب منه الشمس. فقادني الأدلاء الذين كانوا برفقتي الى منزل أحد سكان القرية لأستريح وأتناول وجبة العشاء لأنني كنت قد حملت معي كمية من النبيذ وبعض الدجاجات الصغيرة المطبوخة. وقد سر صاحب البيت حين علم بأن معي كمية من النبيذ واعتقد أنني من علية القوم. فرحب بي وقدم لي جرة من

اللبن وأخرى من العسل. ورأيت في هذا المنزل لأول مرة كيف يقوم رجال ونساء بصناعة القطن. كما قدم لي عرجون تمر. فكان أول عرجون أراه في حياتي.

وعند استعدادي لمغادرة هذا المنزل، حاول الرجلان اللذان رافقني، من الناصرة الى جبل طابور لحراستي، ابتزازي واعادة النظر في الاتفاق الذي حصل بيننا. ولن أكذب إذا قلت لو أنني كنت أحمل سيفا لتعاركت معهما وارتكبت حماقة. وانتهى الأمر بيننا بأن أعطيتهما إثنا عشر درهما بعملتهم، أي ما يعادل نصف دوقة.

وبمجرد ما غادراني وبقيت وحيدا مع المكاري، مر بالقرب منا رجلان من العرب. كل واحد منهما يمتطي حصانا جميلا. وكانا مسلحين على الطريقة المعتادة هنا ويرتديان قباءات ذات أكمام طويلة. ويحمل كل واحد منهما رمحا رأسه الحديدي أرق من رأس الرمح الذي يستعمل عندنا. كما يحمل كل واحد منهما ترسا جميلا لونه فخاري. وهو دائري الشكل محدب في الوسط ومثبتة فيه قطعة حديدية. وكان على رأس كل واحد منهما كلوثة [نوع من القبعات] قرمزية من صوف خشن على غرار قبعات رأيت بعض العرب يغطون بها رؤوسهم. وحين مرا بنا امتلك المكاري خوف شديد. وبعد انصرافهما قال لي لو أنهما علما بأنك مسيحيي لترتب عن ذلك خطر قد ينهي حياتنا أو ربما كانا سيقومان على الأقل بتجريدنا من كل شيئ.

وحين وصلنا الى طبرية، حططنا الرحال بأحد الحقول. فذهب المكاري الى المدينة وتركني بمفردي ذلك اليوم حتى حلول وقت تناول الحساء لأن ذلك اليوم تزامن مح حلول الأوقات الأربعة في شهر شتنبر والتي يتم فيها صيام بعض الأيام. وبعد ذلك، نهضنا ودخلنا الى المدينة. وعند منتصف الليل نزلنا جبلا غير مرتفع يفضي الى بحيرة طبرية التي يقال بأن القديس بطرس كان يأتي اليها لصيد الأسماك. وتوجد بمحاذاتها أماكن يمكن زيارتها لطلب الغفران. وقد قادني المكاري الذي كان يرافقني، الى هذه الأماكن ليلا لتفادي المكس الذي يتوجب دفعه لو زرناها بالنهار. وبما أننا زرناها ليلا لم أتمكن من رؤية ما يحيط ببحيرة طبرية. ومن هذه البحيرة، ذهبنا الى البئر الذي ألقي فيه سيدنا يوسف من قبل إخوته. ويقع بجوار هذا البئر مسجد جميل دخلته رفقة المكاري. ومنه توجهنا الى قنطرة مصنوعة من الحجارة تسمى قنطرة يعقوب يقع بالقرب منها منزل يقال بأنه هوالمنزل الذي كان يقيم به يعقوب. وتقع القنطرة المذكورة فوق نهر الأردن الذي ينبع من بحيرة توجد عند قدم جبل مرتفع يقع في الشمال الغربي ويوجد على قمته حصن

جميل في ملكية فخر الدين الذي يقال بأن جميع المنطقة الممتدة من هذا المكان حتى القدس تخضع لسلطته.

ومن هذا المكان واصلت رحلتي حتى دمشق عبر منطقة ممتدة بين جبيلين قد يبلغ عرضها لوقتين (deux lieues) أو أكثر. ونصف الطريق الذي يخترق هذه المنطقة تكسوه أحجار صوان كبيرة الحجم نسبيا لم أر مثلها من قبل تشبه حجارة الأودية، لاقت الخيول صعوبة في السير فوقها. والطريق في حد ذاته ليس عريضا يمكن أن يصطف على طوله مائة ألف رجل في وضعية قتال. ويقع عند مخرج المنطقة خان بمحاذاة جداول ونافورات رائقة المنظر. وبدءا من هذا الخان يصبح المسلك جيدا حتى دمشق.

ويقع في الطريق على بعد أربعة أو خمسة أميال من دمشق، أجمل خان رأيته في حياتي تجري بمحاذاته ساقية تأخذ كلها شكل نافورات. وفي طريقي اليه التقيت بعربي أسود البشرة قادم من القاهرة على ظهر جمل سباق. ذكر بأن رحلته الى هذا المكان لم تستغرق سوى ثمانية أيام مع أنها تستغرق ستة عشر يوما كما يقال[1]. وقد فر منه الجمل فساعدته أنا والمكاري في الإمساك به. كان على ظهر الجمل سرج من نوع السروج العربية، ولكنه غريب نسبيا. يجلس فوقه الفارس ملتف السيقان. يربط رأسه وجسده الى السرج حين يكون في سباق نظرا للسرعة وللرياح التي تنشأ عنها. وقد أخبرني المكاري الذي يرافقني بأن هذا العربي أتى الى هنا بأمر من السلطان لإلقاء القبض على القطلونيين والجنويين الموجودين بدمشق وفي جميع أنحاء سوريا لأن قاربين من قوارب أمير تارنت (Tarente) قاما باحتجاز قارب عربي خفيف قبالة ساحل طرابلس بسوريا.

وقد حللت بدمشق قبيل غروب الشمس. وبما أنني كنت أرتدي هذه المرة لباسا على غرار سكانها، فقد دخلت والمكاري الى المدينة على ظهر حصانينا. ووصلنا اليها بعد رحلة دامت سبعة أيام.

وفي اليوم الموالي لوصولنا الى دمشق، رأيت القافلة القادمة من مكة وهي تدخل الى المدينة. يقال بأنها كانت مؤلفة من ثلاثة آلاف جمل واستغرقت رحلتها يومين وليلتين. لقد كان وصولها حدثا بارزا تم الاحتفال به على طريقتهم. حيث هب أعيان المدينة لاستقبال هذه القافلة التي كانت تحمل المصحف الذي يتضمن التشريعات التي تركها محمد للمسلمين. كان

---

[1] ـ يتحدث برتراندون دو لا بركيير هنا عن الجمل المعروف بالهجن. وهو وحيد السنام يتميز بالنحافة وسرعة الركض والقدرة على تحمل الحرارة والعطش.

المصحف مغطى بقطعة ثوب من حرير مطرز مكتوبة عليه كلمات باللغة العربية. وكان موضوعا فوق ظهر جمل مكسو بثوب من حرير وسط القافلة التي يتقدمها أربعة عازفين وعدد كبير من الرجال بعضهم يدق على طبول كبيرة وآخرون على طبول أصغر منها. وكان ذلك يحدث ضجيجا قويا. وكان يحيط بذلك الجمل حوالي ثلاثين رجلا يحمل بعضهم أقواسا وبعضهم سيوفا مجردة من أغمادها وبعضهم مدافع يدوية صغيرة في شكل قاذفات بارود محمولة تطلق من حين لآخر عدة طلقات. وكان خلف ذلك الجمل ثمانية رجال مسنين يمتطي كل واحد منهم جمل سباق وعلى جنبيهم خيول فوق ظهورها سروج جميلة جيدة الصنع. وخلف هؤلاء امرأة تركية من أقارب كبير الأتراك[1]. كانت جالسة في هودج محمول على جملين مجهزين أحسن تجهيز وبالقرب منهما دواب تكسو ظهورها أثواب مطرزة بالذهب.

وللافادة، أذكر بأن هذه القافلة كانت مؤلفة من عرب وأتراك وبرابرة وتاتار وفرس. كل هؤلاء يتبعون دين محمد ويلتزمون بالشريعة ويعتقدون أنه يتوجب عليهم بعد ذهابهم الى مكة، تجنب القيام بأي فعل منكر. وهذا ما ذكره لي عبد مرتد[2] من خدام تلك المرأة يدعى عبد الله بلغة الأتراك. ومعنى هذا الاسم في لغتنا "خادم الله". وقال لي أيضا بأنه ذهب الى مكة ثلاث مرات.

وقد قضيت معه عدة أيام. رافقني في معظمها في الليل والنهار. وسألته في عدة مناسبات، ونحن بمفردينا، عن محمد وأين يوجد قبره. وأجابني بأنه يوجد في مكة في ضريح دائري توجد به فتحة يصعد الحجاج ليروا من خلالها القبر. فيقوم بعضهم من شدة التأثر بفقإ أعينهم اعتقادا منهم بأنه ليس هناك ما يستحق المشاهدة بعد رؤية قبر محمد. وذكر لي أنه رأى مرة رجلان، أحدهما يبلغ من العمر حوالي ثمانية عشر سنة والآخر اثنين أو ثلاث وعشرين، قاما بفقإ أعينهما. كما ذكر لي هذا العبد أيضا، أن الحجاج لا يحصلون على المغفرة في المدينة بل يذهبون الى مكة التي بنا بها ابراهيم. بيتا ما زال موجودا يطوفون حوله. وقال لي يجب أن يحضر مراسيم الحج كل سنة سبعمائة حاج. وإذا تخلف أحدهم أو بعضهم، يرسل الله ملائكته لاستكمال العدد. وحين تحل القيامة، يمنح محمد الجنة لقدر كبير من الناس الطيبين كما يروق له، فيجدون بها نساءا ولبنا وعسلا بوفرة.

---

[1] - يقصد برتراندون دو لا بركيير السلطان العثماني مراد الثاني. ويستعمل طيلة النص عبارة le (Grand Turc) عند الحديث عنه. وقد ترجمنا هذه العبارة "بكبير الأتراك".

[2] - يقصد تخلى عن دينه واعتنق الاسلام.

تقع هذه المدينة (أي مكة) على ساحل البحر[1]. يأتيها رجال من بلاد الكاهن يوحنا[2] على متن مراكب كبيرة يحملون التوابل وبضائع أخرى، يقوم أتباع محمد بحملها على ظهور الجمال أو دواب أخرى الى القاهرة ودمشق والى أماكن أخرى كما يعرف الجميع. وقال لي عبد الله بأن المسافة بين دمشق ومكة تتقتضي أربعين يوما من المسير في الصحراء حيث الحرارة المرتفعة التي توفي بسببها عدد من الناس مختنقين هذا الموسم.

وقد سمعت منه كلاما كثيرا عن محمد، حتى أنني ذهبت عند راهب، يخدم سفير البندقيين بدمشق ويقيم الصلاة بمسكنه ويتلقى اعترافات تجار البندقية ويقوم برقيتهم، فبحت له باعترافاتي وقام برقيتي، ثم سألته هل يعرف شيئا عن محمد. فقال لي نعم، كما أنني أعرف الكثير عن قرآنهم. فالتمست منه أن يدون ما يعرفه لأقدم ذلك التدوين لسيدي الدوق. وقام بذلك فعلا بكل طواعية. وحملت ما دونه معي.

أذكر أن كبير الأتراك [السلطان العثماني] يتبع تقليدا لا أدري ما إذا كان الحكام الآخرون يتبعونه، وهو أنه حين يتوجه أناس من بلاده الى الحج، يعين بمحض ارادته رئيسا يأتمرون اليه كما يخضعون له هو شخصيا (أي كبير الأتراك).

وقد ساعدني البعض في الوصول الى اتفاق مع عربي من دمشق لمرافقتي مع القافلة الى بورصة. وكان ذلك الاتفاق يقضي بأن أدفع للعربي ثلاثين دوقة بالاضافة الى نفقات رحلته. ولكن تم تنبيهي بعد الاتفاق بأن العرب قوم مخادعون ولا يفون بالوعود. وأقول هذا لتنبيه أولائك الذين يفكرون في التعامل معهم. وما قلته هو اعتقاد شخصي. وقد أحالني البعض على عبد الله الذي سبق أن تحدثت عنه، فعرفني على بعض تجار بلاد كرمان لتحقيق ما أرغب فيه. ولكنني عدلت عن ذلك في النهاية والتمست من مضيفي ومن السيد يوحنا دو مين (Jean de Mine) مرافقتي للاتصال بحجة براك قائد القافلة، الذي يعد كذلك من بين الشخصيات المهمة في مدينة بورصة. وقد استجابا لرغبتي، فقابلت حجة براك وشرحت له بأنني أريد الذهاب الى بورصة لرؤية أخي المقيم بها والتمست منه أن يسمح لي بالانضمام الى القافلة لأسافر في مأمن. فسألهما ان كنت أتحدث العربية أو التركية أو العبرية أو اليونانية. فأجبته بالنفي. فسألهما عما أريد فعله في بورصة. فأعادا عليه ما قلته له بتفصيل. وقالا له بأنني سأكون سعيدا

---

[1] ـ يقصد برتراندون مكة. وقد كان مخطئا لأنها تقع في الداخل. والمقصود من كلامه مدينة جدة الواقعة على ساحل البحر.

[2] ـ أخطأ برتراندون هنا أيضا. والمقصود من كلامه الهند.

بالآنضمام الى قافلته وسأفعل ما في وسعي لأنال رضاه لأنني لا أستطيع السفر عبر البحر نظرا للحرب الدائرة. فوضع يديه على رأسه ثم أمسك لحيته وقال لهم باللغة التركية بأنه يسمح لي بالانضمام الى عبيده ولكن شريطة أن أرتدي لباسا يشبه اللباس الذي يرتدونه.

فتوجهت، عقب المقابلة، رفقة السيد يوحنا دو مين الى متجر كبير تباع فيه الملابس والقبعات وأشياء أخرى. فاشتريت كل ما تتطلبه الرحلة. اذ اشتريت قبائين بيضاوين طويلين يصلان الى الكعبين وطاقية من كتان وزنارا من الكتان وزوجا من السراويل لأدس داخل الذي سأرتديه منهما أطراف القباء، واشتريت بساطا صغيرا أبسطه لأنام عليه، واشتريت صولقين، أحدهما أضع فيه حاجاتي الخاصة والآخر أعلقه في رقبة الفرس لأضع له فيه قليلا من الشعير أو التبن. كما اشتريت معطفا من جلد مبطن بثوب أبيض أفادني كثيرا في الليل أثناء الرحلة. ثم ذهبت الى متجر آخر، اقتنيت منه جعبة بيضاء مملوءة بالنبال واشتريت سيفا وخنجرين وملعقة وكيسا صغيرا يوضع فيه الملح أو التوابل.

وأذكر بأنني اشتريت الجعبة المملوءة والسيف خفية. اذ لو علم أعوان السلطة والقضاء بذلك لتعرض تجارهما وأنا كذلك للخطر. ويقال بأن السيوف الدمشقية أجمل وأفضل سيوف سوريا. وإن صنعها يثير الدهشة عند رؤية طريقة صقلها قبل سقيها. إذ يضعونها في قطعة من حديد مثبتة في قطعة من خشب ويقومون بتسوية النصل كما تسوى قطعة الخشب لإزالة ما به من زوائد. ثم يقومون بصقله وسقيه حتى يكاد الصانع يرى وجهه فيه. فيغدو السيف حادا أكثر من أي سيف رأيته.

وتصنع في دمشق وأعمالها مرايا من الفولاذ تعكس الشيئ الذي هو قبالتها بصورة مكبرة نسبيا كتلك المرايا التي تنبعث منها طاقة حرارية. وقد رأيت إحداها حين وضعت قبالة الشمس وانعكست عليها الأشعة، حدثت شعلة أضرمت النار في قطعة خشب كانت قبالتها على بعد أربعة عشر أو ستة عشر قدما.

وقد ذهبت بعد ذلك الى اصطبل، فاشتريت حصانا صغيرا رأيت أنه جيد. قمت باعادة صفائحه. ولم أقم بأي شيئ آخر يخصه حتى بورصة، حيث استغرقت الرحلة الى هذه المدينة خمسين يوما، لم أغير خلالها شيئا سوى أن مسمارا دخل في أحد حوافره الأمامية وجعله يعرج حوالي ثلاثة أسابيع.

وللافادة، لا بأس أن أتحدث عن طريقة تركيبهم لصفائح الخيول. فهم يصنعون صفائح من حديد رقيقة وخفيفة تمتد حتى كعب حافر الفرس. وهي

أكثر رقة في المقدمة وغير مقوسة. تتخللها أربع ثقب، اثنان في كل جانب. يدخلون عبرها مسامير، رؤوسها مربعة كبيرة وثقيلة. ويقومون بصقل حوافر الحصان بواسطة مزبرة (سكين) تشبه تلك التي تستعمل، في مناطقنا ما وراء البحر، لزبر شجيرات الكروم. وإذا ما أرادوا تسوية إحدى الصفائح لتتلاءم مع الحافر، فانهم يقومون بضربها (بمطرقة) وهي باردة دون وضعها في النار لأنها رقيقة وخفيفة كما ذكرت.

ومن أراد شراء حصان في مناطق هذه الجهة من البحر، فإنه يختار أسرع الخيول كما نفعل نحن حين نختار من يسير بخفة. وفي هذه المناطق، يكون سير الخيول على منوالين: إما أن تسير ببطئ وإما أن تركض. وهي خيول جيدة تركض لمدة طويلة وسعرها منخفض، لأنها لا تأكل سوى كمية قليلة من الشعير والتبن المفروم أثناء الليل. ولا تشرب الماء الا بعد الظهر. وتترك اللجامات دوما في فمها حتى وإن كانت في الاسطبل. وهي خيول غير منجبة باستثناء فصيل منها مخصص للتزاوج مع إناث الخيول بغرض الانجاب.

وحين يحدث أن تلتقي مع رجل ميسور، فإنه يذهب بك الى اصطبل الخيول ليحدثك عنها. فتجد الإصطبل نظيفا والجو فيه ملائما. وتكون الخيول فيه مصطفة ومربوطة من حوافرها الخلفية. ويحرص العرب على ترك خيولهم ضامرة ويخلطون بين ذكورها وإناثها في الاصطبلات. وقد رأيت بعض إناث الخيول أجمل من الذكور. وإن الرجل من علية القوم، لا يجد حرجا في امتطاء إحدى إناث الخيول ووراءها مهرها. كما هو الشأن عندنا، حيث نفضل الخيول المنحدرة من زوج جيد. ولذلك، فإن بعض العرب يهتمون كثيرا بإناث الخيول ويبيعون الواحدة بمائتين أو ثلاثمائة دوقة، وخاصة إذا كانت جميلة المظهر وتركض بسرعة كما قيل لي.

وأعود لأذكر بأنني اشتريت طبلا صغيرا يربط في مؤخرة السرج على العادة المعمول بها في هذا البلد. وقد قيل لي بأنه يستعمل في الحروب أو في المناوشات، حيث يتم قرعه ليجتمع المحاربون. وتوجد قطعة جلد كالسير مثبة فيه تستعمل للقرع. وإن جميع علية القوم يستعملون مثل هذه الطبول. واشتريت كذلك مهمازين وحذاءا قرمزيا طويلا يصل الى الركبتين كما هي العادة في هذا البلد.

واعترافا مني بالجميل، قدمت لحجة براك قدحا من الزنجبيل الأخضر. رفض قبوله الا بعد أن ألححت عليه. وقد لمست فيه الصدق والإخلاص ربما أكثر مما لمسته في كثير من المسيحيين. ولم أسمع من كلامه وأرى من أفعاله سوى ما يعكس الخصال التي ذكرتها.

وبعد أن أنهيت كل الترتيبات كما ذكرت، أراد الرب أن ييسر على استكمال الرحلة بأن جعلني أتعرف على يهودي من كافا (Caffa) يتقن التحدث بالتاتارية وبالايطالية، ساعدني في كتابة كل الكلمات التي قد أحتاج اليها شخصيا وكذلك التي تتعلق بحصاني. فكتبها بالتركية وكتب ما يقابلها بالايطالية.

ومنذ اليوم الأول من وصولي الى بعلبك ضمن القافلة، شرعت في مراجعة ما سجلته من كلمات حول إسم الشعير والتبن المفروم، فأحاط بي عشرة أو اثنا عشر تركيا وأخذوا يضحكون. ومنذ ذلك الحين تحمسوا لتعليمي التحدث. فكانوا يعيدون الكلمة الواحدة أكثر من مرة وبأكثر من طريقة. فتعلمت الى حد ما حتى أنه حين كنت أوجد بعيدا عنهم من حين لآخر، كنت أعرف طلب أي شيئ ضروري أحتاج اليه أو يحتاج اليه حصاني.

وفي اليوم السابق على مغادرتنا لدمشق، راودتني رغبة في الاعتراف وكأنني أستعد لملاقاة الموت. وهكذا قررت الذهاب الى موناستير صيدنايا (monastère Notre Dame de Seidnaya)، الواقع في شمال المدينة على بعد ستة عشرا ميلا، للتبرك بزيارته. فسلكت الطريق المؤدي اليه. وهو طريق تحف به البساتين حتى مشارف أحد المرتفعات الذي تقع خلفه هضبة تنتشر بها هي الأخرى بساتين الكروم التي تجود بعنب من النوع الجيد تعتصر منها خمور جيدة كما قيل لي. وتوجد بهذه الهضبة عين ينساب منها ماء عذب. كما يوجد بها تل صخري يقع فوقه حصن صغير والموناستير المذكور الذي يرتاده مسيحيون أورثوذوكس. وتوجد بهذا الموناستبر لوحة مرسومة عليها القديسة نوتر دام. (سيدتنا) يقال بأن اللوحة وصلت الى هذا المكان بأعجوبة. ولا أدري شخصيا كيف حدث ذلك. ويقال أيضا بأن تلك اللوحة تتصبب عرقا على الدوام. وهذا العرق عبارة عن زيت. وحين ولجت الموناستير دلني القائمون به على قاعة الصلاة، فرأيت ما يشبه نافذة في طرف القاعة خلف الطاولة الكبرى. فكانت تلك النافذة هي اللوحة التي أنا بصدد الحديث عنها. يبلغ طولها حوالي قدم ونصف وعرضها حوالي قدم. ولا أدري ما إذا كانت مصنوعة من الخشب أو من الحجر، لأنها كانت ملفوفة في ثوب ومحمية بسياج وضع فوقها. ورأيت تحتها مزهرية صغيرة تحتوي على كمية من الزيت. فأتت عندي امرأة من طاقم الموناستير، حركت الثوب المحيط باللوحة بملعقة من فضة وأرادت أن ترسم رمز الصليب على جبهتي وصدري. وقد بدا لي بأنهم يمارسون هذا

الأمر هنا من أجل كسب المال. ولا أظن أن القديسة نوتر دام (سيدتنا) لا تتوفرعلى سلطة خارقة (كرامة) غير هذه اللوحة.

وعدت، بعد زيارة المونـاستير، الى دمشق لاستكمال استعداداتي قبل المغادرة مع الأتراك. فوجدت أن الرجل ذي البشرة السوداء الذي التقيت به عند مدخل دمشق بعد عودتي من جبل طابور، والذي أرسله السلطان لإلقاء القبض على بعض المطلوبين، قد شرع في مباشرة مهمته. فألقى القبض فعلا على بعض التجار ومن بينهم الجنوي الذي كنت مقيما في بيته. وحرصا مني على سلامة ممتلكاته، كنت أضطر الى جعل العربي المكلف بحراستها ثملا على الدوام. ولكن ألقي علي القبض أنا بدوري. ومثلت بين يدي أحد القضاة الذي أحالني على قاض آخر. فقام هذا الأخير بدوره بإحالتي، مع مجموعة التجار، على قاض آخر رغم أنهم كانوا يعلمون جيدا أنني لست قطلونيا أو جنويا. ولكن العملية كانت من تدبير ترجمان سبق أن حاول ابتزازي حين كنت رفقة السيد سانس اللالنكي. فمكثت مسجونا رفقة التجار رغم تدخل قنصل البندقية جيوفاني دولفان (Giovanni Dolfin) وأمير دمشق. ففوت علي هذا الحادث الاقلاع مع القافلة التي غادرت دمشق.

فمثلت أمام حاكم المدينة رفقة تاجر من جنوة يدعى جنتيل أمبريال (Gentile Imperiale) يعمل لفائدة السلطان، حيث يجلب له العبيد من مدينة كافا (Caffa). فسألني الحاكم من أين أتيت وعن سبب مجيئي الى هنا. فأجبته بأنني من مملكة فرنسا وأتيت الى بيت المقدس لأداء مناسك الحج. فقال لي بأنه من غير الصواب اعتقالك وأخلى سبيلي.

وفي اليوم الموالي الذي صادف الحادي عشر من شهر أكتوبر (1432)، غادرت دمشق صحبة أحد المكارين تكفل بحمل ملابسي التركية مع متاعه حتى مدينة بعلبك التي تبعد عن دمشق بمسيرة يومين. لأنه لا يسمح لأي مسيحي هنا بارتداء القلنسوة البيضاء. وقد خرجت من دمشق عبر الباب المحاذي للحصن في اتجاه الشمال. فعبرت الجبل المشرف على المدينة والذي يوجد عليه بيت قابيل كما يقال. ثم سلكت طريقا يقع بين جبلين في اتجاه الأعلى بالقرب من نهر بردى. وتتخلل هذا الطريق الممتد بين المرتفعات على مسيرة يوم تقريبا، مشاهد طبيعية جميلة تروق الناظر. بينما تمتد بقية الطريق حتى بعلبك في منطقة فسيحة وجميلة.

وحين وصلت الى بعلبك، وجدت قافلة حجة براك التي كان من المفروض أن أقلع معها. فطلب مني أن أبقى بمعية المجموعة المرافقة له. وكانت القافلة عند وصولي قد حطت الرحال للاستراحة ودق أفرادها الخيام

بمحاذاة أحد الأودية لأن الطقس كان حارا خلال النهار بينما كان باردا ونديا خلال الليل.

وفي صبيحة اليوم الموالي، حوالي الساعة الحادية عشر، قدمت لحصاني الماء ثم بعد ذلك كمية من التبن كما يقومون بذلك في هذه الجهة من البحر. وحاولت تكرار نفس الشيئ في المساء، فقدمت لحصاني الماء حوالي الساعة السادسة. وحين أردت إطعامه منعني البعض من ذلك وقالوا بأنه يجب أن أنتظر حتى حوالي الساعة الثامنة. وكما تحدثت عن ذلك سابقا، فإنهم لا يطعمون الخيول قبل الثامنة مساءا. ولا يطعمون البعض منها دون البعض سوى إذا كانت ترعى في الحقول.

وقد كان رفقة قائد القافلة مملوك شركسي من مماليك السلطان، كان يرغب في الذهاب الى بلاد كرمان للبحث عن أحد إخوته. وحين رآني وحيدا وأدرك أنني لا أستطيع التحدث بلغة البلد، إرتآى أن يرافقني ويبقى بمعيتي. وبما أن لا أحد منا كان يملك خيمة، فقد كنا نبيت تحت الأشجار. ومنذ ذلك الحين تعودت على النوم مباشرة على الأرض. كما تعودت على شرب الماء دون الخمر وعلى الجلوس على الأرض ملتف الساقين رغم أنني كنت ألاقي صعوبة في القيام بذلك في بادئ الأمر. ولكن أصعب شيئ بالنسبة لي كان هو وضع قدماي في ركاب قريب من ظهر الحصان ولذلك كنت كلما ترجلت، لا أستطيع امتطاءه الا بمساعدة أحدهم. وقد كنت أحس بألم في ربلتي الساقين (البطتين). ثم تعودت بعد ذلك ولاحظت أن هذه الطريقة في امتطاء الحصان مريحة أكثر من الطريقة المتبعة عندنا.

وفي مساء اليوم الأول الذي جلست فيه مع المملوك لتناول الطعام، لم نأكل سوى قليلا من الخبز والجبن والحليب. وقبل أن نشرع في الأكل، نشر فرشة (une nappe) [غطاء المائدة] على الأرض كما يفعل الميسورون في هذه الجهة من البحر. كانت تلك الفرشة دائرية الشكل، محيطها حوالي أربعة أقدام وتنتهي أطرافها بأسمطة تجذب لغلقها عند الانتهاء من استعمالها كما يغلق كيس من ثوب. لم أر منذ ذلك اليوم تركيا يتناول قليلا أو كثيرا من الطعام إلا وشكر الله بصوت مرتفع بعد الانتهاء من الأكل.

وبعد أن غادرنا بعلبك في اتجاه حمص، حططنا الرحال لأول مرة في حقل قرب نهر صغير لأن المملوكي الذي تحدثت عنه لم يكن مشتركا مع تركمانيي أنطاليا في امتلاك خيمة. وقد رأيت بالمناسبة كيف يقيمون "معسكراتهم" وكيف يبنون خيامهم، التي لم تكن كبيرة كما لم تكن مرتفعة. وبإمكان شخص واحد القيام ببناء إحداها. ويمكن أن تسع الواحدة منها ستة أو ثمانية أشخاص لاجتناب الحرارة. ويقومون في الصباح برفع أجزائها

السفلى للشعور بالراحة أكثر ولفسح المجال لانسياب الهواء. وفي المساء يعيدون بسط تلك الأجزاء لملامسة الأرض تجنبا للرطوبة. ويحمل الجمل ستة أو ثمانية من تلك الخيام بالإضافة الى أفرشتها. ويمكنه أن يحمل أكثر دون أفرشة. وهي خيام جيدة الصنع.

وقد تناولنا وجبة المساء مبكرا. وبما أنني كنت أبدو في نظر بعض التركمانيين مرتديا لباسا جميلا وأملك حصانا جيدا وسيفا جميلا وكذلك جعبة جميلة، فقد بدا لهم أنه من الصواب قتلي لأنني مسيحي ولا يحق أن أسافر رفقتهم. وهذا ما باح لي به المملوك فيما بعد وأعاد ذكره حين افترقنا. ولكنه لم يشاطرهم الرأي ورد عليهم، وفق ما صرح لي به، بأن هذا العمل سيئ وخطيئة منافية للشرع لأن هذا المسيحي اشترك معنا في تناول الخبز والملح ولأن الله جعل المسيحيين سواسية مع المسلمين. وأنا الذي لم أكن أعلم شيئا عن هذا الأمر، كنت على وشك الذهاب معهم الى مدينة حلب. وقد كانوا يستعجلون السفر لقطع رقبتي من دون شك. ولذلك كان المملوك يحاول الحيلولة ما أمكن بينهم وبين ما يريدون.

وأذكر أن مدينة بعلبك التي حططنا بها الرحال، مدينة مهمة مزدهرة وجد محصنة. يقع في وسطها حصن مشيد بحجارة كبيرة. وقد قيل لي بأنه يوجد بها مسجد به جمجمة رجل يمكن للزائر إدخال رأسه من أي ثقب من ثقب عينيه. ولا أدري ما إذا كان هذا الأمر صحيحا، لأن المسيحيين لا يسمح لهم بدخول هذا المسجد.

وقد غادرنا بعلبك ساعتين تقريبا قبل حلول النهار. ولا بأس أن أقدم هنا إفادات حول الطريقة التي يتبعونها قبيل الانطلاق. اذ يقوم قائد القافلة بالقرع على طبل ثلاث مرات دون نبس أي كلمة. فيستعد كل شخص وينتظم الجميع في الصف على الطريق. وإن عشرة أفراد من بيننا يحدثون ضجة أكثر من تلك التي يحدثها ألف من هؤلاء. اللهم الا إذا أراد أحدهم انشاد أحد الأناشيد ونحن نسير ليلا. وعند حلول النهار تكون كل مجموعة مؤلفة من اثنين أو ثلاثة أفراد مبتعدة قليلا عن المجموعة الأخرى، فيرددون الواحد تلو الآخر، وبصوت مرتفع، كلمات كما يفعلون حين يرفعون الآذان من أعلى مساجدهم. أما عند طلوع الفجر، فإن أكثر المتشبثين بشعائر الدين، يتوضؤون ويؤدون الصلاة كما اعتادوا ذلك. أي أنهم إذا كانوا بمحاذاة جدول ماء، فإنهم يترجلون عن خيولهم فيغسلون أيديهم وأوجههم وأطرافهم وأرجلهم بعد ازالة أحذيتهم. وإذا لم تتوفر لديهم هذه الامكانية، يقومون بمسح أيديهم وأطرافهم. ثم يقومون ويديرون وجوهم صوب الجنوب [أي القبلة] ثم يرفعون اصبعين من أيديهم الاثنين ثم يضعون ركبهم على الأرض

ويقبلونها. ويقومون بذلك ثلاث مرات، ثم ينهضون تماما، ثم يؤدون الصلاة. وهم مطالبين بأدائها في أماكن خاصة بها. وان بعض الأعيان الذين يتوفرون على من يخدمهم، يقوم بعض هؤلاء الخدام بوضع قراب من جلد مملوءة بالماء رهن اشارة سادتهم للتطهر [الاستنجاء] قبل الصلاة. وعادة ما تكون هذه القراب معلقة تحت بطون الخيول أو الجمال لاستعمال مائها للتطهر بعد قضاء حاجاتهم. وهم ينحنون الى الأرض حتى تكاد مؤخراتهم تلامس الأرض كما يفعل النساء. وقليلا ما يتبولون واقفين. وإذا ما حدث وتبولوا وهم واقفين، فإنهم يمسحون رؤوس أقلامهم بقطعة حجارة أو يمسحونها مع الحائط أو بأي شيئ آخر.

وقد انطلقت القافلة في اتجاه مدينة حمص. وكانت مؤلفة من حوالي أربعمائة أو خمسمائة فرد وعدد من البغال وثلث هذا العدد أو أكثر قليلا من الجمال المحملة بالتوابل. وكان الطريق الى حمص، البعيدة بمسيرة يومين، يمتد وسط منطقة منبسطة جميلة.

وحمص التي وصلنا اليها، هي مدينة جميلة محاطة بأسوار وخندق. يوجد في أحد أطرافها قصر (شاتو) جميل مشيد على تل يأخذ شكل أحدور من سور االقصر حتى قدم التل الذي ليس على علو مرتفع. وتقع مدينة حمص على نهر صغير يجري على أرض منبسطة تمثل قسما من سهل نوح [سهل البقاع] الممتد حتى بلاد فارس. ومن هنا تمكن تيمورلنك من دخول البلاد (سوريا) وتدمير مدنها.

غادرت بعد ذلك حمص واتجهت الى مدينة حماة عبر منطقة جميلة ولكن غير مأهولة بكثافة. ولا يستوطنها سوى العرب الذين أعادوا تشييد القرى التي دمرها تيمورلنك. وعبرت قنطرة فوق نهر العاصي تقود نحو حماة كانت تقع فوقها منشأة تم تدميرها.

وحين وصلت الى حماة، التقيت بتاجر من البندقية يدعى لرينزو سُرانزو (Lorenzo Soranzo) الذي أحسن وفادتي وآواني في بيته ثم قادني نحو سوق المدينة (البزار) الذي اشتريت منه بعض الملابس التي اقترح علي المملوك شراءها لأرتديها فأبدو مثل الآخرين. وهكذا اشتريت طاقية توضع تحت الكوفية وقبعات أخرى من الحرير يضعها التركمانيون فوق رؤوسهم. كما اشتريت معالق تركية وولاعة وسكاكين ومشطا في غمده وكوبا من جلد يستعمل لشرب الماء. وجميع هذه الأشياء يمكن ربطها الى السيف، فلا تعيق المرء عند حملها. كما اشتريت برقعا طويلا [ما يشبه المعطف] مصنوعا من لباد (أو لبد) أبيض لا تتسرب منه مياه الأمطار. واشتريت جعبة سهام أخرى للاحتفاظ بما يتوفر في الجعبة االتي سبق لي أن

اشتريتها والتي وضعتها على ظهر جمل حتى مدينة بورصة. ثم اشتريت ما يشبه القفاز توضع فيه الأصابع لحمايتها عند استعمال القوس.

وبعد ذلك رافقني لرنزو سرانزو الى وسط المدينة، حيث قمنا بجولة وأطلعني على قصر المدينة. وقد كان حقا معلمة جميلة زاد من جمالية المدينة الواقعة على صخرة كبيرة ويحيط بها خندق محفور بعناية في الصخرة فضلا عن الأسوار السميكة المحيطة بها. وقد شيدت على بعض تلك الأسوار أبراج يوجد بالقرب من أحدها حصن جميل منيع مشيد على مرتفع منحدراته مصقولة من الأعلى حتى الأسفل وتحيط به قلعة يجري أسفل أحد جدرانها نهر يقال بأنه ينبع من الجنة. ولا أدري ما إذا كان ذلك صحيحا أم لا. ويجري هذا النهر من القبلة في اتجاه مدينة أنطاكية. وتقع على النهر ناعورة تديرها المياه. وتعد أعلى وأكبر ناعورة رأيتها في حياتي. وهي ترفع كمية كبيرة من مياه النهر كافية لتزويد المدينة بأكملها. وتصب تلك المياه في حوض محفور في صخر الحصن، ثم تنساب منه نحو المدينة عبر قنوات تمتد على طول الأزقة عرض الواحد منها حوالي قدمين وعلوه حوالي اثنا عشر قدما. يستعمل الماء الذي يجري بها كل من احتاج اليه.

وان بعض الأتراك الذين كانوا ضمن القافلة علموا بأن افرنجيا آواني، فأرادوا الضغط على لآتيهم بكمية من الخمر يحتسونها في السر، لأنهم لا يستطيعون القيام بذلك علنا أمام زملائهم ولأن الشريعة تحرم عليهم ذلك، فضلا عن كونهم قادمين من مكة. وقد طلبت من لرينزو (Lorenzo) مدني بكمية من الخمر، ولكنه امتنع بدعوى أنه لا يجوز لافرنجي أن يقدم الخمر لمسلم. فإن اكتشف أمره تعرض للخطر. فأحطتهم علما برده. ولكن البعض منهم الذين لم يكونوا يعولون على لتلبية طلبهم، علموا بأن أحد الإغريقيين يبيع الخمر في بيته. فقصدناه وكنا ستة. فاستقبلنا في بيته وأدخلنا الى أحد الأروقة الصغيرة حيث جلسنا على الأرض على شكل دائرة. فوضع جرنا من فخار (un vasque) بيننا يحتوي على حوالي ثمان غالونات (un gallon)[1] من النبيذ. ثم أتانا بستة أقداح وصحنين مقعرين وضعهما في جرن النبيذ. فشرع الأول في الاحتساء على نخب الرفقاء كما جرت العادة عندهم. ثم تلاه الآخرون. وهكذا أخذنا في احتساء النبيذ الواحد تلو الآخر دون توقف ودون أن نأكل شيئا. فشعرت بأنني لم أعد قادرا على الاستمرار وطلبت منهم أن أتوقف عن الشرب، فلم يرقهم الأمر. فقال من كان جالسا بجانبي، وكان يدعوني "أخي"، سأشرب حصتك حتى لا يغضب الآخرون.

---

[1] ـ الغالون وحدة أنغلوسكسونية لقياس السوائل تعادل أكثر قليلا من أربع ليترات ونصف.

فكان يشرب فعلا عندما يأتي دوره وكذلك عندما يأتي دوري. وبقينا هناك حتى بداية حلول الظلام. ثم غادرنا البيت وعدنا الى الخان الذي كنا نقيم به. فوجدنا حجة براك جالسا على كرسي من حجارة وأمامه فانوس مضيء. وقد فهم الأمر وخامره شك في المكان الذي نحن عائدين منه. فتسلل أربعة من الأتراك وبقيت بمعية آخر بالقرب منه. وقد ارتأيت أن أقص ما جرى حتى إذا حدث غد أو مستقبلا أن التقى أحدهم ببعض الأتراك، فليتجنب أن يحتسي معهم الخمر لكيلا يبدأ ذلك في النهار وينتهي عند حلول الظلام. أما [صديقي] المملوك، فلم يعلم شيئا عما جرى، لأنه ذهب ذلك اليوم الى السوق واشترى إوزة قام بطهيها على طريقة عصير الحصرم. كما اشترى بعض أوراق البر لمرافقة الإوزة عند الطهي. فاشتركت معه، بعد عودتي، في تناول تلك الإوزة. وتبقى منها ما تناولناه خلال الثلاثة أيام الموالية.

وفي صبيحة اليوم الموالي، انطلقت معه في اتجاه أنطاكية رفقة أربعة تجار أتراك. فتركنا طريق حلب المتجه نحو الشمال لأن القافلة لم يكن مقررا أن تسلكه ولأنها لم تكن ستقلع الا صبيحة اليوم الموالي لانطلاقنا. وقد اقترح علي المملوك أن نقوم بذلك لنجد مكانا ملائما نحط به الرحال للاستراحة. وبعد نصف لوقة (une lieue) من حماة، عبرنا النهر فوق قنطرة من حجارة. وكان منسوب المياه مرتفعا حتى مستوى القنطرة رغم عدم سقوط أمطار. فكدت أن أغرق، بعد عبور القنطرة، لأنني أردت تقريب حصاني من الضفة ليشرب قليلا من الماء، فانزلقت. ولكن المملوك ساعدني في النهوض الى الضفة. ثم واصلنا السير في هذا السهل الفسيح الممتد. فصادفنا في الطريق ستة أو ثمانية تركمانيين بمعيتهم امرأة. كل واحد منهم يحمل جعبة سهام بما في ذلك المرأة. فقيل لي بأن نساءهم شجاعات ويقاتلن كما يقاتل الرجال. فاندهشت لهذا الأمر. كما قيل لي بأنه يوجد ثلاثون ألف امرة تحمل كل واحدة منهن جعبة سهام يعملن تحت إمرة قائد يدعى ذو القدر (Surgadiroly) أو (Zulkadr) ويقيم في جبال أرمينيا في ثغر فارس. وقد واصلنا المسير في هذه المنطقة الجميلة لمدة يوم كامل ثم عبرنا منطقة تتخللها مرتفعات. وهي منطقة جميلة، رغم أنها جافة وتوجد بها بقايا قرى مدمرة. وقد علمني المملوك، ونحن على صهوتي حصانينا، كيف أستعمل القوس وأقذف السهام والحصان في وضعية ركض.

ثم وصلنا الى مدينة محصنة [معرة النعمان] الواقعة في منطقة خصبة تجود بكل أنواع الثمار من حبوب وخمور وخشب وأشجار مثمرة. ولكن لا توجد بها مجاري مائية أو نافورات باستثناء بعض الحاويات. وقد كان هذا البلد تابعا للمسيحيين فيما مضى. وسررت كثيرا حينما قيل لي بأنه كان في

حوزة الفرنجة. ودلوني على بعض الكنائس المدمرة. وقد قضينا الليلة في مخيم بعض التركمانيين. ورأيت نساءهن كاشفات عن وجوههن. وهن يقمن عادة بتغطيته بلثامات سوداء مربعة الشكل مصنوعة من ثوب. بعضها مرصع بقطع نقدية وبعضها بحجارة نفيسة تبعا لمدى غنى كل واحدة منهن. وقد كان ذلك المخيم أول مخيم تركماني أراه. ورأيت به ستة أو ثمانية من التركمان يتدربون على إصابة اهداف بواسطة القوس. وكانوا مهرة في ذلك، حيث كانوا يرمون بالسهام وهم جالسين نظرا لضيق المكان. وكانت سهامهم تنطلق بسرعة وتصيب أهدافها بدقة.

خامسا: المرحلة التركية: برتراندون دو لا بركيير يتمكن من دخول بلاطات ورؤية ملوك

دخلت، بعد مغادرة سوريا، الى بلاد تركمانيا التي تسمى عندنا بأرمينيا وعاصمتها أنطاكية. وهي مدينة كبيرة كانت فيما مضى مزدهرة. وما زالت الأسوار المحيطة بها حتى الآن جميلة وفي حالة جيدة. وهذه الأسوارمحيطة بمجال فسيح توجد به بعض الربوات. ولكن لا يوجد بهذه المدينة أكثر من ثلاثمائة منزل. ويقع في احدى جنباتها جبل يمتد من الجنوب نحو الشمال، حيث تقع بحيرة كبيرة والى الأعلى منها مرج جميل. وعلى طول الأسوار، يجري النهر الآتي من حماة. ولا يقيم بالمدينة اليوم سوى التركمانيون، الذين يشكلون الأغلبية، وعدد قليل من العرب. يملك سكان المدينة عددا كبيرا من الدواب، من بينها الجمال والأبقار والخرفان والماعز الجميلة جدا، التي لم يسبق لي أن رأيت مثلها. فهي تتوفر على أصواف طويلة لينة وملتوية كأنها مظفورة بالأيدي. أذنابها ليست متدلية كأذناب لماعز التي رأيتها في سوريا. كما أن تلك الأذناب عريضة نسبيا وسميكة وطويلة. وقد لاحظت أن الأصناف البيضاء منها أكثر من أي صنف آخر.

ويملك سكان هذه الجهة حميرا وحشية مرودة تشبه، من حيث، رؤوسها وآذانها وشعرها وحوافرها بعض أنواع الأيائل (les cerfs). ولا أدري ما إذا كانت تصيح مثلها أم لا، لأنني لم أسمع أحدها يصيح. وعموما، فهي جميلة وتسير بمعية الدواب الأخرى. ولم أر أحدا من الرجال راكبا إحداها، لأن التركمانيين ينقلون معظم بضائعهم على ظهور الثيران والجواميس. كما نستعمل نحن الخيول. وقد رأيت بعضها محملة بالبضائع وبعضها يمتطيه رجال.

وقد كان يحكم هذا البلد رجل يسمى رمضان. كان عظيما، قويا وشجاعا ولذلك لم يكن السلطان يجرؤ على اثارة غضبه. وقيل لي بأن السلطان استطاع الفتك به أخيرا بفضل مساعدة القرماني ابراهيم بك الذي كانت احدى أخواته زوجة لرمضان. وحدث يوما أن لبى هذا الأخير دعوة وجهها اليه إبراهيم بك. وبينما كان الرجلان مجتمعين على مؤدبة الغذاء، دبر ابراهيم بك لضيفه كمينا وأوقعه في الأسر وبعث به للسلطان. الذي فتك به. وعقب ذلك تم اقتسام مملكة رمضان التي سقطت معظم أقاليمها في حوزة السلطان.

وبعد مغادرة أنطاكية في اتجاه الغرب، عبرت جبلا يسمى الجبل الأسود رفقة المملوك. ورأيت ونحن نصعد هذا الجبل، ثلاثة أو أربعة حصون تبدو مدمرة. قيل لي بأنها كانت في حوزة المسيحيين فيما مضى. وقد بدا لي الجبل جميلا وسهل الارتقاء. وكان يكسوه نبات الغار (الرند) الذي تفوح منه رائحة طيبة. وقد قطعنا مسافة بين قمة الجبل وخليج عاياش (golf d'Ayas) بدت لي طويلة أكثر من تلك التي قطعناها بين أنطاكية وقمة الجبل. ويقع هذا الخليج بين جبلين على عمق حوالي خمسة عشر ميلا. ويبلغ عرضه حوالي خمسة عشر ميلا كذلك. ويوجد عند قدم الجبل المذكور، وعلى ضفة الخليج، حصن منيع تغطي المستنقعات جانبه المحاذي لليابس من الأرض، ولذلك لا يمكن الوصول اليه الا عبر شريط ضيق أو عبر البحر. ولا يقيم أحد بهذا الحصن، لأنه تعرض للدمار. ويقع قبالته المعسكر الثاني الذي يقيم به التركمانيون. ويمكن أن يسع لحوالي مائة وعشرين خيمة. وهي من أجمل الخيام التي يمكن أن يراها المرء. بعضها مصنوع من نوع من القطن الأبيض أو الأزرق وبعضها من اللبد. ويمكن أن تأوي الواحدة منها أربعة عشر أو ستة عشر فردا. وقد حططنا الرحال بهذا المعسكر. فوضع بعضهم بساطا (سفرة) مثل ذلك االذي تحدثت عنه من قبل. ووضعوا فوقه أناءا كبيرا به كمية من الحليب المجفف وحوالي إثنا عشر رغيفا من الخبز المُوَرّق الرقيق الذي يمكن ليه على شكل قرطاس، استعملناه لتناول الحليب المجفف.

وغادرنا هذا المكان وسرنا حوالي لوقة (une lieue)، ثم حططنا الرحال في سراي قافلة (caravansérail) [خان]. وهو عبارة عن مجموعة سكنية يشبه الخانات الموجودة في سوريا.

وتقع في أعالي الخليج الذي تحدثت عنه، مدينة تسمى بياس (Payas). التقيت في طريقي اليها بأحد الأرمينيين الذي يتحدث قليلا الايطالية. استطاع الكشف بأنني مسيحي. وقد حدثني كثيرا عن هذه المنطقة وعن عادات

سكانها وعن طريقة خضوعها للسلطان وعن الحيلة التي استعملها للتخلص من رمضان سيد تركمانيا، الذي كان في نظر، هذا الأرميني، رجلا قويا شجاعا مهابا ابن امرأة مسيحية عمدته على الطريقة اليونانية. فلم يكن، في نظره، مسيحيا أصيلا كما لم يكن مسلما أصيلا. وكان سلطانه ممتدا حتى حدود سوريا التي يشملها نفوذ السلطان. وحين كان التجار والمسافرون يعبرون أرضه كان عليهم دفع ضريبة مرور. ورغم ذلك، لم يكن السلطان قادرا على إثارة غضبه كما ذكرت سابقا. وكان سلطانه يمتد في الجهة الأخرى حتى حدود مجال نفوذ القرماني الذي أصبح صهره بعد أن تزوج رمضان احدى أخواته. ولكن السلطان كان يستغل علاقاته مع إبراهيم بك ويستميله لمساعدته في القضاء على رمضان. وذلك ما حدث بمناسبة المأدبة التي تحدثت عنها.

وقد رافقنا الأرميني الذي تحدثت عنه الى معسكر تركماني آخر حططنا الرحال به. وهناك تناولنا مرة أخرى الحليب المجفف والخبز المُوَرق. وتعرفت بالمناسبة على طريقة صنعه. وكنت أعتقد بأنه يطهى بواسطة أشعة الشمس. ولكنني رأيت امرأتين تقومان بإعداده بواسطة لوح خشبي صغير مستدير الشكل ولين. يضعون فوقه قليلا من الدقيق والماء كما تصنع الحلوى. ثم يخلطون ذلك الدقيق والماء للحصول على عجينة رطبة ولينة يضغطون عليها للحصول على رغيف مستدير ورقيق. ويستعملون أيضا عصا طولها حوالي قدم يقومون بتمريرها بسرعة ومهارة فوق تلك العجينة لتغدو رقيقة. ثم يضعونها فوق صفيح من حديد موضوع فوق ثلاث حجارات وتحته نار صغيرة قليلة الالتهاب ثم يقلبونها. وهكذا يتم طهي العجينة بسرعة ويحصلون على الرغيف.

وقد سرنا حول الخليج الذي تحدثت عنه لمدة يومين في منطقة تسر الناظر. تنتشر بها عدة حصون كانت فيما مضى في حوزة المسيحيين [الأرمينيين]. يوجد أحدها قبالة مدينة بياس. وتقع بمحاذاته عدة مستنقعات. ومجمل هذه المنطقة الجميلة لا يستوطنها سوى التركمانيون الذين يقيمون في خيام منتشرة وسط الحقول. وهم أقوام لا ينفقون كثيرا. يتقنون استعمال الأقواس والنبال ويخضعون لأحد زعمائهم. وبما أنهم يتنقلون من حين لآخر، فإنهم يخضعون للسلطان حين يكونون في مجال نفوذه ثم يخضعون لحاكم آخر حين يتواجدون في مجال نفوذه وهكذا دواليك. وحين يتصادف وجودهم في مجال يخوض حاكمه حربا، فانهم يدخلون في خدمته ويساعدونه. ثم إذا انتقلوا الى مجال آخر، فإهم يخدمون حاكمه ويصبحون

أعداء للذي خدموه من قبل. ومن ثم، فإن الحكام لا يعولون عليهم كثيرا. وقد جرى العرف بذلك وفق ما قيل لي.

وبينما كنت سائرا على امتداد هذا الخليج، صادفت أحد زعماء هؤلاء التركمانيين. وكان "يتسلى" بتدريب عدد من الصقور الذين يستعين بهم في قنص الحجل. وقيل لي بأن ألفي تركماني يخضعون لزعامته.

وقد شاهدت أثناء مسيري كثيرا من الأودية تنبع من الجبل وتصب في ذلك الخليج الذي عبرته كله تقريبا عبر شريط صخري. رأيت بعد عبوره حصنا غير مأهول مشرف على البحر. ومعظم المنطقة المحاذية له تصلح للقنص، وخاصة لقنص الخنازير البرية التي أعتقد أنها توجد به بكثرة.

ومن هذا المكان، دخلت الى منطقة سهلية جميلة يستوطنها كثير من التركمانيين. فمررت بالقرب من حصن منتصب فوق جبل يجري عند قدمه نهر كبير وعريض يسمى نهر جيحان (Ceyhan) [المصيصة]. وسرت مسافة بمحاذاة هذا النهر، في منطقة جميلة أخاذة، حتى وصلت الى مدينة المصيصة التي دخلت اليها بعد عبور النهر المذكور فوق قنطرة من خشب شيدت مكان القنطرة القديمة. وقد دامت الرحلة بين أنطاكية وهذه المدينة أربعة أيام.

وبدا لي بأن مدينة المصيصة كانت مهمة فيما مضى. قسم منها مخرب بينما القسم الآخر أحيط بسور مستقيم شاهق جيد البنيان. وقد كانت المدينة سابقا في حوزة المسيحيين [الأرمينيين] كما تدل على ذلك الكنائس التي تظهر نصف مدمرة. وقد رأيت خورس (le choeur) الكنيسة الرئيسية من الخارج، ولاحظت بأنه ما زال قائما ومحافضا على جماليته. ولكن داخله تم تحويله الى مسجد.

ومعظم سكان المصيصة من التركمانيين ويستحوذون على قرابة ثلاثمائة منزل من منازلها. وقد غادرت هذه المدينة في اتجاه مدينة أضنَةً (Adana) التي تبعد عن المصيصة بمسيرة يوم. قطعت هذه المسافة وسط سهل فسيح جميل مأهول بالسكان التركمانيين.

ومكثت بهذه المدينة رفقة المملوك وستة تجار أتراك وأشخاص آخرين في انتظار قدوم القافلة. وحططنا الرحال بالقرب من النهر وأسوار المدينة. وهنا لاحظت مرة أخرى كيف يعبدون الله ويؤدون الشعائر دون أن يحرجهم وجودي. وكانوا يعبرون عن ارتياحهم وإعجابهم حين يسمعونني أردد تراتيل في أبينا يسوع المسيح. كما كنت أستمع إليهم وهم يرددون بعض الأذكار من حين لآخر أو بعض الأناشيد عند المغيب. فكانوا يشكلون دائرة ويحركون أجسادهم ورؤوسهم وينشدون بصوت مرتفع.

وقد دعوني يوما ونحن بهذه المدينة لمرافقتهم الى الحمام قصد الاستحمام. وهناك لم أجرؤ على خلع ملابسي للاستحمام مثلهم خشية أن يروا المال الذي كنت أحمله معي. فتركوا ملابسهم بالقرب مني لحراستها. وقد راقتني مياه تلك الحمة التي كانت نظيفة وصافية. ويقع مكان الاستحمام في بناية كبيرة مثل المنزل ولكنها دائرية الشكل سقفها مفتوح يشع منه الضوء في كل أرجاء مكان الاستحمام. ولا توجد بمحيط ذلك المكان أسرة، وإنما كراسي مصنوعة من الحجارة وموضوعة بشكل دائري يجلس عليها المستحمون فيغتسلون ويغسلون رؤوسهم ولحيهم. ومنذ هذه اللحظة أصبحت أتقرب منهم أكثر مما كنت عليه من قبل.

وهم أناس كثيرو التصدق فيما بينهم. قويو الايمان. لاحظت أكثر من مرة، ونحن نتناول الطعام، أنهم يدعون الفقير إذا مر بالقرب منا لمشاركتهم ذلك الطعام وهذا ما لا نفعله نحن المسيحيون. وهنا بالذات رأيت للمرة الأولى الشابان اللذان قاما بفقإ أعينهما بعد رؤية قبر الرسول محمد.

والأتراك، فيما لاحظت، أقوام بشوشين مرحين يغنون ويرقصون كثيرا. وإن من أراد العيش معهم، يجب ألا يكون مشغول البال، كثير التفكير أو حزينا، بل يجب أن يكون منفتحا مقبلا. وهم أقوام حياتهم صعبة يعيشون حياة الكفاف. ينامون على الأرض مثل الدواب كما لاحظت ذلك طيلة سفري.

أما الخبز الذي يتم تناوله في بعض ثغور هذه الجهات، فهو خبز غريب على غير المتعود على تناوله، لأنه رطب لين يبدو كأنه غير طازج على الوجه المطلوب مقارنة بذلك الذي نعرفه. كما أنهم يتناولون اللحم المجفف تحت أشعة الشمس. وإذا ما حدث أن أشرفت احدى دوابهم، كالجمال أو الخيول، على الموت ولم يجدوا سبيلا لإسعافها، فإنهم يذبحونها ويسلخونها ويأكلون لحمها بعد طهيه قليلا. وقد لاحظت في المدن، بأنهم يعتنون بنظافة ما يتناولونه من أكل. ولكنهم يكثرون من الأملاح. وهم لا يغسلون أيديهم الا بعد قضاء حاجاتهم والاستنجاء وعند الوضوء لأداء الصلاة أو حين يغسلون لحيهم بماء أحد الجداول أو النافورات، لأنهم يحرصون أن تكون لحيهم دوما نظيفة.

وإن مدينة أضنة التي حططنا الرحال بها هي مدينة تجارية مزدهرة مغلقة تحيط بها أسوار. تقع في منطقة جميلة بالقرب من البحر. يجري في احدى جنباتها نهر عريض يدعى نهر أضنة الذي ينبع من جبال أرمينيا المرتفعة وتقع فوقه قنطرة طويلة لم أر أطول منها من قبل.

يحكم المدينة أمير تركماني هو أخ الأمير رمضان الذي فتك به السلطان كما ذكرت سابقا وما زال محتفضا بأحد أبنائه أسيرا لديه كما قيل لي.

ومن أضنة اتجهت الى مدينة طرسوس (Tarse) عبر منطقة منبسطة جميلة معظم سكانها من التركمانيين الذين يقيمون في قرى مؤلفة من مجموعة خيام [لأنهم يتبعون نظام الترحال]. ومدينة طرسوس هذه، مدينة مغلقة يحيط بها سوران ومن بعض الجهات ثلاثة أسوار. تنتهي تلك الأسوار بخنادق. ويقع في أحد أطراف المدينة قصر محصن (chateau). كما يجري بمحاذاتها نهر وبداخلها جدول ماء.

وقد نصحني المملوك بأن أشتري ما يلزمنا ويلزم خيولنا من مؤونة قبل مغادرة المدينة. فاشتريت كمية من الخبز والجبن والتبن والشعير تكفي لأربعة أيام. وأعتقد أن مدينة طرسوس التي أتحدث عنها هي المدينة التي حاصرها بودوان (Baudoin) أخو كودفروا دو بويون (Godefroy de Bouillon)[1]. ويحكمها الآن أمير معين من قبل السلطان. كما يقطنها عدد من العرب. وهي مدينة مزدهرة. ولكن يبدو أنها كانت أكثر ازدهارا فيما مضى نظرا لوجود كثير من المنشآت بها ونظرا كذلك لكونها تقع في منطقة تجود بكميات وفيرة من الحبوب والخمور والخشب. وهي تقع كذلك على بعد ستين ميلا من حصن كوريكوس (Korykos) الواقع على ساحل البحر والخاضع لسلطة ملك قبرص.

وقد التقيت في هذه المدينة بتاجر قبرصي يدعى أنطوان (Antoine) حدثني بتفصيل عن وضعية هذا البلد لكونه استقر به مدة طويلة حتى أضحى يتحدث جيدا اللغة المتداولة به. وهي اللغة التركية المنتشرة في هذه المنطقة التركمانية منذ عاصمتها أنطاكية. وقد قدم لي أنطوان النبيذ، فاحتسيت كمية كبيرة لأنني لم أكن قد احتسيته منذ فترة. وهنا مكثت في انتظار قافلة حجة براك التي كان على جميع أعضائها الالتئام هنا استعدادا لعبور جبال أرمينيا المرتفعة. وذلك ما حدث بالفعل عشية اليوم السابق على ذكرى الاحتفاء بجميع الأساقفة [يتم تخليد هذه الذكرى يوم 30 أكتوبر].

---

[1] - حدث ذلك في بحر شهر شتنبر من سنة 1097 حين حاصرت المدينة جيوش الصليبيين بقيادة كل من بودوان (Baudouin) وطنكريد (Tancrède). فانهزمت الحامية التي كانت تدافع عنها. واضطر سكانها للفرار. واختلف القائدان فيمن ستؤول اليه المدينة. أنظر قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى، نصوص ووثائق، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، القاهرة، 2001، ص. 213 وما يليها.

وغادرت مدينة طرسوس وقطعت ثلاث لوقات (lieues) في منطقة منبسطة جميلة يستوطنها كثير من التركمانيين. ثم دخلت الى منطقة جبال أرمينيا الشاهقة التي لم أر من قبل جبالا أكثر ارتفاعا منها. وتمتد على ثلاث جهات من المنطقة التي عبرتها بينما يقع البحر على جهتها الرابعة نحو الجنوب. وقد سرت يوما آخر بين هذه الجبال التي تقع في مجال خاضع للسلطان.

ومن باب الإفادة، لا بأس أن أتحدث عن طريقة عبور هذه المنطقة الجبلية، حيث يبدأها العابر بدخول فضاء غابوي يسير فيه قرابة يوم عبر مسلك غير صعب. يصبح فيه المسير سهلا أكثر مع التقدم في السير. وقد حططنا الرحال لقضاء الليلة عند مغيب شمس ذلك اليوم في مكان يبدو أنه كان عبارة عن قلعة. ومنه انطلقنا صبيحة اليوم الموالي، فقطعنا مسافة ثم حططنا الرحال في سراي قافلة يقع بين الجبال في مكان لا يقيم به سكان. وقد وصلنا اليه دون أن تعترض طريقنا عوائق أو جبال وعرة العبور. ثم انطلقنا بعد ذلك وسرنا طيلة يوم بمحاذاة نهر صغير يجري بين الجبال الشاهقة. ورأيت خلال المسير أعدادا كثيرة من أسراب طير يشبه الحجل. وعند المغيب حططنا الرحال في مكان منبسط، طوله حوالي لوقة وعرضه ربع لوقة، يقع بين أربع مقعرات: الأول مررنا به قبل وصولنا الى ذلك المكان والثاني يقع في الشمال في اتجاه فارس والثالث في اتجاه الشرق. لا أدري ما إذا كان يفضي هو الآخر الى فارس أم لا؟ والرابع في اتجاه الغرب. وهو الإ تجاه الذي سلكناه نحو بلاد كرمان.

وقد تساقطت كميات كبيرة من الثلوج خلال تلك الليلة التي قضيناها في المكان المذكور. فوضعت فوق ظهر حصاني معطف اللبد الذي كنت قد اشتريته من قبل. وشعرت تلك الليلة ببرد قارس وقعت من جرائه مريضا. وكان من الممكن أن تكون وطأة المرض شديدة لولا المملوك الذي أسعفني وساعدني في مغادرة ذلك المكان. الذي غادرناه صبيحة اليوم الموالي، حيث عبرنا منطقة جبلية، يقع فوق قمة أحد جبالها حصن كُولاك (Gülek) الواقع على علو شاهق، بحيث يمكن رؤيته من مسافة بعيدة جدا. فكان أحيانا يبدو قبالتنا وأحيانا خلفنا نظرا لطبيعة المسلك الملتف حول الجبال. ولذلك، فإن من أراد أن يأتي الى بلاد قرمان، يجب عليه أن يستعد ليسلك طريقا يقع عند قدم الجبال. وهذا الطريق يكون أحيانا ضيقا جدا حتى يظن المرء بأنه قص بالمقص من بين الصخور. وتتم مراقبة هذا الطريق من أعلى الحصن الذي

كان آخر ما فقده الأرمينيون[1]. وأضحى ضمن ممتلكات حاكم قرمان بعد مقتل الأمير رمضان.

وقد سرنا طيلة أربعة أيام بين هذه المرتفعات دون أن نرى أي مرفق أو سكن. ولذلك فإن المسير في هذا البلد خطير نظرا لوجود التركمانيين الذين يقيمون في المرتفعات التي تتساقط بها كميات من الثلوج. وإن الطريق الذي يخترقها هو المسلك الوحيد الذي يمكن أن تسلكه الخيول. وبعد عبور هذه المرتفعات، حللنا بمنطقة جميلة تتخلها بعض الفضاءات المنبسطة.

وقد كنت أسير أنا والمملوك في مقدمة القافلة التي تركناها وراءنا. ولذلك دخلنا الى بلاد كرمان بمفردينا. فأدينا واجب المرور لعون إغريقي كان مكلفا باستخلاصه. وقد تمكن من الكشف عن هويتي المسيحية من خلال ملامحي، ولذلك أراد أن أعود من حيث أتيت. ولكن المملوك تدخل واقترح عليه دفع دوقتين. أديتهما له، فسمح لي بالمرور. وقد قيل لي بعد مغادرة المعبر لو لم أفعل ذلك ورجعت أدراجي، لتم قطع رأسي على بعد نصف لوقة من هذا المكان لأن القافلة كانت ما زالت بعيدة عنه.

ومن هذا االمعبر وصلنا الى مدينة إريكْلي (Ereğli) عبر طريق ممتد وسط منطقة منبسطة فسيحة تبدو كالبحر. بينما تبدو الجبال القليلة المنتشرة بها والبعيدة كأنها جزر وسط البحر.

كانت هذه المدينة محاطة في الماضي بأسوار، ولكنها تعرضت للدمار. وتحيط بها مجموعة قرى معظم مستوطنيها من التركمانيين. وقد وصلت اليها بعد مسيرة دامت أربعة أيام منذ أن انطلقت من طرسوس دون أن أرى خلال تلك المدة مرفقا تباع فيه مواد غذائية.

وغادرت مدينة إريكْلي رفقة المملوك. وصادفنا في طريقنا رجلان نبيلان تبدو عليهما علامات النعمة. فتجاذبا أطراف الحديث مع المملوك ودعواه لمرافقتهما لحضور حفلة كانا مدعوان اليها في قرية بالقرب من المكان الذي التقينا به. فرافقهما وبقيت وحدي طيلة اليوم في احدى المغارات أحرس حصانينا. ولما عاد في المساء ذكر لي بأنهما استفسراه عن هويتي، فقال لهما بأنني شركسي ولكن لا أجيد الحديث باللغة العربية.

وقضينا الليلة هناك ثم انطلقنا في صبيحة اليوم الموالي وسرنا في منطقة منبسطة جميلة ولكن لا توجد بها أشجار حتى وصلنا الى مدينة تسمى لارندة (Larenda) [قرمان حاليا (Karaman)] التي تبعد عن إريكْلي بمسيرة يومين. وهي مدينة كبيرة مزدهرة تعج بالحركة التجارية. تقع في

---

[1] ـ كان ذلك سنة 1375 التي تمثل تاريخ سقوط مملكة الأرمينيين.

منطقة جميلة ولا تحيط بها أسوار. يتوسطها قصر (château) كان فيما مضى محصنا محاطا بالأسوار. ولكن تعرضت أجزاء منها للدمار بينما ما زالت بعضها قائمة وبها أبواب كبيرة من حديد.

التقيت في هذه المدينة بنبيلين من قبرص. أحدهما يدعى لياشين كستريكو (Lyachin Castrico) والآخر ليونس ماشيراس (Léonce Machéras). وهما يتحدثان بالفرنسية بشكل لا بأس به. وقد سألاني عن هويتي وكيف وصلت الى هنا. فأخبرتهما بأنني أخدم دوق بوركونيا وأتيت من القدس ودمشق رفقة القافلة. فتعجبا كيف أنني استطعت الوصول الى هذا المكان. وسألاني كذلك الى أين أريد التوجه. فأجبتهما بأنني أريد العودة عن طريق البر الى فرنسا لملاقاة سيدي. فردا على بأن هذا الأمر مستحيل، وحتى وان كنت أملك ألف روح، فسأفقدها قبل تحقيق هذا المبتغى. واقترحا على مرافقتهما طالما أن هناك مركبين بحريين قدما للعودة بأخت ملك قبرص عقيلة أمير ساڤوا (Savoie). وأن هذا الأمر لن يعترض عليه ملك قبرص لأنه سيتم تشريفا لدوق بوركونيا. فأجبتهما بأنني أرغب في مواصلة رحلتي طالما أنني وصلت الى هذه المدينة بعون الله. فسألتهما الى أين سيتجهان. فأخبراني بأنهما سيلتحقان ببعثة أوفدها ملك قبرص الجديد لتجديد أواصر العلاقة الودية مع سلطان قرمان. فالتمست منهما الانضمام الى الوفد للتملي بطلعة هذا السلطان كما نقوم بذلك تجاه ملك فرنسا. فردا على بأنهما لا يمانعان ويسرهما ذلك.

وقد علم صديقي المملوك بوجود مسيحيين بالمدينة، واحتمال توفرهم على كميات من النبيذ، فالتمس مني أن أتصل بهم للتزود بكمية منه للتمتع باحتسائها رفقة خمسة أو ستة عبيد شركسيين التقينا بهم. فاجتهدت فعلا في الحصول على نصف قربة مقابل نصف دوقة. قدمتها للمملوك فسر كثيرا. واحتسى رفقتهم كمية كبيرة من النبيذ تلك الليلة حتى أنه شعر بدنو أجله. ولم يستطع في صبيحة اليوم الموالي قود حصانه وظل يتقيأ من حين لآخر. فكان يقوم، كما جرت العادة عندهم، بشرب كثير من الماء كلما تقيأ لغسل معدته. وظل على ذلك المنوال تقريبا حتى منتصف النهار.

والتقيت قبل مغادرة المدينة بتاجر قبرصي يدعى أنطوان باسرو (Antoine Passerot) المنحدر من مدينة الماغوصة (Famagouste) الخاضعة لسلطة جنوة. وقد أبعد الماغوصة على إثر المحاولة الفاشلة التي قام بها بمعية أحد إخوته لإعادة المدينة لسلطة ملك قبرص.

وغادرنا لارندة في اتجاه مدينة تدعى قونية (Konya) التي يسميها اليونانيون قونيبوليس (Koniopolis). وصلت اليها رفقة المملوك بعد

مسيرة استغرقت يومين سرناها في منطقة جميلة أخاذة. ورأينا، خلالها كثيرا من القرى. ولكن لم ألحظ وجود أي مجرى مائي في تلك المنطقة ولا أي نوع من الأشجار حتى مشارف المدينة.

وتعد قونية أغنى مدينة يحكمها سلطان قرمان[1]. وهي مدينة تجارية محاطة بأسوار سميكة توجد بها أبراج وتحيط بها خنادق. يقع بأحد أطرافها قصر صغير وفي وسطها بقايا قصر آخر أكبر، يبدو أنه كان أكثر مناعة أقيم مكانه بلاط الملك إبراهيم بك.

1) برتراندون دو لا بركيير يتمكن من دخول بلاط إيقونيوم ورؤية الملك إبراهيم بك

وقد مكثت بهذه المدينة أربعة أيام، بلغني خلالها أن سفير قبرص قدم اليها لمقابلة الملك إبراهيم بك[2]. فالتقيت به والتمست منه مرافقته حين التوجه الى البلاط لتحية الملك. ولم يعترض على الأمر. كما لم يعترض أعضاء الوفد المرافق له، الذي كان يضم أربعة يونانيين مرتدين. ولكن أحدهم، وكان مفوضا عسكريا، سأل السفير عن مسوغ وجدوى انضمامي الى الوفد. وفكر في منعي. ولكن السفير لم يمانع في انضمامي طالما أن ذلك لا يمثل مشكلا وطالما أنني أرغب في رؤية الملك.

وقد قدم عونان عسكريان موفدان من البلاط للالتقاء بالسفير ووضع ترتيبات مقابلته للملك وتحضير الهدايا التي سيقدمها له، لأن العادة جرت في هذه الجهة من البحر، بأن يقدم أي شخص يرغب في التحدث مع الملك، هدية.

وأتى بعد ذلك عونان عسكريان آخران لمرافقة السفير الى البلاط ومعهما بعض الخيول وضعت رهن اشارة السفير وأعضاء الوفد المرافق له. كما قدم أعوان آخرون لحمل الهدايا التي أتى بها السفير. وتمثلت تلك الهدايا في

---

[1] - تفيد بعض الدراسات بأن مدينة ايقونيوم كانت حاضرة السلاطين السلاجقة بين سنتي 1074 و1294. وأصبحت بعد هذا التاريخ حاضرة الإمارة القرمانية التي كانت تدين بالولاء للسلطان مراد الثاني تارة ثم تتراجع تارة أخرى. أنظر كتاب حسين جوكتشة وصلاح كولن ولطيف جنتش، السلاطين الأوائل عصر تاسيس الدولة العثمانية، ترجمة سمير عياش زهران، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، 2016، ص. 221.

[2] - ينحدر من عائلة قرمان أوغلو. حكم لمدة 32 سنة. كان صهر مراد الثاني. ورغم ذلك كانت علاقته بالعثمانيين تتارجح بين الود والعداء خلال فترة حكمه حتى وفاته سنة 1458. أنظر المرجع السالف الذكر ص. 221.

ست قطع كبيرة من القماش القبرصي وقطع، لآ أدري كم طولها، من الأثواب السقلانية الناعمة الحمراء وحوالي أربعين "قالبا" من السكر وعرادتين (أقواس مستعرضة) وصقر جوال.

وسار السفير حتى باب البلاط، حيث ترجل عن الحصان الذي كان يمتطيه ودخلنا جميعا الى بهو شاسع كان به حوالي ثلاثمائة شخص. فعبرناه ودخلنا الى غرفة كان الملك جالسا في احدى زواياها فوق بساط موضوع عى منصة كما هي عادة الملوك عندهم. وكان متكئا على وسادة مربعة ملفوفة في قطعة ثوب مطرزة بخيوط من الذهب وبجانبه سيفه مغشى في قطعة قماش مطرزة بدورها بخيوط من ذهب. وكان مرتديا عباءة من ثوب مطرزة بخيوط من ذهب لونها أحمر داكن سنبلي. وكان يجلس بالقرب منه ثلاث رجال. كما كان بتلك الغرفة حوالي ثلاثين رجلا من عبيد الملك مصطفين ظهورهم الى الجدران. وكان يقف بالقرب من الملك أحد مستشاريه. وقد مر الأعوان قبالة الملك حاملين هدايا السفير قبيل دخولنا القاعة التي كان يجلس بها. ثم أستلم المستشار من السفير الرسالة التي كان يحملها وقرأ محتواها بصوت مرتفع. ثم أخذ الكلمة أحد الترجمانيين. فقال بأن ملك قبرص يبعث سفيره لتحية الملك ولتقديم ما أرسله من هدايا عربونا على صداقته. ولم ينبس الملك بكلمة. بل اكتفى بإعطاء إشارة للسفير بالجلوس. فجلس على الأرض بعيدا قليلا عن الملك في مستوى أدنى من مستوى جلوس الملك والرجال الذين كانوا بجواره جريا على عادتهم في ذلك. فسأل الملك السفير: كيف هو حال أخينا ملك قبرص؟ فرد عليه السفير عن طريق الترجمان بأنه بخير. ثم أردف بأن والد الملك قد توفي وأن الملك الحاكم حاليا بعثني لزيارة قونية والاستفسار عما إذا كنتم ترغبون في أن يستمر السلم بين بلدينا كما كان الأمر من قبل. وإن ذلك يسر ملك قبرص كثيرا. فرد عليه الملك بأنه يسره هو الآخر هذا الأمر. ثم سأل السفير متى توفي ملك قبرص؟ وكم يبلغ عمر ملكها الحالي؟ وهل هو حكيم؟ وهل يطيعه شعبه؟ فأجابه السفير عن أسئلته وعبر الملك عن رضاه. ثم أذن للسفير بالإنصراف. فغادرنا القاعة، وعند باب البلاط وجد السفير والوفد المرافق له الخيول التي امتطوها لقدومهم جاهزة لكي يمتطوها للعودة الى مقر إ قامتهم. ثم أتى المفوضون العسكريون عند السفير وطلبوا منه تقديم مبلغ مالي كما جرت العادة بذلك.

وقبل أن ينصرف السفير والوفد المرافق له، قاموا بزيارة الابن البكر للملك. لتحيته هو الآخر وتقديم رسائل له وبعض الهدايا الخاصة به. فاستقبلهم هذا الأخير وأجلس السفير بالقرب منه بينما جلسنا نحن بعيدين

عنهما قليلا. وأردت أن أجلس على كرسي كان ورائي. ولكنني منعت من ذلك فجلست على البساط. ثم أذن لنا إبن الملك بالانصراف. وحين خروجنا، أتى عون عسكري يعمل في خدمة ابن الملك، فقدم له السفير هو الآخر مبلغا قليلا من المال ثم عدنا الى حيث كنا نقيم.

وفي اليوم الموالي، قدم عون مرسل من قبل الملك، وقدم للسفير خمسين آقجة (aspre)[1] لتغطية مصاريف إقامته كما جرى العمل بذلك هنا. وقدم عند السفير عون آخر، مبعوث من قبل ابن الملك، قدم له ثلاثين آقجة. علما بأن دوقة البندقية تعادل خمسين آقجة.

وقد رأيت هذا الملك مرة أخرى ممتطيا حصانه وسط المدينة. وكان يحيط به حوالي خمسين فارسا. معظمهم من عبيده بالاضافة الى حوالي أربعة عشر أو ستة عشر فردا من رماة النبال راجلين. كان يحمل سيفه في غمده مربوطا في حزامه. ورأيت طبلا صغيرا مثبتا في مؤخرة السرج كما هي عادتهم. وقد كان متجها لتأدية الصلاة لأن ذلك اليوم كان يوم جمعة. وهو يوم عيد عندهم. وهو رجل يبلغ من العمر حوالي اثنين وثلاثين سنة. يبدو أنه مطاع في بلده. وقيل لي بأن أمه مسيحية وأنه معمد وفق الطقوس اليونانية.

وقد غادرت عاصمة بلده الذي عبرته خلال ستة عشر يوما. ويقع هذا البلد على طول بلاد فارس من جهة الشمال. ويمتد على مسيرة يوم من طرسوس حتى البلاد التي يحكمها مراد بك [مراد الثاني] الذي ندعوه كبير الأتراك (le grand turc).

وقد ذكر لي بعض الخاضعين لسلطة إبراهيم بك بأنه مشهور بالبطش. لا تمضي أيام دون أن يقيم العدل. فيعدم بعض الأشخاص أو يقطع أرجل البعض أو أيديهم أو أنوفهم. ويحدث أن يحكم على أحد الأغنياء بالأعدام ويبسط يده على ثروته. وقد قام بقتل إحدى زوجاته، وهي أم ولده البكر ستة أيام قبل مقدمي. ولم يكن هذا الأخير قد أحيط علما بالأمر حين رأيته. وقد تزوج هذا الملك إحدى أخوات مراد بك كبير الأتراك.

وسكان هذا البلد هم قوم سوء وقتلة. لا يترددون في الاقتتال فيما بينهم. وقد قام ملكهم بقتل أحد أعيان البلد ثمانية أيام قبل مقدمي. ورمى بجثته للكلاب.

---

[1] ـ عملة فضية كانت متداولة في إمارة قرمان كما كانت متداولة في المجال الذي سيطر عليه الأتراك العثمانيون منذ عهد أورخان حتى نهاية القرن الثامن عشر.

مررت بعد مغادرة قونية بالقرب من إمارة قيصرية التي تفصلها جبال عن بلاد تركمانيا. كما تقع بمحاذاة إمارة قرمان التي تحدثت عنها.

وأعود لأذكر بأن أنطوان باسرو (Antoine Passerot) الذي تحدثت عنه من قبل، قضى فترة في امارة قرمان منذ لجوئه اليها. ومن سوء حظه أنه وقع في الخطيئة حين تم ضبطه مع إحدى نساء هذا البلد. فأرغمه الملك عن التخلي عن الكاثوليكية. وأعتقد شخصيا أنه مسيحي جيد. وقد اعترف لي بأنه لن يتخلى عن دينه. وقد تخلى عن المسيحية مرغما ليتجنب القتل. وينتظر اليوم الذي يعود فيه الى بلده طالما أن ملك قبرص يرغب في أن يظل في خدمته. وأضاف لي بأنه وجملة من المسيحين يرفعون الدعاء للملوك المسيحيين يوم الأحد بالكنائس كما يفعل المسلمون في مساجدهم حين يدعون الله أن يحفظهم من رجل مثل كودفروا دو بوييون. وقال لي انه يعتقد بأن أميرا قويا لن يحتاج الى مجهود كبير لكي يحول هؤلاء المسلمين الى المسيحية، لأنهم لا يستطيعون الصمود طويلا شريطة أن نتركهم محتفظين بممتلكاتهم. كما قال لي بأن ملك قرمان يمقت كثيرا كبير الأتراك رغم أنه زوج إحدى أخواته، لأنه انتزع منه بعض مناطق مملكته[1]. ولكن كبير الأتراك أقوى، في نظر أنطوان، من ملك قرمان. ولكن إذا ما تعرض للهزيمة من الجهة الأخرى من البحر [أي من أوربا]، فإ ن القرماني لن يتركه ينعم بالسلم في هذه الجهة من البحر.

وإن بلاد قرمان، كما ذكرت من قبل، محاطة بجبال شاهقة من الجنوب ومن الشمال. ومحاطة أيضا بمناطق سهلية. وتقع في وسطها بعض الجبال المنتشرة هنا وهناك كالجزر الصغيرة وسط البحر. وهي بلد تنعدم فيه الأشجار الا إذا توغلنا في المناطق الجبلية.

وعند مغادرة قرمان افترقت مع رفيقي المملوك الذي يسمى محمد والذي قام بأشياء جميلة بالنسبة لي. لقد كان يتصرف بإحسان. ولولا وجوده لأكملت بقية رحلتي بصعوبة كبيرة. حدث أحيانا أننا كنا لا نجد ما نأكله وما تأكله خيولنا، فكان يتدبر الأمر ويجيد التصرف. وإنني أذكر هذا الأمر وأكتبه في مذكرتي لأتذكر بأن رجلا لا يشترك معنا في العقيدة أحسن الي كثيرا محبة في الله. وقد كان يقدم الصدقات للذين يطلبونها عن طواعية محبة أيضا في الله. وحين ودعني لم يقبل مني شيئا سوى كلوتة (غطاء رأس) من صنع أوربي سر بها كثيرا. وذكرني، عند توديعي، بالمناسبات التي

---

[1] - كان التاجر القبرصي محقا فيما أفاد به برتراندون دو لا بركيير لأن العداء كان على أشده بين ابراهيم بك ومراد الثاني. وقد قامت حرب بينهما كما رأينا في فصل سابق.

تعرضت فيها للخطر والتي كدت فيها أن ألقى حتفي. كما نبهني الى ضرورة أخذ الحذر عند رفقة بعض المسلمين لأنه يوجد من بينهم من هم أشر من الفرنجة.

وقد قررت الانضمام لقافلة حجة براك وودعت أعضاء وفد قبرص الذين كانوا يودون كثيرا أن أعود معهم. ولم يكونوا يتصورون أنني سأكمل السفر الذي بدأته.

وحين التحقت بالقافلة لم يكن قد بقي بها سوى رئيسها وزوجته وطفلاهما اللذان رافقاهما في تلك الرحلة وجماعة من رجاله وخدامه وقليل جدا من الرجال والنساء. وقد عبرنا منطقة جميلة في اتجاه مدينة أق سراي (Aksaray). ومررنا في طريقنا اليها بعدد من القرى. توقفنا في إحداها. وقد منعت من مغادرة المعسكر مخافة أن يقتلني رجال القرية. ثم غادرنا تلك القرية وعبرنا نهرا وسرنا في منطقة سهلية تدعى يلغن (Ilgin)، توجد بها عدة حامات يقصدها المرضى للاستشفاء كما قيل لي. وقد سرنا من قونية لمدة ثلاثة أيام قبل الوصول الى مدينة أق سراي. وهي مدينة صغيرة تقع عند قدم جبل مرتفع في منطقة منبسطة لا يقطنها كثير من السكان، ومعظمهم من الأشرار ولذلك منعت من مغادرة المعسكر بالليل.

وغادرنا هذه المدينة في اليوم الموالي وسرنا لمدة يوم في بلاد قرمان في طريق يقع بين جبلين تنتشر بجانبيه قرى معظم سكانها من التركمانيين. كما تقع بجواره عدة مستنقعات وفضاءات غابوية على امتداد الجبال. ثم عبرنا نهرا صغيرا يفصل بين بلاد قرمان وبلاد مراد بك الذي نسميه كبير الأتراك. وقد أردنا قضاء الليلة في أحد سراي القوافل (caravansérail) بدا لنا جميلا. وحين دخلناه وجدنا به حوالي خمسة وعشرين نزيلا عربيا. فامتنع حجة براك عن المبيت به، وعدنا أدراجنا حوالي لوقة (une lieue) الى إحدى القرى الكبرى وحططنا الرحال بسفح أحد الجبال وقضينا الليلة. وقد وجدنا بهذه القرية ما يمكن أكله كالخبز والجبن والحليب.

ومن هذه القرية اتجهنا الى مدينة قره حصار (Karahisar) التي وصلنا اليها بعد مسيرة يومين من أق سراي. وتوجد بهذه المدينة المنتوجات والمواد الغذائية بوفرة، لأن المنطقة الفاصلة بينها وبين مدينة أق سراي منبسطة، خصبة ومثمرة. وقد لاحظت أننا كنا نسير عبر مسلك ينحدر من الأعلى الى الأسفل لأننا سرنا ثلاث مرات عبر منحدرات طول مسافة كل واحد منها حوالي نصف لوقة، فبدا لي بأن فرنسا تقع في مستوى أدنى من المستوى الذي يقع فيه هذا البلد. ولكنني لم أجد في الحقيقة طريقة أخرى

لقياس هذا الاختلاف، ولذلك أترك أمر قياسه للمهندسين الطوبوغرافيين الذين يعرفون شكل الكرة الأرضية.

وان مدينة قره حصار التي أتحدث عنها، تخضع لسلطة مراد بك الذي انتزعها ضمن ما انتزعه من أراضي قرمان. لأن القرماني إبراهيم بك يدعي بأنها أراضيه. ويعتبر قره حصار عاصمة هذه الأراضي. وهي في الواقع مدينة جميلة مزدهرة تجارية غير مغلقة بأسوار ويقع بها قصر كبير (chateau) من بين أجمل ما رأيت. ويقع هذا القصر فوق صخرة ضخمة جميلة ومستديرة الشكل تبدو وكأنه تم قطعها بمقص. تحيط المجمعات السكنية ومختلف المرافق بهذا القصر من ثلاث جهات. أما الجهة الرابعة، فيقع بها جبل تستند اليه الصخرة التي يوجد فوقها القصر. ويقع في احدى جهات المدينة سهل يخترقه نهر. وقد قيل لي بأنه لا يوجد أي صهريج ماء بمحاذاة القصر المذكور الذي سبق أن سيطر عليه اليونانيون، ولكن نظرا لتخاذلهم انتزعه منهم تيمورلنك.

وأذكر بأن اسم المدينة قره حصار يعني الحجارة السوداء التي توجد فعلا بكثرة بها ومنها تقتطع حجارة مصفحة يستعملها الحلاقون في سن الموسى التي يحلقون بها لحي زبائنهم. وقد رأيت في هذه المدينة اقبالا كبيرا على تناول كوارع الخرفان التي يتقنون طهيها. وقد قدمت لي كمية منها مرة. فكانت أحسن ما تناولته وخاصة أنني لم أتناول اللحوم منذ أن غادرت مدينة قونية. وقد قمنا بالتزود بكمية من الخبز والجبن تكفي ليوميين. ولم أرغب في التزود بقليل من اللحم الطازج لأنني لا أحب تناوله. وقد دلوني على خليط يستحسنون تناوله حملت القليل منه. وهو عبارة عن حبات من الجوز الأخضر تنتزع عنها القشرة المحيطة بها ويتم وضع ثقب وسط كل واحدة منها ثم تدرج في شريط ويسكب عليها قليل من النبيذ الطازج الذي يلتصق بها بعد أن يبرد. ويصلح هذا الخليط لسد الرمق عندما يشعر المرء بالجوع.

وقد غادرنا قره حصار في اتجاه مدينة كوتاهيا (Kütahya) التي تبعد عنها بمسيرة يومين. وقضينا الليلة في سراي قافلة (caravansérail) بعيد عن التجمعات السكنية. وجدنا فيه كمية من الشعير والتبن لم يجرؤ أحد على أخذ القليل منها، لأنه يجب دفع مبلغ من النقود لحارس السراي. ولم يكن بهذا المأوى أحد باستثناء شاب يقوم بحراسته.

ووصلنا في اليوم الموالي الى كوتاهيا بعد أن عبرنا منطقة جميلة تخترقها كثير من المجاري المائية. وتوجد بها جبال منخفضة. ومررنا أيضا خلال توجهنا اليها بفضاء غابوي تكسوه أشجار الصنوبر الشاهقة التي رأيت

الكثير منها. ولكن هاته، التي رأيت قبل كوتاهيا، تتميز عنها في كونها جد مستقيمة لم يسبق لي أن رأيت مثلها. ولا تتفرع عن جذوعها فروع الا في المستوى الأعلى من الشجرة. وسرنا بعد ذلك الفضاء الغابوي نصف لوقة تقريبا بأرض منحدرة قليلا يخترقها نهر صغير ينبع من جبل توقفنا عنده. فترجل حجة براك وزوجته وطفلاه ووخدامه وشرعوا في الشرب من مياه النهر وملإ القِرَب. ففعلت مثلهم. ولأول مرة قدم لي أحدهم قربة يشربون منها الماء وهم على ظهور خيولهم، فشربت منها قليلا.

ووصلنا الى كوتاهيا التي هي مدينة جميلة مزدهرة لا تحيط بها أسوار. يوجد بها قصر (chateau) ضخم جميل يتألف من ثلاث طوابق على شكل حصون الواحد فوق الآخر ويحيط به سور مزدوج. ويقيم بهذا القصر الابن البكر لكبير الأتراك [علاء الدين شلبي]. وقد رأيت بعض رجاله يتحدثون مع امرأة قدمت معنا ضمن القافلة. فعلمت بعد ذلك بأنها زوجة أحد الأعيان يسمى حمزة باشا. وهو أحد كبار ولاة تركيا.

وقد أمضينا الليلة في سراي قافلة كان يوجد به عدد من الأتراك. وكانت خيولنا مختلطة مع خيولهم كما هو الشأن في جميع الخانات والمآوي. وفي صبيحة اليوم الموالي الذي كان يوم أحد، شرعنا في الاستعداد للرحيل، فلاحظت أن أحدهم انتزع شريطا من جلد كان مثبتا في مؤخرة السرج أربط به بساطي وبعض حاجاتي الأخرى، فاستشطت غضبا فلاحظني عبد، يبلغ حوالي خمسين سنة، هو أحد خدام ابن كبير الأتراك. وقد سمع بأن ما فهت به وأنا غاضب لم يكن بلغة تركية جيدة، فاستدعاني الى باب الخان وسألني باللغة الايطالية عن هويتي. فامتلكتني الدهشة حين سمعته يتحدث بالايطالية وأجبته بأنني افرنجي. ثم سألني من أين أتيت. فأجبته بأنني قادم من دمشق ضمن قافلة حجة براك. فعقب بأنني جاسوس وأتيت من أجل التجسس على هذا البلد ولهذا السبب لم أسلك طريق البحر. فاندهشت لقوله، ولكن أجبته بأن الحروب على أشدها بين البندقيين والجنويين وأن لا أحد يجرؤ على ركوب البحر. فسألني الى أين أنا ذاهب. فأجبته بأنني أريد الذهاب الى بورصة لزيارة أحد اخوتي الذي هو بائع بعض أنواع الحيوانات. فسألني عن موطني. فأجبته بأنني من مملكة فرنسا. فسألني هل أنا من مقاطعة جيڤر (Gesvres) الواقعة بجوار باريس. فأجبته بالنفي. ثم بادرت فسألته هل تعرف أين توجد باريس. فأجابني بأنه أقام بها في إحدى المناسبات رفقة قبطان يدعى برنابو (Barnabo). فأدركت أنه واحد من بين الرجال الذين تم اعتقالهم خلال معركة هنغاريا التي وقع فيها سيدي الدوق جون (Jean) أسيرا. فلم يزد عن ذلك شيئا. وقال لي إذهب لأخذ حصانك. وآت به هنا لأن

مربطه كان يوجد به بعض العبيد الألبانيين الذين كانوا يحاولون سرقة ما تبقى فوق ظهره. فقمت بما أشار على القيام به. ثم نصحني بأن أذهب لاقتناء ما أحتاج اليه من مؤونة وما يحتاج اليه حصاني من علف لما يكفي لخمسة أيام، لأنني لن أعثر على شيء فيما بعد. ثم دعاني لمأدبة، تناولت خلالها كمية من اللحم لأنني لم أتناوله خلال اليومين السابقين. ثم أبدى بعد ذلك طيبوبة نحوي وأقترح على ما يجب فعله.

وغادرت سراي القافلة (الخان) بكوتاهيا في اتجاه بورصة (Bursa ou Brousse). ومررت بمحاذاة جبال شاهقة حتى وصلت مفترق طريقين أحدهما يؤدي الى الجنوب الغربي. تركته وسرت سالكا طريقا عبر الجبال قادني الى فضاء غابوي سرت فيه لمدة يومين كاملين. ثم عبرت بعده منطقة منبسطة جميلة تنتشر بها كثير من القرى الكبيرة نسبيا. ثم واصلت المسير في اتجاه بورصة التي لم تعد تفصل بيننا وبينها سوى مسيرة نصف يون

وفي صبيحة ذلك اليوم، حدث بعد انطلاقنا أن التقينا بفارس قادم من تركيا اتصل بزوجة حجة براك وأخبرها بوفاة أبيها. فكشفت عن وجهها الذي لم يحدث أن رأيته. فبدت لي امرأة جميلة عبرت عن حزنها بطريقة غريبة عن تلك التي نعبر بها عن حزننا.

وتوقفنا بقرية قبل بورصة. وهي قرية جميلة تباع فيها اللحوم ويعرض فيها على الزبائن نوع من العنب الطري يمكن الاحتفاظ به طريا لمدة سنة. كما رأينا بها

من يعرض قشطة مصنوعة من حليب الجاموسات. وهي خليط جيد ولذيذ يسمونه االقيْمَق (Kaymak). وقد تناولت منه كمية كبيرة لأنني لم أتناول أية وجبة مساء منذ أن غادرت كوتاهية. كما جعلني الأتراك أتناول بهذه القرية اللحم المشوي الذي كان نصف طازج. فكان لا بد من تقطيعه وهو على المشواة لكي يصبح طازجا أكثر. وفي الوقت الذي عاملوني فيه بلطف، كان بيننا عبد بلغاري مرتد حاول أن يجعل من نفسه مسلما بامتياز. فقال للجماعة بأنه من الخطيئة السماح لهذا الرجل بالسفر معنا ونحن عائدين من مكة بعد تأدية مناسك الحج. ولذلك تلقيت أمرا بأن أنطلق بمفردي في مقدمة القافلة نحو بورصة ساعة قبل شروق الشمس. ولم يخيب الله مسعاي. فمدني بالعون كما فعل من قبل وقادني نحو بورصة دون أن يحدث مشكل يعيق مسيرتي سوى مرة واحدة سألت فيها تركيا دلني على الطريق. وقد صادفت في طريقي الكثير من الأتراك. فكان بعضهم يقبل يدي وعبائتي معتقدين أنني عائد من مكة.

وعند وصولي الى بورصة ولجت ساحة تتفرع عنها ثلاث أو أربع أزقة. فدلني الله على الزقاق الذي يجب أن أسلكه. فقادني ذلك الزقاق نحو سوق المدينة (البازار)، حيث ملتقى جميع التجار ومكان ابرام جميع الصفقات. وكان أول مسيحي التقيت به أمام مدخل السوق هو الشخص الذي طلب مني بلافيثيوني دو بيروث (Pallavicino de Beyrouth) أن أحمل اليه رسالة. وهو أحد أفراد عائلة سبينولا (Spinola)[1] الجنوية الشهيرة. وقد امتلكته الدهشة حين أخذت أتحدث اليه. فقادني نحو مقر إقامة أحد الفلورنسيين، أقمت به وحصاني طيلة عشرة أيام مكثتها بهذه المدينة التي زرتها بكل ارتياح.

والواقع أن بورصة مدينة مزدهرة تعج بالحركة التجارية. وهي الأكثر ازدهارا من بين المدن التي يحكمها كبير الأتراك. وهي مدينة كبيرة تقع عند قدم جبل كبير يسمى جبل أولمبوس (Mont Olympe) الآخذ في الارتفاع نحو الجنوب والذي ينبع منه نهر يتفرع داخل المدينة. ولهذا السبب تبدو المدينة كبيرة لأنها مؤلفة من عدة قرى. وتعد هذه المدينة مدفن الحكام الأتراك. توجد بها أماكن جميلة ومعالم مهمة مثل المستشفيات، التي تقدم ثلاث أو أربع منها، كميات من الخبز واللحم والنبيذ لمن يرغب في ذلك.

وقد التقيت بهذه المدينة بعدد من التجار الذين استقبلوني بحفاوة وقادوني لزيارة مختلف جهات المدينة. وقادوني بعد مرور أربع أو خمسة أيام الى مقر التاجر "السبينولي" بالسوق لتقديم تشكراتي له وتوديعه. وعند وصولنا رأيته جالسا على كرسي عال مصنوع من حجر. وكان بجواره أشخاص آخرون، لأن هذا السوق هو كذلك مقر التقاء أبرز شخصيات المدينة. وتعرض فيه مختلف أنواع الأثواب الحريرية والأحجار الكريمة واللآلئ وأقمشة القطن وأشياء أخرى يطول تعدادها.

وبالقرب من هذا السوق يوجد سوق آخر يباع فيه القطن وصابون أبيض عليه اقبال كبير. بل رأيت في هذا السوق رجالا ونساءا مسيحيين يعرضون للبيع في بهو مرتفع وهو أمر مؤلم. فقد رأيتهم جالسين على مقاعد (des bancs). ولا تظهر من أجسادهم سوى وجوههم وأيديهم. أما الإناث، فيظهر جزء من أذرعهن. وقد رأيت من قبل في دمشق فتاة سوداء معروضة للبيع. لم يكن عمرها يتجاوز خمسة عشر أو ستة عشر سنة. وقد كان بائعها يجوب بها الأزقة وهي عارية، باستثناء صدرها وخصرها ومؤخرتها.

---

[1] - هي واحدة من بين أربع عائلات نبيلة كانت مشهورة بجمهورية جنوة.

أذكر أنني تناولت في مدينة بورصة قليلا من الخاوبار (الكافيار) (le caviar) المطهي بزيت الزيتون. وكانت تلك أول مرة أتناول فيها هذا الصنف من الأكل. وأعتقد أنه لا يمكن للمرء تناوله الا إذا لم يجد شيئا يؤكل، لأنه لم يرقني خلافا لليونانيين الذين يروقهم.

وقد انتظرت مدة طويلة في هذه المدينة حتى أتمكن من الانضمام الى مجموعة تجار كانوا سيتجهون الى مدينة بيرا (Péra) محملين بكميات من التوابل اشتروها من بعض الرجال الذين كانوا ضمن قافلة حجة براك. وكنت مضطرا لذلك لأنه ليس بمقدور أي شخص غير معروف عبور المضيق الذي نسميه ذراع الأسقف جورج [مضيق البوسفور]، وهو المضيق الفاصل بين تركيا واليونان. وقد أمدني أولائك التجار برسالة [ما يشبه جواز مرور] من حاكم المدينة حمزة باشا. ولكنني لم أستعملها وما زلت محتفظا بها لأنني عبرت المضيق بمعية مجموعة من التجار الجنويين.

أذكر بأنه يوجد في مدينة بورصة حصن جميل ضخم يوجد فوق جبل منخفض يقع في أحد أطراف المدينة في اتجاه الغرب. ويوجد بهذا الحصن [الذي هو عبارة عن مجمع سكني أو بلدة صغيرة] حوالي ألف منزل ومن ضمنها منزل فخم فسيح تقيم به خمسون امرأة من حريم كبير الأتراك كما قيل لي. وهو منزل ممتع مريح تتخلله حديقة وبركة صغيرة يستمتع فيها كبير الأتراك على متن مركب صغير رفقة احدى نسائه كما قيل لي. لأنني لم أر هذا المنزل سوى من الخارج.

ويقيم بهذه المدينة، كما ذكرت سابقا، حاكمها المسمى حمزة باشا. وهو أحد رجال كبير الأتراك ويحظى بمكانة وقيمة كبرى، ولذلك منح حكم هذه المدينة. وقد استفسرت عن كيفية إدراته لها وهل هو مطاع بها. وقيل لي بأنه مثل كبير الأتراك تماما. ويتقاضى خمسين ألف دوقة في السنة وكلما اضطر السلطان الى خوض حرب، يتولى حمزة باشا قيادة فيلق قوامه عشرون ألف رجل يضعه كبير الأتراك تحت إمرته. ويتكفل بنفقتهم رغم أن لحمزة باشا رجاله الذين كلما استنفرهم، يأتيه أحدهم بألف محارب وآخر بألفين وآخر بثلاثة آلاف محارب. كل واحد من هؤلاء الرجال يستنفر عددا من المحاربين تبعا لوضعيته ومرتبته. وهكذا، كلما كلما احتاج الى محاربين، يجدهم رهن اشارته دون أن يكلفه ذلك شيئا.

وحين كنت بهذه المدينة بصدد البحث عن تجار فلورنسيين، إلتمس مني أحد التجار أن أصطحب معي رجلا اسبانيا الى القسطنطينية. أعتقد أنه عبد آبق كان في خدمة السلطان وفر الى هنا. وقد نقلته فعلا الى القسطنطينية على نفقتي وتركته هناك ولا أدري شيئا عن مصيره.

وقد غادرت بورصة رفقة ثلاثة تجار جنويين كانوا يحملون كميات من التوابل الى مدينة بيرا (Pera) [بك أوغلو (Beyoglu) حاليا]. ولكي أتمكن من السفر في مأمن، اقترحوا على شراء قلنسوة حمراء وقبعة مصنوعة من خيط معدني مغشى بالقطن وضعتها فوق رأسي حتى وصلت الى القسطنطينية. وقد سرنا في طريق يخترق منطقة منبسطة ثم عبرنا نهر النيلوفر (Nilüfer) فوق قنطرة. وهو نهر يخترق المدينة ويصب في خليج يقع بين القسطنطينية ومدينة كّاليبولي (Gallipoli) على بعد أربع لوقات من بورصة. ثم سرنا مدة يوم بين بعض الجبال لتفادي منطقة صلصالية مغطاة بالأشجار يصعب السير فيها. وتنمو بالمنطقة الجبلية، التي مررنا بها، أشجار صغيرة تجود بثمار تشبه االفراولة من حيث الشكل والمذاق. وهي لذيذة المذاق أكلنا منها كميات كثيرة حتى شعرنا بالدوار وكأنها مسكرة. وتتوفر هذه الثمار بهذه المنطقة خلال شهري نونبر ودجنبر.

وحين نزلت من هذه الجبال، سلكت طريقا في منطقة منبسطة تقع بدورها بين جبلين. توجد في منتهاها بحيرة كبيرة حولها منازل كثيرة. وفي هذه المنطقة، رأيت لأول مرة كيف يتم صنع الزرابي التركية. ولاحظت بأن الأرز ينمو فيها بوفرة. ويمكن انطلاقا من هذه المنطقة رؤية خليج كّاليبولي..

وقد قضيت الليلة بها. ثم غادرتها صبيحة اليوم الموالي عبر طريق يخترق أحيانا مجموعة جبال وأحينا هضبة وأحينا فضاءا معشوشبا. ويخترق هذا الطريق في احدى الجهات غابة أشجارها سميكة عالية (une futaie) يصعب السير فيها على ظهر الحصان، ليس فقط لكثافة الأشجار، وانما أيضا لأن الطريق يغوص فيها أحيانا في الأرض، فتجد الخيول صعوبة في السير. وأعتقد أن هذه الغابة هي تلك التي ورد الحديث عنها في كتب التواريخ والتي لاقى كّودفروا دو بوييون (Godefroy de Bouillon) صعوبات في عبورها.

وقد قضيت الليلة في قرية وصلت اليها بعد عبور هذه المنطقة الصعبة. وتقع تلك القرية في الطريق المفضية الى مدينة نيقوبوليس التي تبعد عنها بحوالي أربعة لوقات. ونيقوبوليس مدينة مزدهرة تتوفر على ميناء عريض يطل على خليج القسطنطينية. ولكن الملاحة صعبة به وكذلك في هذه المنطقة الخليجية برمتها.

ومن هذه الجهة، يسهل المسير في اتجاه القسطنطينية، لأن المنطقة جميلة مزدهرة تسر الناظر. يستوطنها كثير من اليونانيين وعدد قليل من

الأتراك. وهؤلاء اليونانيين يمقتون كثيرا المسيحيين الكاثوليك مقارنة بالأتراك.

وقد واصلت المسير في هذه المنطقة الجميلة. فتركت الطريق المؤدي الى مدينة نيقية (Nicée) الواقعة بالقرب من البحر الأسود في اتجاه الشمال. وواصلت السير على طول خليج القسطنطينية. وقضيت الليلة في بلدة مخربة الى حد ما، معظم المقمين، بما تبقى من منازلها هم من اليونانيين. ومنها توجهت الى قرية تشرف على قرية سكوتاري (Scutari) [آسكدار (Usküdar) حاليا].

وقضينا الليلة بتلك القرية، ثم واصلنا المسير صبيحة اليوم الموالي الى قرية سكوتاري الواقعة على الخليج الذي نسميه ذراع الأسقف جورج قبالة مدينة بيرا (Péra). فقطعت مضيقا يفضي اليها بمعية التجار الذين كنت رفقتهم. وقد كان مجموعة أتراك يحرسون ذلك المضيق ويقومون بتحصيل مكس مقابل العبور. وامتطينا، لعبور المضيق، زورقين صغيرين في ملكية يونانيين. وكان عبورنا من مكان ملائم يستعمل لإركاب الناس وشحن الخيول والبضائع. وتوجد بمحاذاة هذا المكان صخور تحفظه وتحصنه. ومن هنا وصلنا الى مدينة بيرا (Pera).

وهي مدينة كبيرة تابعة لممتلكات جنوة ويحكمها دوق ميلانو الذي يدعي بأنها من ممتلكاته. وقد بدت لي بأنها غير محصنة بما فيه الكفاية من جهة اليابس في اتجاه الكنيسة. ومعظم سكان هذه المدينة من الجنويين الذين يمارسون النشاط التجري والأعمال الإدارية. ويقيم بالمدينة كذلك مجموعة من اليونانيين واليهود. وهي تعج بالحركة التجارية ويرتادها كثير من الأتراك الذين يتمتعون بنوع من الامتياز الضريبي حسب ما قيل لي. من ذلك على سبيل المثال، أنه إذا حدث أن فر عبد مسيحي من أحدهم ولجأ الى هذه المدينة، فلمالكه الحق في استرداده.

وقد لاحظت بأن المدينة تتوفر على مرفأ جيد وهو من أجمل المرافئ التي رأيتها بما في ذلك المرافئ المسيحية، لأن أكبر المراكب الجنوية يمكنها أن تأتي اليه وترسو به. وهذا أمر لا شك أن الكثير يعرفه، ولا داعي أن أتحدث عنه مطولا.

والتقيت في المدينة بأحد سفراء دوق ميلانو يدعى بنديتو فولكو دا فورلي (Benedetto Folco da Forli). قدم مبعوثا الى كبير الأتراك. وقد خصني باستقبال رائع على شرف سيدي دوق بورگونيا. وأخبرني أن دوق ميلانو أرسله مبعوثا لمحاولة تخفيف التوتر بين سيجسموند امبراطور هنغاريا وكبير الأتراك. فخلال هذه الحقبة كان دوق ميلانو متحالفا مع

الامبراطور ضد البندقيين. وقد قال لي السفير المذكور بأنه قام بدور مهم في ضياع مدينة سالونيك (Salonique) من البندقيين لفائدة الأتراك. وأعتقد أنه كان مخطئا فيما ذهب اليه، لأنني رأيت الكثير من سكان هذه المدينة يتخلون، بمحض ارادتهم، عن المسيحية ويعتنقون الاسلام الذي يدين به الأتراك. وقد رأت عددا منهم قاموا بذلك من قبل.

والتقيت كذلك في هذه المدينة برجل من أهل نابولي (Napoli) يدعى بيير (بطرس) النابوليتاني. كان مقيما من قبل بأرض الراهب يوحنا[1] وتزوج بها. وقد ألح على أن أرافقه. فسألته عن أشياء كثيرة أجابني عنها. وقمت بتدوين أجوبته وأثبتها في كتيبي، ولكن لا أضمن ما إذا كانت صحيحة أم لا؟

قال لي بأنه حين ذهب الى أرض الراهب يوحنا، كان مرفوقا برجلين بعثهما سيدي دوق بيري (Berry) رسولين الى الراهب يوحنا. كان أحدهما يحظى برتبة سامية في الجيش والثاني برتبة متواضعة. وأضاف بأنه عبر للوصول الى أرض الحبشة، الاسكندرية والقاهرة عبر نهر النيل في رحلة دامت خمسة عشر يوما. ثم واصل رحلته عبر البحر الأحمر.

وقال لي بأن الراهب يوحنا رجل من خيرة المسيحيين يخضع لكنيسة روما. وهو حاكم جيد يحكم مملكة كبيرة ويستطيع، لخوض حرب، استنفار أربعة ملايين رجل. وقال لي بأن رجاله يتميزون بطول قاماتهم. وهم ليسوا بيضا كما ليسوا سودا، بل بشرتهم مختلطة ويتميزون بالفضيلة والحكمة.

وقال لي كذلك بأن يوحنا الراهب كان في حالة حرب دائمة ضد حاكم من جيرانه في الجنوب يدعى الخان الأكبر. وقال لي أيضا بأنه يوجد بجوار يوحنا الراهب اثنا عشر حاكما يدفعون له كل سنة جزية تتمثل في عدد من العبيد وكمية من الذهب. وهم من هذا المنطلق، كأنهم خاضعين لسلطته. كما قال بأن الذهب يوجد بوفرة في الحبشة بالاضافة الى الزنجبيل. ولكن التوابل الأخرى لا تنمو بهذا البلد. وتوجد به كذلك أنواع من الدواب الغريبة كالأسود والفيلة والزرافات وأحادي القرون وغوريلات تشبه الإنسان البري [لمتوحش]. ولا تختلف عنه سوى في كون نصفها أبيض ونصفها أسود

---

[1] - كيان سياسي لا تقر الدراسات الحديثة بوجوده نظرا للطابع الأسطوري الذي يكتنف ما قيل عنه في كتب الرحلات التي وضعها الأوربيون. حيث تحدث عنه البعض بوصفه كيان أسيوي يقع في الهند. وتحدث عنه البعض الآخر بوصفه كيان افريقي يقع في اثيوبيا (الحبشة). لمزيد من الاتفاصيل حول هذا الكيان السياسي، أنظر مقال حاتم الطحاوي، "أوربا والاسلام، مملكة الكاهن يوحنا (الحقيقة- الأسطورة- المغزى)، مجلة التفاهم، العدد 16، يونية 2018، ص.ص. 280-294.

وتملك أذنابا يبلغ طولها قدمين ونصف. وفضلا عن هذه الحيوانات، هناك حيوانات أخرى عجيبة، من بينها الثعابين التي يبلغ طول بعضها مائة وخمسون ذراعا. وهي من أخطر أنواع الحيوانات يمكنها رفع رؤوسها الى الأعلى مسافة كبيرة عن الأرض. ويتوفر كل واحد منها على ما يشبه المهماز تحت ذنبها، إن استطاع محارب الحصول عليه وحمله االى معركة، فإن خصمه لا يستطيع الصمود أمامه.

وذكر لي كذلك بأن يوحنا الراهب، لا يملك أسطولا في بلده. ولا يوجد ببلاده من يعرف صناعة المراكب البحرية أو من له دراية بشؤون البحر. وخلافا لذلك، يملك خصمه الخان الأكبر، ثمانية ألف مركب كبير. وتوجد ببلاده الأحجار النفيسة والتوابل وأشياء أخرى غريبة من قبيل تلك التي تحدث عنها الإسكندر المقدوني[1].

وذكر لي بأن بلاد الخان بعيدة لا يستطيع أحد أن يذهب اليها عن طريق البحر. وحتى ان حاول أحدهم القيام بذلك، لن يستطيع الوصول الى ساحلها نظرا لقوة التيارات البحرية ونظرا لصعوبة رؤية النجم القطبي في تلك الناحية ونظرا كذلك لغلبة الظلام بأكثر نواحيها، ولذلك، فإن الكثير من المراكب البحرية التي أبحرت اليها اختفت دون ترك أثر.

وذكر من جملة ما قاله لي عن الحبشة، أن بها جبال شاهقة. وربما تكون أعلى جبال العالم. وقد رأيته اشترى عددا من المرايا. فسألته عن السبب. فذكر لي بأنها غير موجودة هناك. وان سعر الواحدة، الذي لا يتجاوز هنا قطعتين ذهبيتين، يبلغ هناك خمس دوقات أو أكثر. كما ذكر لي بأن فصل الشتاء هناك يدوم من منتصف شهر مايو حتى منتصف شهر شتنبر. كما أن الأمطار تسقط بغزارة، بحيث يمكن زراعة القمح في شهر دجنبر وحصده في شهر فبراير. ولذلك تجود الأرض بجميع أنواع الثمار بوفرة. أما المعادن النفيسة والأحجار الكريمة، فلا وجود لها بهذا البلد. وأن القليل المتوفر بها يأتي من بلاد الخان الأكبر

وذكر لي بأن النهر الذي يخترق القاهرة، والذي نسيمه النيل، يأتي من الحبشة ويمر بين جبلين. وهو ينبع من مغارة، لذلك قام يوحنا الراهب ببناء برجين متصلين ببعضهما، لكيلا يستطيع أحد الوصول الى تلك المغارة. خاصة وقد شاع بأنه إذا ذهب أحدهم اليها ودخلها لا يستطيع الخروج منها.

---

[1] ـ يشير هنا الى الرسالة التي بعث بها الإسكندر المقدوني أو الأكبر لأرسطو وتحدث فيها عن غرائب الشرق.

وبالعودة الى رحلتي، أذكر أنه حين امتطيت المركب اليوناني بسكوتاري رفقة التجار، اعتقد ملاكه اليونانيون بأنني تركي فعاملوني بلطف وتقدير. وقد نزلت الى اليابس وذهبت للبحث عن تاجر جنوي حملت اليه رسالة، فعلموا بأنني مسيحي. وحين عدت لأخذ حصاني، حاول اثنان منهم ابتزازي. بل حاولا ضربي لأن اليونانيين يمقتون المسيحيين الكاثوليك. وكان بإمكانهما القيام بذلك. ولكنهما لم يجرؤا لأنني كنت أحمل سيفي في غمده وأضع جعبة النبال على ظهري.

واني أكتب عما حدث لي حتى إذا ما وقع لأحدهم غدا أو في المستقبل ما وقع لي، يكون على بينة من الأمر. وقد خبرت اليونانيين كثيرا، فلم أجد فيهم من اللطف ومن الصداقة ما وجدته في الأتراك. وهم عموما لا يحبون المسيحيين الخاضعين لسلطة روما رغم أنهم يتظاهرون بالخضوع لسلطتها، في سياق وحدة الكنائس المسيحية. ولكن لا يفعلون ذلك محبة في الدين، ولكن لحاجتهم للمساعدات المادية. وهم يحكمون بمعية امبراطور القسطنطينية، أقساما من أراضي أوربا. وقد حدث قبل عبوري هذه المناطق، أن سيطر كبير الأتراك على ڤلآشيا الكبرى وڤلآشيا الصغرى (la Valachie)[1]. فأضحت معظم مدنهما وقراهما وقلاعهما خاضعة لسلطته الفعلية أو مجبرة على تأدية الجزية.

وخلال اليوم الثاني من مقامي ببيرا، ذهبت الى المرفأ، الذي أشير بالمناسبة بأنه عريض نسبيا ولكنه ليس عميقا. وقد قصدته بنية الاتجاه صوب القسطنطينية. فرأيت به تجارا بندقيين وجنويين وقطلونيين. ومن بين هؤلاء الأخيرين، واحد، إسمه بيرنار كارمير (Bernard Carmer)، سبق أن التقيت به مرة بمدينة بروج (Bruges). وقد تعرف على من خلال صوتي وطريقة حديثي، فسر برؤيتي واقترح على مرافقته الى القسطنطينية والإقامة معه بمنزله هناك.

2) بيرتراندون دو لا بركيير يتمكن من رؤية امبراطور القسطنطينية في الكنيسة وفي البلاط

واستعددنا للسفر وانطلقنا معا الى القسطنطينية التي كانت فيما مضى تسمى بيزنطة الكبرى.

---

[1] ـ منطقة تقع بمحاذاة الضفة اليسرى لنهر الدانوب.. وتمثل حاليا اقليما من أقاليم جنوب رومانيا.

والحقيقة أنها مدينة كبيرة ممتدة على شكل مثلث. تقع احدى زواياه عند مضيق ذراع الأسقف جورج الذي يوجد به خليج عريض. ونظرا لكبر المدينة، يزعم بعضهم أن هناك ثلاث مدن كبرى في العالم توجد في كل واحدة منها سبع جبال. وهذه المدن هي روما والقسطنطينية وأنطاكية. وأعتقد أن روما أكبر من القسطنطينية وأكثر استدارة منها. أما أنطاكية، فلم أزرها. بل اكتفيت بعبورها ولآ أعرف شيئا عن امتدادها. أما جبالها، فبدت لي أكثر ارتفاعا من الجبال الموجودة في روما وفي القسطنطينية. ويقال كذلك بأن دائرة المدينة انطلاقا من زواياها الثلاث، تبلغ ثمانية عشر ميلا. وهذه المسافة كلها عبارة عن أسوار محيطة بها، وخاصة في الأجزاء الماحذية للبابس والتي توجد بها كذلك خنادق. وهذه الخنادق عميقة في بعض الأماكن، وخاصة بالقرب من قصر البلاشيرن (palais des Blachernes) نظرا لوجود جبل. قيل لي بأن الأتراك فكروا في السيطرة على المدينة من جهته.

وتوجد كذلك بالمدينة على بعد مسافة قليلة عن هذه الخنادق، أبراج مرتفعة جميلة وصلبة. كما كان يوجد قديما ببعض أطرافها، قصران محصنان تم تدميرهما مؤخرا. وما زالت بعض أسوارهما قائمة الى اليوم. وقد قيل لي بأن أحد الأباطرة، هو من قام بتدمير القصرين بعد وقوعه أسيرا في قبضة كبير الأتراك الذي خيره بين تسليم المدينة أو الموت. فاختار هذا الامبراطور الأسير الموت بدل خيانة المسيحية. عندها أمره كبير الأتراك بتدمير القصرين والساحة الواقعة قبالة كنيسة أيا صوفيا مقابل إطلاق سراحه. وكان كبير الأتراك يعتقد أن عملية التدمير ستسهل له دخول المدينة. وقد وافق الإمبراطور على هذا المقترح وقام بتدمير القصرين[1].

يوجد في مدينة القسطنطينية مرفأ صغير لا يسع لأكثر من ثلاث أو أربع سفن. يقع هذا المرفأ في الجنوب بالقرب من باب توجد بمدخلها كومة عظام المسيحيين الذين أتوا الى خليج القسطنطينية وأرادوا الإنطلاق نحو القدس، الأرض الموعودة، ثم نحو عكا للالتحاق بگودفروا دو بوييون الذي انطلق نحو هذه الديار. ولكن اليونانيين الذين كان من المفترض أن يسهلوا

[1] - خلافا لما قيل لبرتراندون دو لا بركيير، لم يكن هناك أي قصر في تلك الناحية من المدينة. إذ تفيد بعض المصادر والدراسات الحديثة أن الإمبراطور الذي يتحدث عنه برتراندون هو يوحنا الأول بليولوگـ الذي السلطان با يزيد. غزو بلاده. ولم يقع في الأسر، وإنما إبنه هو من وقع أسيرا. وقد أراد الامبراطور تبعا لذلك تحصين المدينة خوفا من هجوم تركي محتمل، ولكن السلطان منعه من ذلك مقابل إطلاق سراح ابنه.

لهم عملية العبور، اقتادوهم الى هذا المكان غير المرئي، وقاموا بقتلهم[1]. وخلافا لهذه الطائفة من المسيحيين الذين لاقوا هذا المصير، فإن مسيحيي آخرين من هذه الجهة نجحوا في الذهاب الى الأرض المقدسة عبر البحر الأسود. ومعظمهم هم الذين نسميهم اليوم بالشراكسة أوالأديجيين (les adyguéens) وقوط منطقة القرم والآڤار (les Avars). ولكن مسيحية هذه الشعوب مسيحية فضفاضة. ما أعرفه عنها بلغني عن طريق السماع ويتعلق بأحداث وقعت منذ فترة طويلة.

وقد لاحظت بأن السفن الكبرى بإمكانها الرسو في مرفأ القسطنطينية كما هو الحال في مرفأ بيرا. والقسطنطينية عبارة عن مجموعة قرى غير متصلة تفصل بينها مجالات فارغة. كما توجد بها عدة كنائس جميلة من بينها كنيسة أيا صوفيا. وهي الكنيسة الرئيسية من بين الكنائس. يقيم بها البطرياك ومجموعة من الكهنة. تقع بالقرب من رأس المدينة في اتجاه الشرق. وهي منشأة كبيرة دائرية الشكل. يقال بأن طول محيطها كان يبلغ فيما مضى ثلاثة أميال لأنها كانت مؤلفة من عدة أروقة. أما اليوم، فإنها أقل حجما، اذ لم تعد مؤلفة سوى من ثلاثة أروقة مبلطة بقطع عريضة من الرخام الأبض اللامع. أما أبوابها النحاسية، فهي مرتفعة وعريضة. تفضي الى قلب الكنيسة المؤلف من ثلاث طوابق. أحدها تحت الأرض والثاني أرضي والثالث علوي. وجميعها مبلطة بقطع رخام عريضة. أما الأعمدة التي ترفع الأسقف، فهي سميكة وذات ألوان مختلفة.

يقال بأن أحد أقمصة السيد المسيح يوجد بهذه الكنيسة. كما يوجد بها الرمح الذي طعن به وقطعة الإسفنج المقدسة والقصبة التي استعملت في تثبيت تلك القطعة. وقد رأيت خلف الخورس (le choeur) أعمدة المشواة المعدنية التي أعدم عليها الأسقف لورنس. كما رأيت قطعة الحجارة العريضة المقعرة على شكل حوض (lavoir)، التي يقال بأن إبراهيم الخليل وضع فيها الطعام للملائكة الثلاث الذين قاموا بتدمير سدوم وعمورة.

ورأيت يوما البطرياك يؤم القداس وفق الطريقة المتبعة هنا. وقد حضر ذلك القداس الإمبراطور[2] وأمه وزوجته الجميلة. وهي احدى بنات امبراطور طرابزون (Trébizonde). وقد مكثت هناك اليوم كله دون أكل

---

[1] - الواقع أن كومة العظام التي يتحدث عنها برتراندون دو لا بركيير ليست لهؤلاء المسيحيين، بل هي عظام المسيحيين الفرنجة الذين لقوا حتفهم إبان المعارك التي خاضها الامبراطور ميشال الثامن بليولوگ سنة 1261 من أجل استرداد المدينة.

[2] - يتعلق الأمر بيوحنا الثامن باليولوگ الذي اعتلى عرش الإمبراطورية البيزنطية بين سنتي 1425 و1448 خلفا لوالده ايمانويل الثاني.

أو شرب لرؤية طريقة تأديتهم للقداس ولرؤية الامبراطورة التي بدت جميلة في الكنيسة. وقد توجهت في المساء، بعد خروجها من الكنيسة لتناول العشاء في مقر [مطعم] قريب من الكنيسة ممتطية حصانا ورفقتها امرأتان ورجلان أو ثلاثة مسنان. وعند خروجها من ذلك المقر، جيئ بمقعد صعدت فوقه ووضعت رجلها في الركاب لامتطاء الحصان كما يفعل الرجال. بينما أمسك أحد أولائك الرجال بجزء من المعطف الطويل الذي كانت ترتديه. وقد بدت أكثر جمالا من ذي قبل. واقتربت كثيرا منها حتى أمرت بالابتعاد. وأعتقد بأنه لا شيئ يمكن قوله في هذا الصدد، سوى أنها كانت تضع مساحيق على وجهها، لم تكن في حاجة اليها لأنها كانت شابة وبيضاء البشرة. كانت تضع في أذنيها قرطين عريضين نسبيا ومصفحين. كل واحد منهما مرصع بأحجار كريمة. وحين امتطت حصانها، قامت المرأتان المرافقتان لها بنفس الشيئ بعدها. وكانتا جميلتان. كانت تردي كل واحدة منهما معطفا وتضع فوق رأسها قبعة. واتجهن جميعهن صوب قصر البلاشيرن (palais des Blachernes)

وتقع قبالة كنيسة القديسة صوفيا ساحة فسيحة يأتيها الناس اللتسلية كما قيل لي, رأيت بها أخ الامبراطور، المدعو ثيودور بليولوگ، مرفوقا بعشرين أو ثلاثين رجلا من رجاله على خيولهم. كل واحد منهم يحمل قوسا. كانوا يركضون في تلك الساحة. كل واحد منهم يلقي قبعته بعيدا أمامه ويركض على حصانه وحين يتجاوزها قليلا يعود أدراجه ويرميها بسهم. ومن أصاب قبعته يكون قد أبان عن مقدرته ونجح في هذه اللعبة التي أخذوها عن الأتراك.

وتقع في زاوية، من زوايا المدينة الثلاث الحادة، كنيسة الأسقف جورجيوس (Saint Georges). وهي كنيسة جميلة. وفي الموضع الضيق من هذه الزاوية، في اتجاه تركيا، يوجد برج يضيق الممر بمحاذاته كثيرا. وفي الاتجاه الآخر، نحو الغرب، يوجد عمود مرتفع مكون من حجارة مربعة مكتوبة عاى احداها بعض الأحرف. وينتصب في قمة هذا العمود المرتفع تمثال معدني يجسد الامبراطور قسطنطين ممتطيا حصانا من معدن ويحمل في يده اليسرى الصولجان، بينما يده اليمنى مفتوحة وذراعه ممتد في اتجاه تركيا والقدس، دلالة على أن هذا المجال الممتد حتى القدس يقع تحت سلطته. ولا أدري كيف تم وضع هذا التمثال الضخم فوق هذا العمود المرتفع. وتقع بمحاذاة هذا العمود، ثلاثة أعمدة أخرى مصطفة. كان كل واحد منها يحمل فيما مضى حصانا مذهبا، ولكنها لم تعد موجودة الآن اذ تم نقلها الى البندقية.

وتوجد أيضا بالمدينة كنيسة أخرى تسمى كنيسة بنتوكراتور (Pantocrator)، يقيم بها فئة من رجال الدين الساهرين على مراقبة تطبيق الطقوس والشعائر الدينية. وتوجد كذلك بالكنيسة ذاتها الحجارة المصفحة التي قام رجل الدين نيقوديموس (Nicodème) بصقلها على شكل لوح مصفح ليوضع على قبره. وهذه الحجارة المتعددة الألوان التي اقتطع منها اللوح، هي التي وضع فوقها المسيح حين تم إنزاله من أعلى الصليب. ولهذه الحجارة دلالة رمزية كبرى. اذ ترى فوقها آثار الدموع التي سكبتها عليها سيدتنا خلال ذلك الموقف. وقد اعتقدت أن تلك الآثار هي عبارة عن صمغ، ولكن حين اقتربت منها كثيرا ولمستها بيدي بدت لي بأنها عبارة عن قطرات ماء مجمدة. وهو شيئ رآه كثير من الناس غيري.

ويوجد كذلك في هذه الكنيسة، ضريح القديسة هلينا أم الامبراطور قسطنطين. ويوجد هذا الضريح فوق عمود دائري مرتفع عن الأرض بحوالي ثمانية أقدام. ويقال بأن الفينيقيين حملوا جثمان القديسة هلينا الى البندقية حين كانوا أقوياء وتمكنوا من السيطرة على القسطنطينية.

وتوجد بالقسطنطينية كذلك كنيسة أخرى تسمى كنيسة الرسل المقدسين (les Saints Apôtres) توجد بها قطعة من عمود قامتها أطول قليلا من قامة رجل. وهي جزء من العمود الذي ربط اليه المسيح في منزل بيلاطوس البنطي (Ponce Pilate) ليتم جلده. ويتكون هذا العمود من نفس نوع الحجارة التي تتكون منها القطعتان الأخرتين التي رأيت إحداهما في روما والأخرى في القدس. ولكن القطعة الموجودة في هذه الكنيسة أطول من الأخرتين بحوالي الثلث.

ولا بد من الإقرار بأن هذه الكنيسة جميلة. توجد بها جثامين بعض القديسين الإغريقيين في حالة جيدة ويمكن أن يراها من يريد. وهي موضوعة في ثوابيت من خشب مرفوعة عن الأرض. يوجد من بينها قديس بدون رأس تم وضع رأس قديس آخر مكانه. وهي موجدة بهذه الكنيسة منذ فترة طويلة، ولكنها لا تحظ بالتقديس (أو التبجيل) الذي تحظى به الأشياء المقدسة عندنا في الجهة الأخرى من البحر. ونفس الشيئ ينطبق على حجارة نيقوديموس وعلى قطعة العمود الذي ربط اليه المسيح. فهي موضوعة بمحاذاة عمود ومحفوظة ببعض القطع الخشبية فقط. وتوجد في الجهة اليمنى من الكنيسة بالقرب من الباب الرئيسي.

وتوجد أيضا بمدينة القسطنطينية كنيسة أخرى تسمى كنيسة بلاشيرنا (église de Blachèrnes). تقع بالقرب من القصر الامبراطوري والأسوار في الجهة المتجهة من اليابس نحو مدينة بيرا، حيث توجد الخنادق

التي تحدثت عنها. وهذه الكنيسة ليست كبيرة قياسا بما تحتوي عليه. ولكنها أجمل من الكنائس الأخرى، لأن أرضيتها مبلطة وجدرانها مصبوغة، فضلا عن كونها مزخرفة.

وبالاضافة الى هذه الكنائس، هناك كنائس أخرى لم أتمكن من زيارتها. من بينها واحدة يقال بأن القداس يقام فيها كل يوم وفق الطقوس المتبعة في روما ويرتادها التجار كل يوم. وتقع هذه الكنيسة في الموضع الذي نعبره عند الاتجاه الى مدينة بيرا.

وأذكر أنني رأيت بهذه المدينة كثيرا من التجار المنحدرين من دول كثيرة. ولكن تجار البندقية هم الأكثر عددا ويتمتعون بنفوذ كبير. يمثلهم وكيل يتمتع بسلطة قوية. وهو على دراية كبيرة بقضاياهم. وقد قيل لي بأن البندقيين يحظون بهذا الامتياز منذ فترة طويلة. ولولا هم، لكانت القسطنطينية تحت سلطة الأتراك على الأقل خلال مناسبتين: الأولى حين أرسلوا سفنهم الى تنايس (Tana ou Tanais) على بحر أزوف (Azov). ولا زالوا يقومون بذلك كل سنة. والثانية حين وصلوا الى مشارف القسطنطينية وضربوا عليها الحصار[1]. وكان تعداد قواتهم آنذاك حوالي ألف رجل كما قيل لي. وقد اقتربوا من الخنادق، فقام البندقيون الذين كانوا يرابطون على متن مراكبهم البحرية بالدفاع عن المدينة. وأعتقد أن الله حمى المدينة وجنبها السقوط بفضل روليكات القديسين (les reliques) أكثر من أي شيئ آخر

ولكن خضوع الامبراطور لكبير الأتراك اليوم بلغ حدا بعيدا. اذ قيل لي بأنه يدفع له عشرة آلاف دوقة سنويا نظير احتفاظه بحكم القسطنطينية لوحدها. والواقع أنه لم يعد يملك شيئا في اليونان سوى بلدة صغيرة اسمها سلوبرية (Salubrie) [سلورية حاليا] بالاضافة الى قصر (شاتو) يقع على بعد ثلاث ساعات الى الشمال من القسطنطينية.

وإن الامتيازات التي يتمتع بها البندقيون في القسطنطينية، مكفولة لهم كذلك من قبل كبير الأتراك. اذ أن وكيلا بندقيا هو المكلف بالتجارة التي يديرها الأتراك في المدينة ولا يتعاملون مع موظف أو عون يمثل الامبراطور. فإذا حدث مثلا أن فر عبد مسيحي من أحد ملاكه الأتراك ووصل الى القسطنطينية، يجب على الامبراطور، أو أعوانه، إعادته لمالكه التركي.

---

[1] - يشير برتراندون دو لا بركيير هنا الى الحصار البحري الذي ضربه السلطان با يزيد الأول على القسطنطينية سنة 1392.

وقد أخبر التاجر القطلوني، الذي أقيم في بيته، أحد رجال الإمبراطور بأنني من خدام دوق بوركونيا، فسألني هل نجح الدوق حقا في إلقاء القبض على العذراء[1]؟ لأن هذا الأمر يبدو مستحيلا في نظر اليونانيين. فأجبته بأن الأمر صحيح لا مراء فيه. فأبدى دهشته.

وقد قادني ذلك التاجر، وتجار قطلونيون آخرون وغيرهم، معهم مساء ذات يوم الى بلاط الإمبراطور لحضور حفل أقامه بمناسبة دينية، شبيه بذلك الذي نقيمه بمناسبة عيد الشموع (fête des chandelles). فرأيت الامبراطور جالسا على منصة في طرف إحدى القاعات وفق البروتوكول المعمول به. أما الإمبراطورة، فكانت تتابع الحفل من شرفة غرفة تقع في الطابق العلوي. وكان الملحقون الدينيون (les chapelains) ينشدون ابتهالات وهم مرتدين ألبسة بدت لي غريبة. كما كانوا ينشدون وهم يقومون بتحريك أصابعهم.

وبعد مرور خمسة أيام على حضوري هذا الحفل الديني، قادني الجماعة معهم مرة أثانية الى البلاط لحضور حفل آخر أقامه الإمبراطور بمناسبة عقد قران أحد أقربائه. وتميز الحفل بتنظيم مجاولة (une joute) شارك فيها مجموعة فرسان. بدت لي غريبة عما ألفت رؤيته. فقد نصبوا عمودا من خشب وسط باحة وربطوا في جزئه الأعلى لوحة خشبية طولها حوالي خمسة أقدام وعرضها ثلاثة. وكان على كل واحد منهم الركض بسرعة قصوى على ظهر حصانه ماسكا عصا يحاول بها لمس القطعة الخشبية بمهارة وبسرعة قدر الإمكان. ثم بعد ذلك أمسك كل واحد منهم عمودا طويلا جدا [زانة] وأخذوا يركضون على ظهور خيولهم الواحد تلو الآخر. وكان على كل واحد إصابة اللوحة دون أن ينكسر العمود (الزان). وقد بدأ العريس اللعبة فأداها ببراعة دون أن ينكسر عموده الذي كان لينا. فارتفعت الأصوات بالتهليل وتم الدق على طبول صغيرة. وتلاه الفرسان الآخرون الذين انكسرت زانات معظمهم. وقد تابع الإمبراطور والإمبراطورة المجاولتين (اللعبتين) من غرفة عبر نافذة كبرى.

وقد غادرت مدينة القسنطينية يوم الثالث والعشرين من شهر يناير 1433 رفقة السيد السفير بنديتو دا فورلي (Benedetto Da Forli) الذي أرسله دوق ميلانو مبعوثا لدى كبير الأتراك كما ذكرت من قبل. ورافقنا في الرحلة أعضاء الوفد المرافق للسفير، من بينهم نبيل يخدم الدوق المذكور

---

[1] ـ المقصود بها جان دارك (Jeanne d'Arc) الفتاة العذراء (pucelle) التي قاومت الاحتلال الأنجليزي لغالة. وقد ألقى عليها القبض أحد أفصال دوق بوركونيا وسلمها للأنجليز الذين حاكموها وأحرقوها حية في أواخر مايو 1431.

يدعى جيوڤاني ڤيسكونتي (Giovanni Visconti) وسبعة رجال آخرين من حراس السفير.

وعبرنا بعد الخروج من المدينة ممرا يقع بالقرب من البحر. كان من الصعب عبوره فيما مضى لأن مياه البحر كانت تغمر حوالي عشرين ميلا منه. وتوجد بهذا الممر قنطرة وبقايا برج قام الأتراك بتدميره. كما تقع بالقرب منه قرية معظم سكانها من اليونانيين. وقيل لي بأن من يريد القدوم الى القسطنطينية عبر البر، عليه المرور من هذا الموضع أو من موضع آخر من خلال عبور نهر يصب في البحر. وهذا الموضع صعب بدوره. وربما أصعب من الموضع الذي مررنا به.

ومن هذا الموضع وصلنا الى مدينة أثيرا (Athyra) [بيوك جكمجة حاليا] التي قام الأتراك بتدميرها بعد أن كانت مدينة مزدهرة. دخلنا اليها عبر ممر صعب لأن مياه البحر كانت تغمر بعض أجزائه. وكان دخولنا عبر قنطرة كبيرة متينة يوجد في كل طرف منها برج جميل صلب. ورغم الدمار الذي تعرضت له المدينة، فما زال عدد من اليونانيين يقيمون بها.

ومنها وصلنا الى مدينة تسمى سلوبرية (Selybrie) [سلورية حاليا (Silivri)]. وتمثل الحد الذي ينتهي اليه مجال سلطة الامبراطور، الذي يمتد من القسطنطينية حتى هذه المدينة. ويوازي امتداد هذا المجال مسيرة يومين من السفر. وقد فشل الأتراك في السيطرة على مدينة سلوبرية رغم أنها غير محمية بما فيه الكفاية من جهة البحر، حيث يوجد مرفأ على الخليج الواقع بين القسطنطينية وكليبولي (Gallipoli).

ومنها واصلنا المسير حتى مدينة تشورلو (Chorlu)، التي يبدو أنها كانت مزدهرة في الماضي. وقد تعرضت للغزو من قبل الأتراك. ولم يعد يقطنها سوى عدد قليل من اليونانيين والأتراك. ومنها وصلنا الى مدينة صغيرة تسمى مسينلي (Misinli)، التي هي في الواقع قلعة أكثر منها مدينة. لا يقطنها سوى اليونانيون، ولكنهم محكومين من قبل حاكم تركي معين من قبل كبير الأتراك. ومنها وصلنا الى مدينة تسمى بيراڤاسي (Piragasi) التي هاجمها الأتراك ودمروا أسوارها. وخلافا للقلعة السالف ذكرها، فإن معظم سكان هذه المدينة هم من الأتراك.

وواصلنا المسير في اتجاه مدينة أدرنة (Andrinople ou Aderne) التي حللنا بها بعد مسيرة دامت ستة أيام منذ انطلاقنا من القسطنطينية. عبرنا خلالها مناطق تسر الناظر تتراوح بين جبال ومنخفضات وهضاب غنية بالموارد باستثناء الخشب لأننا لم نمر بأي فضاء غابوي خلال مسيرتنا رغم وجود عدة أنهار. ولكن تلك المناطق غير مأهولة بكثافة.

وإن مدينة أدرنة التي دخلت اليها رفقة السفير الذي تحدثت عنه ومرافقيه، هي مدينة مزدهرة. وأظن أنها المدينة الأكثر ازدهارا من بين مدن اليونان التي يحكمها كبير الأتراك. وهي بالاضافة الى ذلك فسيحة، تعج بالحركة التجارية ومكتظة بالسكان.

وتقع هذه المدينة على ضفاف نهر كبير يسمى نهر ماريتسا (Maritsa). ويزورها كبير الأتراك من حين لآخر كما يقيم بها أكثر من غيرها. ويرتادها كثير من التجار البندقيين والقطلونيين والجنويين والفلورنسيين. وبها يقيم الوالي اليوناني (البيلرباي) الذي كان قبل تعيينه عبدا في ملكية كبير الأتراك.

ولقد غادرت هذه المدينة رفقة السفير في اتجاه مدينة سيرس (Serrès) التي كان يرغب أن يلتقي فيها بكبير الأتراك. وتقع هذه المدينة في منطقة أبيروس[1] (Épire) بالقرب من المكان الذي وقعت به معركة ثيساليا بين جيشي يوليوس قيصر وبومبيوس الكبير سنة 48 ق. م. وللوصول اليها، عبرنا نهر ماريتسا على متن مركب. ثم وصلنا الى قرية غير بعيدة عن النهر، حيث اتصادفنا مع حوالي خمسين امرأة من حريم كبير الأتراك مرفوقين بحوالي اثنا عشر عبدا من العبيد المخصيين. أقبل علينا اثنان منهما وكلمانا. فقالا لنا بأن كبير الأتراك سيتجه الى أدرنة وأن هؤلاء النسوة ذاهبن الى هناك.

ومن هنا توجهنا الى مدينة ديموتيقة (Didymotique). وهي مدينة مزدهرة يخترقها نهر. ويوجد بها قصر (شاتو) جميل كبير يقع فوق تل فسيح دائري الشكل. ويحيط بهذا القصر سوران لحمايته وحماية حوالي أربعمائة منزل محيطة به. فضلا عن برج، قيل لي بأن كبير الأتراك يستعمله كخزينة يحفظ فيها ودائعه.

وغادرنا هذه المدينة في اتجاه مدينة إبسالا (Ipsala) التي يبدو أنها كانت مدينة كبيرة. ولكنها تعرضت للغزو والدمار. وعبرنا منها مرة أخرى نهر ماريتسا على متن مركب. سار بنا وسط النهر بمحاذاة مستنقعات يصعب فيها على الخيول السير. وقد مر علينا يومان منذ أن غادرنا أدرنة الى هذه المدينة. ثم غادرناها هي الأخرى وتوجهنا نحو مدينة إنيز (Enez) أو أينوز (Aïnos) التي كانت قديما، زمن طروادة، مركزا حضريا مهما يحكمه ملك. أما اليوم، فيحكمها حاكم تابع لكبير الأتراك يدعى دورينو الكتيلوسي (Dorino Gattilusio). وهو جنوي الأصل. وتقع هذه المدينة

---

[1] - تقع في جنوب شرق أوربا وتمتد الى جنوب غرب شبه جزيرة البلقان.

على ضفة نهر ماريتسا الذي ينتهي مجراه بضواحي هذه المدينة. ويبلغ عرضه في مكان مصبه حوالي ميلان.

ويوجد بهذه المدينة ضريح قائم فوق مرتفع، يقال بأن الملك بريام (Priam)، الذي كان يحكم قديما، بعث أحد أبنائه، ويدعى بليدور (Polydore) مبعوثا لدى ملك أينوز محملا بمبلغ كبير من المال وعدد من نفائس. فتزامن وصوله مع الدمار الذي تعرضت له مدينة طروادة، فقام ملك أينوز بقتل المبعوث والاستيلاء على الودائع. وقيل بأنه قام بذلك خوفا من اليونانيين أو طمعا في الثروة المحمولة اليه.

وقد عبرت من هذه المدينة نهر ماريتسا على متن مركب واتجهت غربا نحو مدينة تسمى ماكري (Makri)، التي يبدو أنها كانت كبيرة، مزدهة وآهلة بالسكان. أما اليوم، فلم يتبق منها سوى قسم من حصن يقيم به عدد من اليونانيين والأتراك. وتقع هذه المدينة على ساحل البحر قريبا من جزيرة سمدرك (Samandra ou Samothrace) التابعة لحاكم مدينة أينوز. ومن هنا عبرت جبلا قليل الارتفاع ووصلت الى مدينة كموتيني (Komotini ou Cūmūlcine)، التي هي مدينة صغيرة جميلة محاطة بسور. يخترقها نهر صغير وتحيط بها أراضي خصبة مستوية. وتقع بعيدا عنها قليلا في اتجاه الغرب، سلسلة جبال. ومنها وصلنا الى مدينة موسي (Mussi) [تدعى حاليا كڤلا (Kavalla)]. وهي مدينة صغيرة مدمرة لا يقطنها أحد[1]. ومنها واصلنا المسير حتى وصلنا الى مدينة برافيستا (Pravista) الواقعة على خليج أورفاني (Orfani). وهي مدينة قديمة تغمر المياه ت جزءا منها، يبلغ حوالي ستين ميلا، نظرا لقربها من الخليج المذكور الذي يمتد من جبل آثوس (Athos)، الذي كان فيما مضى موطنا لطوائف من الرهبان. وقد تراجعت أعدادهم كثيرا[2]. ولا يقطنها اليوم سوى عدد قليل من اليونانيين.

---

[1] - استولى ليها الأتراك حوالي سنة 1387. ثم هاجمها البندقيون سنوات قليلة قبيل زيارته لها. فدمروا قلعتها وحصونها وهجرها سكانها. لمزيد من التفاصيل، يمكن العودة لكتاب:

Cécile Morrisson et Angeliki Laiou, Le monde byzantin, Tome III, l'Empire grec et ses voisins (XIIIe-XVe siècle), Paris, P.U.F., 2011, p. 20 et suivantes.

[2] - السفر ما وراء البحر، ص. 176. كانت تنتشر بالجبل عشرون مؤسسة دينية. كانت تأوي ما يزيد عن ثلاثة آلاف راهب. أنظر كتاب:

Adolphe Joann et Emile Isambert, itinéraire de l'Orient, Paris, Hachette, 1861, p. 415.

3) برتراندون دو لا بركيير يتمكن من رؤية السلطان مراد الثاني عن كثب بعد عودته من رحلة قنص واستجمام

واتجهنا من تلك المدينة نحو ياني بزار (Yenipazar) أو أيدين (Aydin). وهي مدينة غير محصنة بناها الأتراك. وقد مكثنا بها يومين في انتظار قدوم كبير الأتراك، الذي كان في رحلة قنص واستجمام رفقة حوالي أربعمائة أوخمسمائة فارس. معظمهم من الصقارين [المكلفين بتربية الصقور المستعملة في القنص] و"البازيين" المكلفين بترية طيور الباز التي يملك منها كبير الأتراك أكثر من ألفي طير كما قيل لي.

وحين دخل الى المدينة، لم يكن برفقته سوى أربعين أو خمسين فارسا. كان الجو ممطرا وقتئذ. وكان يرتدي قباءا أو ما يشبه معطفا ذي لون قرمزي على عادة علية القوم في هذا البلد. وكان يضع على رأسه عمامة لونها أحمر برتقالي شبيهة هي الأخرى بالقبعات التي يرتديها الرجال هنا. وكان يتقدم موكبه إثنا عشر فارسا من حملة الأقواس، كلهم من عبيده. ثم ترجل ودخل خيمة معدة لاقامته. وعلى هذا المنوال يتم الأمر عندما يخرج بعيدا عن المدن التي لا توجد بها مقرات خاصة باقامته. ولذلك يتم تشكيل قافلة مكونة من جمال ودواب أخرى تحمل الخيام والمؤونة التي قد لا تتوفر بسهولة الا في المدن الكبرى.

وقد رأيت كبير الأتراك عن كثب مساء ذلك اليوم، وكان ضوء النهار ما زال مشعا. رأيته متوجها الى الحمام. كان ممتطيا حصانه ولم يكن رفقته سوى ستة رجال يمشون راجلين، لأن الحمام كان قريبا من معسكره. كان يحمل على رأسه نفس العمامة ولكنه كان مرتديا قباءا آخر قرمزي اللون. كان عمره يتراوح بين الثامنة والعشرين والثلاثين[1]. وكان يبدو بدينا نسبيا. وقد سمعته يتحدث الى رجاله. وبدا لي صوته فخما الى حد ما.

وقد تحدث سفير ميلانو الذي كنت رفقته مع أحد رجال كبير الأتراك واستفسره عن امكانية لقائه وتقديم هدية له. فاستشار الرجل مع مولاه ورد على السفير بأن سيدي في رحلة قنص واستجمام، كما أن الباشوات غير موجودين حاليا برفقته. فأشار على السفير بانتظار مقدم أولائك الباشوات أو العودة الى أدرنة حيث يمكنه مقابلته هناك. وهذا فعلا ما قرره السفير.

---

[1] - كان برتراندون دو لا بركيير محقا ودقيق الملاحظة. لأن السلطان مراد الثاني كان يبلغ من العمر حين رآه تسع وعشرين سنة. لأنه ولد سنة 1404.

وقد علمت، ونحن ما زلنا بمدينة باني بزار، بأن كبير الأتراك بعث الى مدينة سيرس (Serrès) عشرة آلاف محارب، من بينهم خمسة آلاف من عبيده لإخضاع انتفاضة قادها بعض الزعماء الألبان[1]. وربما لهذا السبب لم يكن معه عدد كبير من الرجال عند دخوله الى مدينة باني بزار.

وقد رحلنا عن هذه المدينة صبيحة اليوم الموالي عائدين الى مدينة كموسان (Camussin). التي عبرنا للوصول اليها جبلا وعرا تكسوه الأشجار. أفضى بنا هذا الجبل الى سهل فسيح سبق لي أن تحدثت عنه. ويمتد هذا السهل من قدم هذا الجبل حتى مدينة سيرس (Serrès) التي جرت بالقرب منها وقائع حرب تيسالي (théssalie). وقد دامت مسيرتنا في هذا السهل أربع أو خمسة أيام. ثم وصلنا الى مدينة ترايانوبولي (Trajanopolis) التي شيدها امبراطور يدعى ترايان (أو تراخان) (Trajan) الذي يقال بأن إحدى أذنيه كانت تشبه أذن خروف. وهو ابن الامبراطور الذي شيد مدينة أدريانوبل (Hadrianopolis) وقام بأعمال أخرى ما زالت محفورة في الذاكرة. وتقع هذه المدينة على ساحل البحر وكذلك بمحاذاة نهر ماريتسا. كانت مدينة كبيرة مزدهرة، ولكنها تعرضت للغزو والدمار، ولم يعد يقيم بها سوى عدد قليل من السكان. وتوجد بها حمة معدنية، تدعى حمة الماء المقدس. تنبع مياهها من جبل يقع شرق المدينة.

ومن هذه المدينة، اتجهنا نحو مدينة فيراي (Phères) التي يوجد بها حصن جميل تعرض جانب منه للدمار. أفادني أحد اليونانيين بأن ثلاثمائة كاهن كانوا يقيمون به ويرتادون الكنيسة الواقعة به، والتي حولها الأتراك الى مسجد وبنوا حول الحصن مدينة يقيم بها اليوم عدد من الأتراك واليونانيين.

وفي صبيحة اليوم الموالي، حين كنا نستعد لمغادرة هذه المدينة، رأينا بيلرباي روميلي في موكب متجه لملاقاة كبير الأتراك. كان محاطا بحوالي مائة وعشرين فارسا. وقد بدا لي هذا الرجل وسيما، قامته معتدلة. قيل لي بأنه أحد عبيد كبير الأتراك وأصله من بلغاريا. وقد عينه كبير الأتراك حاكما لبلاد اليونان لأنه يحسن احتساء النبيذ ومن بين أحسن المنادمين.

---

[1] - يشير هنا برتراندون دو لا بركيير الى انتفاضة ثانية قام بها الألبانيون سنة 1432 ضد الوجود العثماني. لمزيد من التفاصيل، يمكن العودة لمؤلف:

John Van Antwerp Fine, The Late Medieval Balkans : A Critical Survey from the Late Twelfth Century to the Ottoman Conquest, University of Michigan Press, 15 juin 1994

وسلكنا من هنا طريق العودة نحو ديموتيقة التي تعتبر مدينة كبيرة وجميلة كما ذكرت من قبل. وقد بدت لي جميلة أكثر حين عدت اليها للمرة الثانية. وأعتقد أن كبير الأتراك أحسن الاختيار حين اختارها موضعا لودائعه، لأنها هنا في مأمن. ومن ديموتيقة، عدنا الى أدرنة لانتظار عودة كبير الأتراك اليها. وقد مكثنا بها إحدى عشر يوما. وعاد اليها في اليوم الثاني عشر، الذي تصادف مع أول أيام رمضان[1].

وقد هب لاستقباله وفد كبير يضم أعيان المدينة ويتقدمه المفتي الأكبر[2] الذي هو كالبابا عندنا. واستقبلوا كبير الأتراك في الطريق عند مدخل المدينة، حيث توقف لتناول الطعام، وخاصة لشرب الماء. ولم يدخل المدينة الا بعد سقوط الظلام. فانصرف معظم الذين أتوا لاستقباله.

وقد حدثني عنه بعض الذين ترددوا على بلاطه منذ أن اعتلى سدة الحكم وذكروا لي بعض خصاله. وبدا لي كما رأيته في المرة الأولى رجلا بدينا، قصير القامة، عريض الوجه بما ينسجم مع فيزيونومية التاتار. له أنف طويل نسبيا ومعقوف، وعينان ضيقتان. بشرة وجهه شديدة السمرة. خداه كبيران نسبيا، وتكسو وجهه لحية مستديرة الشكل.

وقد قيل لي بأنه وديع ومعطاء. يهب الاقطاعات والأموال بسخاء. كما قيل لي بأنه يمقت الحرب بشدة. وأعتقد أن هذا الأمر صحيح. فلو أراد اسخدام القوة وتسخير ما يتوفر عليه من موارد، لاستطاع السيطرة على أكبر قسم من العالم المسيحي بالنظر لضعف مقاومة المسيحيين.

وقيل لي بأن دخله يبلغ حوالي مليونين ونصف دوقة كل سنة. تتوزع بين مردود داخلي وجبايات، تقدر بحوالي خمسة وعشرين ألف دوقة. كما قيل لي كذلك بأنه يستطيع استنفار فيلق عسكري قوامه مائة وعشرين ألف رجل في بلاد اليونان وحدها. من بينهم أربع أو خمسة آلاف من عبيده الذين يعيشون على نفقته الخاصة. ولكنهم غير مسلحين بما فيه الكفاية. فمن يتوفر منهم على قوس لا يتوفر على سيف.

وقيل لي كذلك بأنه إذا أراد استنفار جيش، فإن ذلك لا يكلفه شيئا. بل يستطيع الحصول على مردود من وراء العملية. إذ إذا استنفر رجالا من

---

[1] - تصادف مع يوم 25 فبراير 1433.

[2] - كان يتولى هذا المنصب آنذاك الشيخ فخر الدين العجمي الذي خلف محمد بن حمزة شمس الدين فناري الذي توفي في مارس 1431 / رجب 835 هجرية. أنظر عنه كتاب الشقائق النعانية في علماء الدولة العثمانية لأبي الخير أحمد بن مصطفى بن خليل المتوفى سنة 968 هجرية، دون ذكر اسم المحقق، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، 1975، ص. 38.

تركيا للقدوم الى اليونان، لا يقدم لهم شيئا. بل هم الذين يدفعون في كَليبولي (Gallipoli) ضريبة العبور التي تقدر بخمسة أقجات (aspres) عن كل حصان وثلاث أقجات عن كل رجل. وإذا ما شنوا غارة وسقط بين أيديهم عبيد [أي الأسرى الذين يتحولون الى مغنم]، فيكون من نصيب كل واحد منهم عبد واحد عن كل خمسة عبيد. وإذا ما عبروا نهر الدانوب، فإنهم يؤدون كذلك ضريبة العبور (أو المرور). وقد قيل لي بأن اليونانيين مجبرين على استنفار ثلاثين ألف رجل من رجالهم كل سنة ووضعهم رهن إشارة كبير الأتراك ليوجههم حيثما أراد. وهنا يتجلى جانب من قوته وسلطته، لأن رجاله يتألفون من خيرة هؤلاء الرجال.

وفضلا عن ذلك، فإن الأتراك مجبرين بدورهم على استنفار عشرة آلاف رجل. ولا يقدم لهم شيئا غير المؤونة. وقد قدم لبعض الأعيان اقطاعات، يمكنه استردادها متى شاء. وهؤلاء المستفيدين ملزمين بخدمته ووضع عدد معين من الرجال رهن إشارته. وعلى هذا الأساس، فإنه لا ينفق شيئا حين يريد استنفار جيش. أما المحاربون المحيطون به، والذين يتألفون من خمسة آلاف رجل بين فارس وراجل، فلا يقدم لهم شيئا غير راتبهم.

ومن بين خدامه، أربعة رجال يسمون بالباشوات أو الوزراء الباشوات. لا أحد يستطيع مخاطبة كبير الأتراك الا بواسطتهم. ولهم كامل الصلاحية للتكفل به وببلاطه. أما حاكم اليونان، فإنه مكلف بأناس آخرين وبما له صلة بالحرب.

وقد سمعت من بعض الناس ورأيت بأم عيني، بأن كبير الأتراك يجد متعة كبيرة في القنص، وخاصة في قنص الطيور (كالحجل مثلا). ويملك لهذا الغرض، كما قيل لي، أزيد من ألف كلب وأزيد من ألفي طير. وقد رأيت بعضها.

ويجد متعة في احتساء النبيذ. ويحب من يجيد احتساءه[1]. وقد قيل لي بأنه يحتسي، بكل سهولة، ما بين عشرة وإثنا عشر قدحا من تلك التي يستعملونها عندهم لهذا الغرض. وهو ما يعادل ستة أو سبعة كارتات (quartes)[2]. وحين يشرب جيدا يهب ويعطي بسخاء. وإن الرجال المحيطين به جد راضين لهذا الأمر لأنه يقدم لهم العطايا والهبات. وقد قيل لي بأن رجلا قدم

---

[1] - من المفيد الإشارة الى أن هذه الملاحظة على جانب من الأهمية لأنها تحيل الى مسألة "طقوس المعاقرة وآداب المنادمة" التي أثارها بعض شعراء العصر العباسي في كثير من القصائد.

[2] - مفردها كارت (une quarte). وهي وحدة لقياس السوائل كالخمور والزيوت. وتعادل قرابة ليتر.

خلال السنة الماضية من بلاد المغرب وعاتبه على شرب الخمر. وقال له بأن من يفعلون ذلك يخالفون شريعة النبي وليسوا مسلمين حقيقيين، فغضب منه وأمر بوضعه في الحبس ومنعه من العودة مرة أخرى الى البلاد. وبالاضافة الى احتساء النبيذ، يجد متعة في مضاجعة النساء والغلمان. وله من الحريم أزيد من ثلاثمائة إمرأة وما بين خمسة وعشرين وثلاثين غلاما. وهؤلاء يوجدون بالقرب منه في معظم الأحيان أكثر من حريمه. وحين يصبح الواحد منهم كهلا يقدم له هبة ويمنحه إقطاعا. وقد قدم لأحدهم أخته كزوجة وخمسة وعشرين ألف دوقة كمنحة سنوية.

وحين يريد استنفار جيش من رجال اليونان قوامه ثلاثين ألف فرد، فإن الأعيان المستفيدين من إقطاعات هناك، كما ذكرت سابقا، ملزمين بوضع أنفسهم رهن إشارته كلما دعاهم. وعلى غرارهم، فإن المستفيدين من إقطاعات في تركيا، ملزمين باستنفار عشرين ألف رجل. وفضلا عن ذلك، تنضاف لهذه الأعداد أعداد أخرى من العبيد الخاضعين له مباشرة.

وهو حاكم يطيعه أهل بلده مثلما يطيعه رجاله الذين يقومون بما أمرهم القيام به دون اعتراض أو مناقشة. وقد يحدث أن يصدر أمره بتنفيذ عقوبات قاسية. وهو يوفر الأمن في بلده. كما أنه لا يستخلص الضرائب والمكوس من الأتراك عن طريق العنف والشطط.

وقد أخبرني واحد من العارفين بشؤون البلد، بأن كبير الأتراك قادر، إذا عول على جمع جيش ضخم، من استنفار مائة وعشرين ألف رجل من اليونان. من بينهم ستون ألف يمكن أن يكونوا مسلحين بشكل جيد وهم الفرسان المتوفرون على جعب نبال وسيوف. والمتبقون، هم عبارة عن رجالة غير مسلحين بشكل جيد. لأن من يتوفر منهم على سيف ليس له قوس. بل إن عددا لا يستهان به منهم، لا يتوفرون سوى على عصي. وإن نصف عدد رجال تركيا هم من هؤلاء. ورغم ذلك، فهم مستحسنين أكثر من رجال اليونان. ويتم الاحتراس منهم أكثر من غيرهم.

وإن آخر جيش تم استنفاره في اليونان لاخماد انتفاضة اندلعت في ألبانيا، كان معظم أفراده من المسيحيين. بمعنى أن كبير الأتراك إذا طلب الإمداد من مستبد صربيا[1]، يبعث له هذا الأخير ثلاثة آلاف فارس صربي تحت إمرة إبنه. فضلا عن عدد آخر من رجال ألبانيا وبلغاريا الذين هم

---

[1] - يقصد برتراندون دو لا بركيير هنا جورج برانكوفيتش (Georges Brankovic) الذي حكم صربيا بين سنتي 1427 و1441 ثم بين سنة 1443 حتى وفاته سنة 1456.

مسيحيين، ورغم ذلك لا يستطيعون عصيان الأوامر. بل هناك عدد من المسيحيين أصبحوا عبيدا يستنفرون في مختلف الحروب.

وقد قيل لي إذا أراد كبير الأتراك استنفار جيش في تركيا، فإن ثلاثين ألف رجل مجبرين على الاستعداد ليكونوا تحت إمرته. أما في اليونان، فيكون عدد المستنفرين عشرين ألف. بالإضافة الى العبيد الخاصين له الذين يتراوح عددهم بين ألفين وثلاثة آلاف رجل مسلحين بشكل جيد.

وقد أفادني رجال آخرون بأن مالية (ثروة) كبير الأتراك تقدر بمليون دوقة. بينما قال لي آخرون، بأنها لا تتعدى نصف مليون دوقة. ويعد العبيد وحلي ومجوهرات الحريم من بين مكونات ماليته (أو ثروته). وتقدر قيمتهم بحوالي مليون. فضلا عن الأواني النفيسة. وإذا ما أراد الامتناع عن العطاء خلال سنة، يستطيع توفير مبلغ مالي قدره مليون دوقة...

4) برتراندون دو لا بركيير يتمكن من دخول بلاط أدرنة ورؤية السلطان مراد الثاني على أريكة الحكم

... وقد حل كبير الأتراك بأدرنة بعد مقدم الباشوات ومعظم خدام الدولة وجميع المتاع والدواب. وأذكر بالمناسبة أن عدد جماله حوالي مائة بالإضافة الى مائتين وخمسين دابة من بغال وخيول، لأن الأتراك لا يستعملون العربات المجرورة.

وحين قدم الباشوات، أراد سفير دوق ميلانو مقابلتهم، ولكنهم امتنعوا لأنهم كانوا بمعية كبير الأتراك الذي كان في حالة سكر طافح. وفي اليوم الموالي، أرسلوا مبعوثا لمرافقة السفير لمقابلتهم. فذهبت بمعيته. وقد قدم هدية لكل واحد منهم كما هي العادة هنا. لأن لا أحد يستطيع مقابلتهم دون أن يقدم هدية لكل واحد منهم وكذلك للعبيد الذين يقفون على أبوابهم. وفي اليوم الموالي لتلك المقابلة، بعثوا رسولا الى السفير أخبره بالاستعداد لمقابلة كبير الاتراك وإعداد الهدية التي سيقدمها له، لأن لا أحد من الأجانب يستطيع مقابلته دون تقديم هدية. وفي الزوال أرسل الباشوات فعلا مبعوثين لمرافقة السفير. ووضعوا حصانا رهن اشارته، أما أعضاء الوفد المرافق له وأنا أيضا، فتبعناه راجلين.

وعند وصولنا الى مدخل البلاط، وجدنا عددا كبيرا من الناس ومن الخيول. فولجنا الباب الأول الذي كان يقف بجواره ما يناهز عشرين أو ثلاثين عبدا يمسك كل واحد منهم بعصا ولا يأذنون بالدخول الا لمن له ترخيص بذلك. وبعد دخول السفير أجلسوه خلف الباب في بهو كان به عدد

كبير من الناس في انتظار خروج السلطان من غرفته وفق بروتوكول معمول به هنا ويتم تطبيقه كل يوم. وهو بروتوكول شبيه بما يتم العمل به في البلاط الفرنسي رغم بعض الاختلافات.

وعندما كان الباشوات الثلاث وحاكم اليونان والخدام الآخرون حاضرين، خرج كبير الأتراك من غرفته محاطا بغلمانه. فعبر بهوا وتوجه الى ساحة فسيحة كان يوجد بها حاكم اليونان. كان كبير الأتراك مرتديا قباءا من حرير مطرز. لونه أحمر بنفسجي على عادتهم.

وذهب للجلوس في منصة مكسوة بثوب ومرتفعة عن سطح الأرض بأربعة أو خمسة أدراج معدة في رواق من تلك الساحة. عندها التحق به الباشوات الذين كانوا بالقرب من الرواق. وبعد ذلك التحق الخدام بالأمكنة الخاصة بهم في ذلك الرواق.

وبعد التحاق كل واحد بالمكان الخاص به، أدخل الخدام أحد أعيان البوسنة، الذي قدم الى أدرنة لتقديم الولاء لكبير الأتراك وإعلان تبعية مملكته له. فقاده الخدام الى الرواق وأجلسوه بالقرب من الباشوات. وقد علمت بأنه قدم لطلب العون من كبير الأتراك ضد الملك الذي كان يحكم آنذاك مملكة البوسنة مدعيا أنه اغتصب منه السلطة[1]. ثم جيء بعد ذلك بحوالي عشرين نبيلا من نبلاء ڤـلاّشيا (أو الأفلاق) (la Valachie) مثلوا بين يدي كبير الأتراك. وكانوا، فيما علمت، رهائن لديه. وبعد ذلك أعطي الإذن للسفير للمثول بين يديه. وبموازاة ذلك، قام بعض الأعوان برفع الهدايا التي أتى بها لكي يتمكن كبير الأتراك من رؤيتها. فتقدم السفير خلف أحد الخدام في اتجاه المنصة التي كان يجلس عليها كبير الأتراك. وحين اقترب

---

[1] ـ لم يفصح برتراندون دو لا بركيير عن هوية هنا الشخص، ولكن بعض الدراسات تفيد بأن الأمر يتعلق براديڤوج أوستوجيش (Radivoj Ostijić) الإبن البكر لملك البوسنة اتيين أوستويا (Étienne-Ostoïa) الذي لم يستطع ممارسة السلطة بعد وفاة أبيه سنة 1418. فظل معارضا وتلقى الدعم من "مستبد صربيا" دوراد برانكوڤيتش (Đurađ Branković) وبعض نبلاء البوسنة. وتوجه الى أدرنة لطلب العون والمساندة من السلطان مراد الثاني لاسترداد حكم المملكة مقابل التبعية للعثمانيين.

أنظر في هذا الشان ما ورد عنه بالأنجليزية في وكيبيديا الموسوعة الحرة وانظر كذلك مداخلة الباحث الصربي Boris Stojkovski الموسومة ب:

"Bertrandon de la Broquiere on Byzantium and Serbia. Richness and decline in the age of the Ottoman conquest of the Balkans ″

وقد وردت المداخلة ضمن مؤلف جماعي تحت عنوان:

Byzanz und das Abendland V. Studia Byzantino-Occidentalia, Eötvös-József-Collegium, Budapest 2018. pp. 175-187.

منها انحنى لتقديم التحية دون إزالة القبعة التي كان يضعها على رأسه. ثم تقدم قليلا نحو درج المنصة. فنهض كبير الأتراك ومد يده للسفير الذي أراد تقبيلها. ولكن كبير الأتراك امتنع صونا لكرامة دوق ميلانو. فسأله كبير الأتراك كيف حال أخينا وجارنا دوق ميلانو. فأجابه السفير بأنه بخير. وبما أن كبير الأتراك لم يفهم جيدا ما فاه به السفير، فقد شرع أحد الخدام اليهود في ترجمة جواب السفير. فتراجع السفير قليلا الى الخلف وظل قبالة كبير الأتراك. فأتى خادم وقاده الى الرواق، حيث جلس بالقرب من سيد البوسنة. فعاد كبير الأتراك الى الخلف وجلس مكانه على المنصة. ثم جلس على البساط جميع من كان واقفا. وأتى الخادم، وقاد جميع الوافدين مع السفير وأجلسنا بالقرب من أعضاء وفد البوسنة.

وبمجرد أن جلس كبير الأتراك، أتى بعض الأعوان وبسطوا أمامه بساطا مستديرا من الجلد لونه أحمر وضعوا عليه منديلا من حرير لمسح يديه. ثم أتوا بصحنين مليئين بقطع من اللحم وضعوهما فوق البساط. بينما شرع خدام آخرون في وضع صحون كبيرة في الرواق وأجلسوا حول كل واحد منها أربعة أشخاص. كان كل واحد من تلك الصحون مليئا بارز شديد البياض فوقه قطعة كبيرة من لحم الخروف. ولكن الأكل لم يكن مرفوقا بخبز أو بأي نوع من المشروبات. وهناك من الحاضرين من تناول قليلا من ذلك الطعام، بينما لم يتناوله آخرون. وقد لاحظت بأن ما يشبه المقصف كان معدا في جانب من تلك الساحة وكان حوله أناس يشربون. لا أدري ما إذا كانوا يشربون خمرا أو ماءا. بينما كانت بالقرب منه فرقة من العازفين تعزف على آلات وترية كبيرة وتردد أغاني. قيل لي بأنها تمجد الأتراك وتتغنى بإنجازاتهم. ولكن سرعان ما شرع الأعوان في سحب الصحون لأن كبير الأتراك لم يتناول شيئا من الطعام الذي قدم له. لأنه لا يتناول وجباته اليومية في محفل عام، بل في جلسة خاصة. وبعد ذلك شرع الحاضرون في الانصراف. فانصرف السفير بدوره الى مقر إقامته.

وفي اليوم الموالي أتاه مجددا ذلك الخادم الذي قاده الى البلاط وقدم له مبلغا ماليا قدره مائتي أقجة. وقد جرت العادة بأن يبعث كبير الأتراك قدرا من المال لأي سفير لسد حاجياته منذ يوم مقابلته له حتى يوم توصله بجواب ينصرف بعده الى بلاده. وفي اليوم الموالي أتى عبد ممثلا للعبيد االذين يقفون على باب البلاط لأخذ مبلغ مالي من السفير كما جرى العمل بذلك. وبلغني أنه لم يتسلم سوى مبلغا زهيدا.

وفي اليوم الثالث بعد مقابلة السفير لكبير الأتراك، أتى خادم أخبر السفير بضرورة التوجه الى البلاط لكي يتم الاستماع لما جاء من أجله. فتوجه

السفير الى البلاط وتبعته. وعند وصولنا كان كبير الأتراك قد انتهى من عقد مثل تلك الجلسة التي حضرناها في المرة السابقة وانسحب الى جناحه الخاص. فاستقبل السفير من قبل الباشوات والبرلرباي، حاكم اليونان، واستمعوا لما قدم من أجله. فأجابوه بأنهم لا يستطيعون الآن تبليغ ما قاله لسلطانهم لأنه مشغول. وقد جرت العادة ألا يخصص استقبالا خاصا مباشرا لسفراء الدول منذ أن اغتال سفير صربيا أحد السلاطين[1].

وقد قيل لي بأن المهمة التي قدم من أجلها السفير تتمثل في مقترح تقدم به دوق ميلانو، بحكم صداقته مع كبير الأتراك، يقضي بأن يتنازل هذا الأخير للامبراطور سيجيسموند عن حكم مملكة هنغاريا وقلآشيا وبلغاريا ومملكة البوسنة وألبانيا. فأخبره الباشوات بأنهم سيحيلون مقترحه على السلطان ويوافونه بالرد في غضون عشرة أيام.

وحين عدنا الى البلاط بعد انصرام عشرة أيام رأينا كبير الأتراك جالسا على المنصة كما رأيناه حين دخلنا البلاط أول مرة. ولم يكن بالرواق غيره وبعض خدامه. أما الباشوات فكانوا بعيدين عنه. ولم يكن بالبهو سوى عدد قليل من الحضور. كما لم يكن به مقصف ولا فرقة عازفين كما كان الأمر في المرة الأولى. ولم يكن به سيد البوسنة ولا وفد الفلاشيين. ولكن كان به أحد إخوة قمط سيفالونيا (la Céphalonie) ايمانويل طوكو (Emmanuel Tocco). ورأيت كبير الأتراك يرفع الجلسة ثم توجه سريعا نحو الجناح الخاص به. كان مرتديا قباءا أخضر مطرزا بالذهب. وحين انصرف شرع كبير القضاة وأعوانه في الاستماع لشكاوى المتظلمين. وقد رأيت من بينهم بعض المسيحيين.

واستدعى الباشوات السفير للتو الى مكان من الرواق كما فعلوا في المرة السابقة وقالوا له يريدك السلطان أن تبلغ تحياته لأخيه دوق ميلانو. وإنه يرغب أن يقدم له الشيء الكثير. ولكن المقترح الذي تفضل به غير منطقي. ولا شك أنه يدرك بأن السلطان كان بإمكانه اكتساح مملكة هنغاريا، ولكنه تحاشى القيام بذلك مراعاة للصداقة التي تربطه بدوق ميلانو. وإنه من الصعب أن يتنازل عن الأراضي التي سيطر عليها بحد السيف. والحال أن السلطان ورجاله لا يتوفر لديهم، في الوقت الراهن، مجال ترابي آخر يمكن أن يوسعوا فيه دولتهم سوى الأراضي التي كانت تحت سلطة هذا

---

[1] - يشير برتراندون دو لا بركيير هنا الى واقعة النبيل الصربي ميلوس أبيليك (Milos Obilic) الذي مثل بين يدي السلطان مراد الأول، مدعيا رغبته في التحدث اليه، وقام بطعنه.

الامبراطور، الذي لم يصمد أمام السلطان ولا أمام من سبقه. وكان يلوذ بالفرار عند كل مواجهة. واكتفى السفير بالاستماع الى هذه الرد دون تعقيب.

وقال لي عقب ذلك اللقاء، بأن آخر هزيمة تلقاها الامبراطور سجسموند على يد كبير الأتراك حصلت في بلدة كُولوباك (Golubac)[2]. وهي الوقعة التي لقي فيها الفارس البولندي الشهير زويسزا سَزارني (Zawisza Czarny) حتفه رفقة ستة آلاف محارب من الفلاشيين. وقد حدثني بتفصيل عن الوقعة وكيف أن الدوق جيوڤاني ڤيسكونتي (Giovanni Visconti) كان على علم بمقدم الأتراك وكيف أنه تباحث مع البلغاريين واقترح عليهم وضع بلغاريا تحت سلطة الامبراطور وقتل جميع الأتراك الموجودين بها. ولكن الامبراطور رفض المقترح. وأخبرني بأن فرسانا أتراك تمكنوا من الفارس زويسزا وقطعوا رأسه رفقة ثلاثة فرسان آخرين. وتم نقل جثته الى كبير الأتراك بعد حشوها بالتبن. وذكر لي السفير بأن أمورا أخرى حدثت لا داعي لذكرها. كما أخبرني بأنه التقى خلال تلك الوقعة بمحاربين جنويين من رماة النبال وحدثاه عن الصعوبات التي لاقاها الامبراطور وجيشه عند عبور نهر الدانوب.

وقد أتيحت لي وأنا مقيم بأدرنة فرصة رؤية الهدية التي خص بها كبير الأتراك ابنة البيرلباي حاكم اليونان بمناسبة عقد قرانها. كانت تحمل تلك الهدية زوجة أحد الباشوات. وكانت مرفوقة بحوالي ثلاثين امرأة أو أكثر يرتدين ألبسة فاخرة من الفراء. كان بعضهن يضعن فوق أكتافهن ايزارات مطرزة بالذهب. وفوق وجوههن نقابات من ثوب رقيق مثبتة بها أحجار نفيسة كما هي عادة النساء في هذا البلد. وقد رأيتهن ذاهبات في موكب كما يفعل الملوك ممتطيات خيولا كما يفعل الرجال وأمامهن اثنا عشر أو أربعة عشر فارسا وخادمين وعدد من الموسيقيين بعضهم ينفخون في مزامير وآخر يقرع طبلا كبيرا. كانوا كلهم يمتطون خيولا ويحدثون أصواتا قوية.

كان الموكب يسير خلف الهدية التي كانت متبوعة بحوالي سبعين طافورا من نحاس تحتوي على حلويات ومواد متنوعة، بالإضافة الى ثمانية عشر طافورا يحتوي كل واحد منها على خروف مشوي.

وقد رأيت في أحد الأيام كذلك مجموعة مسيحيين مصفدين يقودهم بعض الرجال الى سوق النخاسة. وكان مشهدا مثيرا للحزن لمن يحس بما كان يعانيه أولائك الأسرى.

---

[2] - حصلت تلك الهزيمة في شهر مايو 1428.

سادسا: المرحلة الصربية – البلغارية: برتراندون دو لا بركيير يتأمل في أوضاع مسيحيي وسط أوربا ويقدم مقترحا لتخليصهم من قبضة الأتراك العثمانيين

غادرت أدرنة في اليوم الثاني عشر من شهر مارس رفقة السفير الذي وضع كبير الأتراك عبدا رهن إشارته لمرافقتنا حتى مخرج المدينة. وقد سرنا طيلة يوم كامل على طول نهر مريتسا في منطقة خلابة. فعبرنا النهر على متن زورق ثم سرنا طوال يوم في منطقة غابوية تقع في بلاد اليونان. دخلنا بعدها الى منطقة مقدونيا.

وقد سرت في منطقة سهلية جميلة تقع بين جبلين ويخترقها نهر مريتسا الذي يصل عرضه في هذه المنطقة حوالي أربعين ميلا. ورأيت في طريقي خمسة عشر رجلا مكبلين بسلاسل موضوعة على أعناقهم وبمعيتهم عشر أسيرات يقودهم تركيان نحو أدرنة لبيعهم في سوق النخاسة.

ووصلت الى فليبوبوليس (Philippopolis) [بلوڤديڤ حاليا (Plovdiv)] عاصمة مقدونيا. وهي مدينة تقع في المنطقة السهلية التي أشرت اليها ويخترقها نهر مريتسا الذي يتم عبوره على قنطرة. وهي مدينة مزدهرة بحكم وقوعها في منطقة خصبة تجود بجميع أنواع المنتوجات والثمار الرخيصة. وقد كانت قديما مدينة كبيرة ويبدو أنها ما زالت كذلك. كان يوجد بها حصن جميل مشيد على جبل يقع وسط السهل يشبه شكله هلالا الى حد ما، لكونه طويل وضيق من الجانبين. كانت تتوسطه إقامة الملك فليب المقدوني التي دلني أحدهم على موقعها. ولكن جميع الإقامات والمنازل، تهدمت وكذلك الحصن ولم تبق سوى الأسوار. ويوجد جبلان آخران بمحاذاة المدينة في اتجاه الجنوب وهما أكبران نسبيا من الجبل الذي كان يقع فوقه الحصن الذي تحدثت عنه. وتنتشر منازل كثيرة عند قدم الجبلين. والمدينة في حد ذاتها مكتظة بالسكان البلغار الذين يمارسون الشعائر وفق المذهب الأرثوذوكسي اليوناني.

وحين غادرت مدينة فليبوبوليس، عبرت نهر مريتسا فوق قنطرة وسرت كذلك عبر تلك المنطقة السهلية مدة يوم كامل حتى وصلت الى جبل توجد بمحاذاته قرية قضيت بها الليلة.

تقع تلك القرية عند مدخل منطقة غابوية يصعب السير بها ليلا مخافة اللصوص وقطاع الطرق. وقد أصدر كبير الأتراك مرسوما يقضي بمنح الحرية لكل من أتى الى هذه المنطقة وعمرها. ولكن لا توجد بها سوى قريتان يعمرهما البلغاريون. تقع احداهما في منطقة التماس بين مقدونيا

وبلغاريا قرب الجبل الذي أشرت اليه. وهو جبل يمتد على طول ستة عشر أو عشرين ميلا ولكن يمكن عبوره بسهولة.

وفي اليوم الموالي، عبرت ذلك الجبل وسرت في منطقة سهلية طولها حوالي ستة أميال وعرضها ميلان. ثم دخلت منطقة غابوية طولها حوالي أربعة عشر أو خمسة عشر ميلا. وسرت بعدها في منطقة سهلية تروق الناظر تقع بين جبلين مرتفعين ويمتد بمحاذاتها نهر سرت على ضفته مسافة طويلة. ورغم جمال المنطقة، فلا يقطن بها سوى عدد قليل من السكان البلغاريين.

ووصلت بعد ثلاثة أيام من مغادرة مدينة فليبوبوليس الى أكبر مدينة تقع في بلغاريا وتسمى صوفيا (Sofia) التي كانت قديما مدينة كبيرة كما يتضح من خلال بقايا الأسوارالتي كانت تحيط بها[1]. يوجد بالمدينة حصن صغير يقع فوق جبل في اتجاه الجنوب. تقع المدينة في منطقة سهلية طولها حوالي ستين ميلا وعرضها حوالي عشرة أميال. ومعظم قاطنيها من البلغاريين بما في ذلك القرى الواقعة في محيطها. ولا يقيم بها سوى عدد قليل من الأتراك. ولذلك، فان معظم سكانها يتوقون للحرية لو وجدوا من يعينهم على ذلك.

وقد رأيت في طريقي الى صوفيا كتيبة من الأتراك عائدين بعد القيام بغارة في هنغاريا. كما صادفت رجلا من جنوة يدعى نيكولا سيبا (Nicolas Ciba) أخبرني بأنه رآهم عائدين بعد عبورهم نهر الدانوب. وقال لي كذلك أنه رأى من بين كل عشرة أفراد من الكتيبة، واحدا فقط يحمل قوسا وسيفا. وقد لاحظت بدوري بأن معظم أفراد الكتيبة لا يملكون أقواسا، بل سيوفا فقط. وإن أحسن المسلحين من بينهم، كانوا يتوفرون على ترس (أو طرج) (une targe) صغير من خشب[2]. وقد بدا لي محزنا حقا كيف أن مثل هذا الشعب تمكن من فرض وجوده على المسيحيين، مع أن عدد الأفراد الذين يؤلفونه قليل ومنجزاتهم كذلك.

وعند مغادرة مدينة صوفيا سرت عبر المنطقة السهلية التي تحدثت عنها والممتدة على طول حوالي خمسين ميلا. وهي منطقة آهلة بالسكان البلغاريين. ثم سرت بعد ذلك في منطقة جبلية جميلة يسهل السير بها على ظهر الحصان أفضت بي الى منطقة سهلية أخرى تقع بها مدينة بيروت

---

[1] - تعرضت تلك الأسوار للدمار حين شن العثمانيون غزوا كاسحا للمدينة سنة 1382.

[2] - أداة يستعملها المحارب للاتقاء من ضربات الخصم. وهي دائرية الشكل قطرها أربعون سنتمترا. أصبح المحاربون في أوربا يستعملونها ابتداء من مطلع القرن الخامس عشر. وقد حلت محل الترس (l'écu) الكبير الحجم الذي كان يستعمل منذ القدم.

(Pirot) التي يخترقها نهر نيسافا (أو تيسا) (Tisza). وهي مدينة غير محصنة بأسوار، ولكن يوجد بأحد جوانبها حصن يقع بين النهر ومستنقع كبير. وهي مدينة صغيرة المساحة غير ممتدة تقع بالقرب من جبل ولا يقطنها سوى عدد قليل من الأتراك.

وعند مغادرة مدينة بيروت، عبرت بعض الجبال ورجعت أدراجي نحو النهر الذي يجري بين جبلين مرتفعين. تقع في قدم أحدهما مدينة تعرضت للخراب وتم تدمير أسوارها. وقد سرت مدة قليلة عبر هذه المنطقة المنبسطة على ضفة النهر ثم عبرت جبل مرتفعا لاقيت صعوبة في عبوره. ثم سرت عبر منطقة جميلة منحدرة نسبيا تقع بين الجبال ويجري بها نهر نيشاڤا (Nišava) الذي تقع عليه مدينة نيش (Niš) التي كان يحكمها مستبد صربيا قبل خمس سنوات. ولكن كبير الأتراك استطاع السيطرة عليها بعد تدميرها. وتقع هذه المدينة في منطقة خصبة ينمو بها الأرز بكميات وافرة. وقد كان يوجد بهذه المدينة قديما حصن جميل يخترقه النهر.

وبعد مغادرة مدينة نيش، سرت على ظهرحصاني مسافة في منطقة جميلة على ضفة النهر. ثم عبرت ذلك النهر على متن زورق. فوجدت نفسي مرة أخرى في منطقة جميلة منبسطة تنتشر بها عدة قرى. ثم غادرت هذه المنطقة وقطعت مسافة في منطقة متضرسة تكسوها أشجار كثيفة. وصلت بعد عبورها الى مدينة تدعى كروشيڤاس (Kreuševac). وقد حللت بها بعد انصرام عشرة أيام منذ مغادرتي أدرنة. وتقع مدينة كروشيڤاس على بعد ميل من نهر موراڤا (Morava) الذي ينبع من البوسنة ويفصل بين بلغاريا وبين إمارة راسكا (la Rascie) أو صربيا (la Serbie) ويطلق الاسمان على نفس الامارة.

وأشير بالمناسبة الى أن مدينة كروشيڤاس تعرضت للغزو من قبل الأتراك قبل ست سنوات[1]. ورغم كونها مدينة صغيرة، فهي محصنة بسور مزدوج. وكان يوجد بها حصن صغيرتعرض بدوره للدمار. وتمثل المدينة قاعدة ثغر يشرف على ادارته القائد سنان باي. وهو ثغر شاسع المساحة يمتد

---

[1] - سيطر العثمانيون على هذه المدينة في عهد مراد الثاني سنة 1426، أي خمس سنوات تقريبا قبيل مرور برتراندون بها. وظلت تابعة لهم حتى سنة 1444 حيث استعادها ملك صربيا دوراد برانكوڤيتش. ثم استردها العثمانيون عشر سنوات بعد ذلك.

وللوقوف على حيثيات المراحل الأولى من مراحل توسع الأتراك العثمانيين في هذه المنطقة، يمكن العودة لمقال رادوڤان سمردزيك (Radovan Samardzic):

"Le destin d'un peuple: les Serbes du XIVe au XIXe siècle", Revue des Études slaves, no 56, 1984, pp. 345-361.

من قلاشيا حتى سلاڤونيا. وقد عاينت بهذه المدينة مشهدا مؤلما بطلته سيدة جميلة تنحدر من أسرة هنغارية نبيلة سباها محارب هنغاري مرتد على إثر غارة في بعض مناطق هنغاريا. وكان يسوقها الى سوق النخاسة وهي تبكي بحرقة.

وقد قيل لي بأن حاكم الثغر سنان باي من أصل يوناني. وهو رجل حكيم لا يحتسي الخمر كما يفعل الآخرون. وقد عهد له كبير الأتراك بحكم هذا الثغر. وهو لا يترك أحدا يعبر النهر الا إذا كان معروفا أو يتوفر على رسالة [رخصة] من كبير الأتراك أو من حاكم اليونان إذا كان كبير الأتراك غائبا. وقيل لي بأن هذا الحاكم مطاع مهاب الجانب وشجاع في الوقت ذاته.

وعبرت بعد مغادرة كروشيڤاس نهر موراڤا على متن زورق ثم دخلت الى الأراضي التي يحكمها مستبد[1] راسكا (صربيا) جورج برانكوڤيتش (Georges Brankovic)، أما الأراضي الواقعة ما وراء النهر، فهي خاضعة للأتراك. ويدفع هذا المستبد جزية سنوية لكبير الأتراك قدرها خمسون ألف دوقة نظير حكمه لهذه الأراضي. وبعد عبور النهر سرت في منطقة جميلة آهلة بالسكان. وقد مررت بمحاذاة حصن يسمى حصن ستالاك (Stalac) الذي كان فيما مضى معلمة جميلة محصنة جيدا. ويقع هذا الحصن على قمة جبل. لاحظت بأن أجزاء من أسواره ما زالت ماثلة للعيان. وتقع بالقرب من الحصن منشأة دائرية تشبه البرج. وباستثناء هاتين المنشأتين، تعرضت كل المنشآت الأخرى للدمار. وقد كانت فيما مضى تحت سلطة المستبد.

وتوجد عند قدم الجبل المشار اليه، على مجرى النهر، حوالي ثمانون أو مائة قطعة عائمة راسية على ضفة النهر يستعملها كبير الأتراك كمراكب يعبر على متنها المحاربون والخيول. وهذه القطع العائمة محروسة على الدوام من قبل فريق مؤلف من ثلاثمائة رجل يتناوبون على حراستها كل شهرين حسب ما قيل لي. لأنني لم أراها عن كثب، حيث لا يسمح للمسيحيين بالاقتراب منها.

---

[1] - لم يكن هذا اللقب يعني "الحاكم المطلق"، أو الحاكم المتفرد بالسلطة، بل كان يعني "السيد الحاكم". وقد تبناه أمراء صربيا على غرار لقب الملك أو الإمبراطور. اوقد حمله ستيفان لزروڤيتش(Stefan) Lazarević بين سنتي 1402 و1427 بعد ان حمل لقب "الأمير" بين سنتي 1389 و1402. ثم حمله جورج برانكوفيتش الذي حكم بين سنتي 1427 و1456.

وتفصل بين حصن ستالاك ونهر الدانوب، مسافة قدرها مائة ميل لا توجد بها أية قلعة باستثناء قرية صغيرة وإقامة شيدها سنان باي ومسجد يقع في سفح الجبل.

ومن هذه المنطقة، عبرت على ظهر الحصان منطقة جميلة تسر الناظر يقطنها كثير من السكان على امتداد نهر موراڤا. وقد أعاق مسيرتي في هذه النطقة مكان يوجد به طين كثير. ثم سرت بعد ذلك لمدة يوم في منطقة غابوية فسيحة يصعب المسير بها نظرا لكثافة الأشجار والتواء المسلك الواقع بين الصخور. ورغم ذلك، تتخلل هذه المنطقة عدة قرى منتشرة هنا وهناك.

وقد لاحظت منذ أن وطأت أراضي مقدونيا وبلغاريا وراسكا (صربيا)، أن هناك ما يشبه حالة استنفار، لأن كبير الأتراك أصدر أوامره لكل الرجال بالاستعداد لخوض الحرب. وقد قضينا الليالي في أماكن ومآوي صادفنا بها بلغاريين مسيحيين. قال لنا بعضهم بأن من يتوفر على حصان، ويرغب في خوض الحرب، يعفى من أداء القمارش (le comarch) [ضريبة]. وكان الأتراك يرومون من خلال هذا الاجراء الزيادة في أعداد محاربيهم. كما كان المعنيون به مجبرين بدورهم على الانخراط ضمن المقاتلين، لأن من رفض كان ملزما بدفع خمسين أقجة (aspres)[1].

وبالعودة الى رحلتي، أذكر أنني واصلت المسير حتى وصلت الى مدينة نكوديم (Nekudim) [تدعى حاليا بريدڤوريس (Pridvorice)]. وهي مدينة غير محصنة تقع في منطقة جميلة خصبة محاطة بأشجار كثيفة باسقة وبجداول المياه المتدفقة التي تساعد على مزاولة هواية قنص الطيور. يقيم بهذه المدينة مستبد راسكا (صربيا) الذي رأيناه فعلا يتجول في الحقول بمعية أبنائه الثلاث الذين أتوا لرؤية الطيور تحلق فوق الجداول. وكان برفقتهم حوالي خمسين فارسا ورجل تركي. قيل لي بأنه أتى مبعوثا من قبل كبير الأتراك ليحيط المستبد علما بضرورة إرسال كتيبة من المحاربين تحت قيادة ابنه الثاني للالتحاق بصفوف الجيش كما جرت العادة بذلك. وأذكر في هذا السياق، بأن المستبد ملزم بدفع الجزية التي أشرت اليها. كما أنه ملزم

---

[1] ـ كلمة aspre التي استعملها برتراندون دو لا بركيير تعني في الحقيقة قطعة النقد "الجديدة" التي صنعت حديثا ولم تفقد بعد بريقها من كثرة االتداول. وكانت الكلمة تطلق تجاوزا غلى قطعة النقد العثمانية المعروفة منذ عهد أورخان "بأكجا". وكانت قطعة بيضاء لامعة مصنوعة من الفضة وتحتوي على قليل من النحاس وتزن 1.15 غراما. أنظر شوكت باموك التاريخ المالي للدولة العثمانية، تعريب عبد اللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2004.

باستنفار ألف فارس أو ثمانمائة، تحت قيادة ابنه الثاني كلما أمره كبير الأتراك بذلك[1]. وبالإضافة الى كل هذا، قدم إحدى بناته زوجة لكبير الأتراك. ورغم ذلك، لا يستبعد أن يطالبه كبير الأتراك بكل البلد. بل قيل لي بأن فكرة التنازل عن حكم الامارة لفائدة الأتراك طرحت فعلا على كبير الأتراك، ولكنه تحفظ بشأنها لأنه يحبذ أن يضل الوضع على ما هو عليه لكي يحصل على أكبر عدد من الفرسان بدل أن تخضع الامارة لسلطته ويعين عبدا لحكمها دون طائل. وقد قيل لي كذلك بأن الفرسان الذين يطالب كبير الأتراك باستنفارهم سيرسلون رفقة آخرين الى الجبهة الألبانية لأن العشرة آلاف رجل الذين تم ارسالهم اليها انهزموا أمام الألبانيين.

وأذكر بأن المستبد الذي رأيناه بمعية أبنائه الثلاث، يبلغ من العمر ما بين ثمان وخمسين وستين سنة. وهو رجل وسيم طويل القامة. له ثلاث أبناء وبنتان، زوج إحداهما لكبير الأتراك، بينما زوج الثانية لألريخ الثاني (Ulrich II) حاكم قمطية تسليه (Celje) [احدى مقاطعات سلوڤينيا حاليا]. وأبناؤه الثلاث وسيمون أيضا. ويبلغ أكبرهم حوالي عشرين عاما. بينما يبلغ الثاني حوالي ستة عشر عاما والثالث حوالي أربعة عشر عاما. ولكن لا أدري شيئا عن بنتيه لأنني لم أراهما.

وأذكر أننا عندما رأيناه في الحقل، توجه عنده السفير وانحنى أمامه وقبل يده وفعلت بدوري الشيء ذاته كما جرت العادة بذلك في هذه الجهات. وفي صبيحة اليوم الموالي، توجه السفير الى بلاطه لتوديعه فرافقته وكان محاطا بطائفة من خدامه. وهم كلهم وسيمون طوال القامة. تتدلى شعور رؤوسهم على أكتافهم وتكسو وجوههم لحي طويلة.

وقد التقيت أثناء مقامي بمدينة نكوديم بأسقف وأحد أساتذة اللاهوت قادمين من بال (Bâle) كمبعوثين عن المجمع الديني الذي انعقد بها. وكانا في طريقهما الى القسطنطينية لملاقاة امبراطورها.

وبعد مغادرة مدينة نكوديم توجهت الى مدينة بلغراد التي تخضع لسلطة ملك هنغاريا. وكنت قبل الوصول اليها قد مررت بمنطقة متضرسة شاسعة تكسوها أشجار كثيفة وتنتشر بها بعض التجمعات القروية التي يهتم المقيمون بها بغراسة شجيرات الكروم واستخلاص الخمور. ووصلت بعد ذلك الى مدينة بلغراد التي تقع في منطقة جميلة خصبة يخترقها نهر كبير

---

[1] - يؤكد هذه الحقيقة عدد من المؤرخين المحدثين من بينهم، على سبيل المثال، محمد فريد بك المحامي، أنظر كتابه تاريخ الدولة العلية، الذي سبقت الإحالة عليه، ص. 76.

[2] - نفسه، ص. 215.

يسمى نهر الساڤ (la Save) الذي ينبع من البوسنة ويجري على امتداد أسوار المدينة ثم يلتقي بنهر الدانوب عند قدم أحد القصور المحصنة. وهكذا تقع مدينة بلغراد عند ملتقى هذين النهرين. وترتفع من ثلاث جهات، بينما الجهة الرابعة مستوية تماما وتوجد بها قرية ممتدة من نهر الدانوب حتى نهر الساڤـ يقيم بهذه القرية سكان من أهل البلد وآخرون من الصربيين. وقد سمعتهم يؤدون قداس عيد الفصح باللغة السلاڤونية. وهم يخضعون لكنيسة روما ويقيمون الشعائر الدينية كما نقيمها.

ومدينة بلغراد تقع في موقع محصن. وهي موزعة على خمس حصون. ثلاثة على المرتفعات التي ذكرتها واثنان فوق النهر. كما يوجد بها مرفأ صغير يمكن أن يسع خمسة عشر أو عشرين قطعة حربية لحراسة برجين كما قيل لي، لأن النهر هنا عريض. وهذه المنشآت التي ذكرتها محصنة كذلك بخنادق عميقة. ويشرف عليها فارس قبطان يدعى ماركو دي طالوك (Marko de Talloc). ولا يسمح للراسكيين (أي الصربيين) بدخول هذا الموقع لأنه خاضع لسلطة ملك هنغاريا رغم أنه يحكمها بتفويض من مستبد راسكا (صربيا) منذ أربع سنوات. وقد فوضه حكمها مخافة أن تضيع منه كما ضاعت منه مقاطعة ڤولوباك (Golubac) التي يمثل فقدانها خسارة كبيرة بالنسبة للمسيحيين. وسيكون فقدان هذا الموقع فعلا أمرا خطيرا لأنه عريض يمكن أن يسع خمسة أو ستة آلاف فارس.

ويكتسي موقع مدينة بلغراد أهمية قصوى، لذلك فهي محصنة. وقد قيل لي في هذا المضمار بأنها مزودة بما يكفي من قطع المدفعية. وقد رأيت فعلا في أحد الأبراج أربع قاذفات مصنوعة من المعدن، من بينها اثنتين مكونتين من قطعتين. إحداهما من أكبر القاذفات التي رأيتها. يبلغ عرض الجزء الذي توضع به الحجارة التي تقذفها، اثنين وأربعين بوصة (pouce)[1]. ولكنها بدت لي قصيرة مقارنة مع عرضها.

وقد رأيت أثناء مقامي بالمدينة ستة زوارق حربية وخمس قطع مخصصة لعبور النهر. كانت راسية في نهر الساڤـ.

وقد أخبرني بعض العارفين بخبايا المدينة، بأن مستبد صربيا يملك بلدة صغيرة على ضفة نهر موراڤا. ويقع بهذه البلدة منجم ذهب وآخر به كميات من الفضة. يستخلص كل سنة منهما ما يزيد عن مائتي ألف دوقة. ولولا هذه الثروة لتم اقصاؤه، في اعتقادي، عن حكم راسكا (صربيا).

---

[1] ـ أي أكثر قليلا من 113 سنتمترا. على أساس أن البوصة كانت تساوي في فرنسا العصر الوسيط 2.7 سنتمترا بالقياس الميتري الحالي.

وأذكر في هذا السياق، أن كبير الأتراك يسيطر على حصن كولوباك الواقع على نهر الدانوب والذي كان من قبل تحت سلطة المستبد. ويقع هذا الحصن على بعد مسيرة يومين من بلغراد. وقد قيل لي بأنه حصن حصين فعلا ولكن يمكن محاصرته وتدميره بواسطة المدفعية أو بواسطة راجمات أخرى. ومن ثم لا يمكن للأتراك المرابطين به طلب المعونة الا نظير خسائر كبيرة. وقيل لي بأن كبير الأتراك يحتفظ في هذا الحصن على ما يقارب مائة قطعة عائمة (des fustes) يعبر على متنها الرجال والخيول الى هنغاريا إذا عول على القيام بذلك ولا يمكن لأحد اعتراضه.

وتقع على الضفة الأخرى من نهر الساڤ المقابلة لبلغراد، مدينة زمون (Zemun) التي يحكمها مستبد صربيا رغم وقوعها في هنغاريا. وقد منحه الامبراطور سجسموند حكمها بالإضافة الى مدن أخرى. وهو ما يمثل بالنسبة للمستبد مصدر ايراد آخر يصل الى حوالي خمسين ألف دوقة يلزمه بأن يظل دوما فصلا (تابعا) للامبراطور. ورغم ذلك، فالواقع أن المستبد أكثر خضوعا لكبير الأتراك منه للامبراطور.

وأذكر أنني رأيت، في اليوم الثاني لوصولي الى بلغراد، حوالي خمسة وعشرين رجلا مسلحين على الطريقة المتبعة في هذا البلد. وقد قدموا مبعوثين من قبل القمط ماتكو (Matko) للمرابطة بحصن واقع على نهر الدانوب. فسألت عن أصلهم. وقيل لي بأنهم رجال ألمان. فسألت من أخبرني عن أصلهم لماذا يتم استقدام رجال من بعيد. هل لا يوجد رجال بالمجر أو بصربيا قادرين على حراسة حصن. فأجابني بأن الصربيين ممنوعين من هذه المهمة، لأنهم خاضعين لنفوذ كبير الأتراك. أما المجريون، فيهابون الأتراك. وإذا حدث أن زحف هؤلاء، فإنهم لا يستطيعون ردهم رغم طبيعة التحصينات المتوفرة في الحصن. ولهذه الأسباب يتم المناداة على رجال أجانب لحراسة هذا الحصن الذي يمثل الموقع الوحيد على نهر الدانوب الذي يمكن استخدامه للتقدم أو التراجع عند الضرورة. وقد اندهشت عند سماع هذا الرد واستحضرت خنوع امبراطور القسطنطينية لكبير الأتراك وكذلك خنوع جميع اليونانيين والمقدونيين والبلغاريين وكذلك مستبد صربيا وجميع من يحكمهم. وهو أمر محزن بالنسبة للمسيحية والمسيحيين. ولذلك تأملت مليا في هذا الوضع الغريب الذي أقول في موضوعه ما يلي:

انطلاقا من كوني خالطت الأتراك قليلا وأطلعت على سلوكهم ونمط عيشهم وطرق تصرفهم وطرق تسلحهم لخوض الحروب، وكذلك انطلاقا مما أفادني به بعض الوجهاء الموثوق بهم، الذين عاينوهم وتتبعوا تحركاتهم

وشهدوا انجازاتهم، أستطيع أن أتقدم ببعض المقترحات، التي لا يمكن لأحد الشك في قيمتها اللهم إلا إذا كان ممن هم أدرى مني بالموضوع.

ففي ضوء الانتصارات التي حققوها سابقا في بعض المعارك الكبرى، أستطيع أن أقول، بخصوص السلوك والطرق التي يمكن تبنيها لهزمهم، وكذلك بخصوص الرجال الواجب أن تناط بهم هذه المهمة، ما يلي:

- أولا: إن الأتراك رجال متوسطو القامة والقوة البدنية على العموم. وهم وسيمون عموما. يطلقون كلهم لحي طويلة.

ورغم أننا درجنا في أوربا على استعمال المثل القائل: "هو قوي كالتركي"، فالحقيقة أن قوة الواحد منهم ليست خارقة كما يوحي بذلك المثل. ودون الدخول في متاهة المقارنات، أقول بأنني رأيت من بين المسيحيين عددا كبيرا من الرجال أقوى بكثير من الأتراك قادرين على فعل أشياء تتطلب القوة. كما رأيت من هم أضعف مني شخصيا، ولكن حين تقتضي ظروف خاصة القيام بعمل يتطلب استعمال القوة، تجدهم قادرين على ذلك.

وهؤلاء الأتراك يتميزون بالفعالية والإنضباط. فالمقيمون منهم في قرى الأرياف ينهضون باكرا. ويعتمد الواحد منهم في طعامه على مواد بسيطة. تتمثل في قطعة خبز غير طازجة بشكل جيد. وقطعة لحم مجففة بأشعة الشمس وقليل من الحليب السائل أو الجبن وقليل من العسل وكمية من العنب المجفف (الزبيب) أو إحدى الفواكه. وأحيانا يقوم بعضهم بتحضير حساء مكون من كمية من الدقيق مطهية في الماء. ويشترك في تناوله ستة أو ثمانية أفراد.

وإذا حدث أن أصيب حصان أو جمل ولم يستطيعوا معالجته، فإنهم ينحرونه ويجففون لحمه ليتم تناوله فيما بعد كما رأيت ذلك في بعض المناسبات. وهم يفترشون الأرض في أغلب الأحيان. ويرتدي الواحد منهم سروالا تحتيا يصل الى الركبتين وفوقه لباس مصنوع من القطن يشبه الفستان. يغطي الجسم من الكتف حتى القدمين. وقد يضع فستانين أو ثلاث، الواحد فوق الآخر. وفوق تلك "الفساتين"، يضع رداءا خفيفا يشبه المعطف. يمنع تسرب مياه الأمطار الى ما تحته. وينتعل حذاءا طويلا يصل الى الركبتين. وأحيانا يضع ممتطي الحصان الأجزاء الواقعة فوق الفخذين من تلك الفساتين في السروال التحتي، فيغدو قادرا على التحرك بخفة.

يمتطي الأتراك خيولا جميلة سريعة العدو. يحرصون على أن تظل دائما نحيفة. فهم لا يقدمون لها العلف الا أثناء الليل. ويكون بمقدار خمس أو ست كيلو غرامات من الشعير للحصان وضعفها من التبن أو الخرطال. وفي الصباح يمسحون عليها. ويضعون لها اللجامات. ولا يقدمون لها الماء الا

بعد منتصف الزوال. وبعد ذلك، يقدمون لها كمية من الماء في المساء وفي الليل.

وهم يَسْرون ليلا. وإذا أرادوا الاستراحة قليلا، يقومون بذلك بمحاذاة واد أو نهر. فيتركون الخيول ملجمة فترة ثم يزيحون اللجامات عن رأسها ويتركونها تشرب الماء. وإذا ما قضوا طرفا من الليل هناك، يضع كل واحد رداء فوق ظهر حصانه.

ويمتطي الفرسان خيولهم وفوق ظهورها سروج جميلة جيدة الصنع. ويضعون فوق رؤوسهم طواقي مصنوعة من خيط صلب. ثم يضعون فوقها ما يشبه الخوذات. كما يرتدون ما يقي أذرعهم. ويضعون أرجلهم في ركابات قريبة من ظهور الخيول، بحيث تكون ركبتا الفارس مرتفعتين وفخذاه في مأمن من طعنات الرماح.

وقد أفادني بعض المخبرين بأن كبير الأتراك حين يقرر خوض حرب ضد المسيحيين، فإنه يستنفر جنوده ولا ينهض بهم فجأة. بل يرابطون في إحدى المحلات لمدة يومين أو ثلاثة أيام. ثم ينهضون فجأة الفيلق تلو الفيلق. ورغم ذلك، فإن ألف فارس منهم لا يحدثون هرجا أو مرجا كالذي يحدثه مائة فارس مسيحي. ويَسْرون بشكل حثيث في الليل. تساعدهم في ذلك خيولهم النحيفة وأسلحتهم الخفيفة. فيقطعون مسافة تضاهي ما يقطعونه خلال ثلاثة أيام في واضحة النهار.

وتساعدهم في سيرهم وفق هذا الايقاع، خيولهم النحيفة التي تقطع مسافات طويلة دون أن تتعب. كما أن الفرسان لا يضجرون أو يتعبون لأنهم يضعون خوذات خفيفة فوق رؤوسهم. خلافا لتلك "الخوذات" (les salades)[1] التي يرتديها الفرسان في فرنسا أو ايطاليا.

وأفادني بعض من يعرفون الجنود الأتراك جيدا، أنهم منضبطون يطيعون قادتهم. وأعتقد أن الانضباط والطاعة هما الخاصيتان اللتان مكنتهم من تحقيق هذه الإنتصارات الحاسمة التي جعلتهم الآن يبسطون سيادتهم على أراضي تتعدى مساحتها مساحة فرنسا.

كما أفادني أولائك الناس أيضا، بأن كبير الأتراك كان يحاط علما بأي تحرك عسكري من جانب المسيحيين. فما يكاد يمضي يومان أو ثلاث حتى يستنفر جنوده ويرابط بهم في المكان المناسب. ويقوم رجال مختصون بنقل

---

[1] ـ تسمى باللاتينية "caelum" وهي عبارة عن خوذات معدنية دائرية الشكل أصبح الفرسان يرتدونها في فرنسا ابتداء من مطلع القرن الخامس عشر.

الأخبار عن تحركات العدو. ودورهم حاسم في المعارك. وكم من مرة كان الأتراك يباغتون أعدائهم في ضوء الأخبار التي ينقلها هؤلاء الرجال.

ويستعملون في حروبهم طرقا مختلفة. كطريقة الكر والفر. فقد علمت من بعض الذين حضروا بعض المعارك، أن الأتراك يندفعون بعدد محدود في المعركة. ويتظاهرون بالتراجع ليلحق بهم الأعداء. فيستعملون عند تراجعهم النبال. وهم مدربون على استعمالها في مثل هذه الحالات بحيث لا تخطأ الهدف. فتصيب الفارس أو الفرس. وفي بعض الحالات يتراجعون. ثم يدق قادة الفيالق في طبول صغيرة. يضع كل واحد منهم طبلا بجانب السرج، فيعود عدد كبير من الجنود للميدان. وأحيانا يتظاهرون بالتراجع ثم يظهرون فجأة في كل مكان. فيربكون الأعداء ويلحقون بهم الهزيمة. ويستعملون في تحركهم إشارات يفهمون معناها. وعادة ما يستعملون هذا الأسلوب في المناطق الجبلية أو في المناطق الغابوية. كما يعملون على إرباك العدو بإضرام النيران في طريقه أو بإطلاق العنان لأعداد من الجمال القوية التي تفزع الخيول والفرسان المسيحيين.

ويتحرك الجنود الأتراك وفق طقوس خاصة. فإشارة الانطلاق تعطى بواسطة دقات في طبل كبير. وبمجرد سماع صوت الطبل يتحرك جنود الصف الأمامي دفعة واحدة ودون أدنى ضوضاء. ثم يتبعهم جنود الصف الموالي وهكذا دواليك. لأنهم متعودون على هذا التمرين سواء كانوا فرسانا أو راجلين.

ومهما يكن من أمر، فلا أستطيع أن أقيّم طرقهم في خوض الحروب. فقد أبانت لحد الآن عن نجاعتها. وكل ما أستطيع قوله، هو أنه أتيحت لي فرص اقتناء بعض بضائعهم. فلمست في الباعة الصراحة والصدق. واتيحت لي مناسبات، عاينت فيها أحداثا كانت تقتضي التدخل وإبداء كثير من الشجاعة. فرأيت أن رجالا من بينهم لم يترددوا وكانوا في مستوى تلك الأحداث.

وقد علمت بأن سلاح الفرسان الأتراك يتمثل في سيف وقوس وإرزية (une masse). وهي عبارة عن كتلة من حديد، صغيرة الحجم وذات مقبض قصير كالمطرقة. يمسك الفارس بالمقبض ويضرب بالكتلة راس خصمه أو كتفه. وأعتقد أن ضربة قوية بها على رأس فارس أو راجل قد تفقده توازنه أووعيه حتى وإن كان يرتدي الخوذة (la salade) التي تحدثت عنها. وفضلا عن الأسلحة المذكورة، فإن عددا من الفرسان يتوفرون على تروس من خشب صغيرة الحجم (des boucliers). يحسنون استعمالها رغم صغر حجمها لتفادي النبال التي يطلقها الأعداء.

وقيل لي بأنهم حين يخوضون إحدى المعارك بأعداد كبيرة، فإن الجنود لا يحاربون كلهم على ظهور الخيول ولا يكونون مسلحين كلهم بالأسلحة التي تحدثت عنها. فعدد منهم يحاربون راجلين ولا يستعملون سوى الرماح أو الإرزيات الكبيرة الحجم (grosses masses).

ويخوض الحروب الى جانب الأتراك عدد من المحاربين المسيحيين كما ذكرت فيما مضى. من بينهم إغريقيون وبلغاريون ومقدونيون وألبانيون وسلاڤيون وصربيون. وقد قيل لي بأنهم من شدة تبعيتهم للأتراك، يحتمل أن يمدوا يد المساعدة للمسيحيين، وخاصة للفرنسيين.

واتضح ذلك جليا في الحرب الأخيرة التي دارت بين كبير الأتراك والإمبراطور سجسموند. فقد حاصر هذا الأخير حصن ڤولوباك (Golubac). ولم يأخذ بالنصائح التي قدمت له. فاضطر لرفع الحصار والتراجع أمام الأتراك. وكان يسانده ما بين خمسة وعشرين وثلاثين ألف مقاتل هنغاري. كان من الممكن أن يكون دورهم حاسما في المعركة. ألم نر كيف أن مائتين فقط من المقاتلين اللومبارديين والجينويين، من حملة الأقواس المستعرضة (les arbalétriers) تمكنوا من التصدي لأعداد كبيرة من الجنود الأتراك. ونجحوا في تمكين الإمبراطور من الانسحاب سالما ومن الإلتحاق بمراكبه بنهر الدانوب. بينما لم يفعل شيئا ستة آلاف جندي من ڤلاشيا وبولاندا. إذ لم يقتحموا المعركة وظلوا مرابطين في جبل قرب الميدان الذي دارت فيه الوقائع. فانقض عليهم الأتراك وأبادوهم.

وبناء عليه، أعتقد أنه إذا أراد أحد القادة المسيحيين التصدي للأتراك، فيجب أن يتم ذلك ابتغاء لمرضاة الله وليس رغبة في تحقيق الشهرة والمجد. كما يجب أن تسند المهام القتالية لرجال على دراية وكذلك صادقي النية. يحرصون على تجنب السلب والنهب ويعلمون بأنهم سيؤدون أجورهم. ولا شك أن دور البابا في هذا المجال حاسم للغاية.

وأعتقد أنه من الممكن الإعتماد على عدد كبير من الجنود الفرنسيين. وبخاصة على مستعملي الراجمات وأولائك الذين يستعملون الأقواس (les archers) وفئة الجنود مستعملي الأقواس المستعرضة (les arbalétriers). كما يمكن الاعتماد على ألف مقاتل أنجليزي وعشرة آلاف رجل من مستعملي الأقواس. ويمكن أيضا الإعتماد على فرسان ومشاة من ألمانيا مختصين في استعمال الأقواس المستعرضة (les cranequiniers). وسيكون من المفيد جدا الإستعانة بمائتين أو ثلاث مائة قطعة من المدفعية (المحمولة على عجلتين) (les ribaudequins). يمكن نقلها من بلغراد الى القسطنطينية.

وأظن أن هذه "الأمم" الثلاث قادرة على استنفار ما بين خمسة عشر وعشرين ألف جندي من الفئات المذكورة. وأتمنى أن يقدر لي الله أن أكون رفقتهم.

وستكون قدرات هؤلاء الجنود جيدة إذا تم الحرص على تخفيف ألبستهم الحربية. فالجنود الأتراك يتحركون بسرعة نظرا لكونهم يرتدون لباسا خفيفا ويستعملون أسلحة خفيفة كما ذكرت سابقا. وسيكون الأمر سيان لو تم تخفيف خوذة الجنود المسيحيين وكذلك الواقي الذي يحمي صدورهم وظهورهم (la brigandine). كما ستكون قدرات الفرسان القتالية جيدة لو استعملوا سيوفا حادة ورماحا خفيفة ويتخلوا تماما عن الشواقير أو البلطات.

ويجب تنظيم صفوف الجنود على شكل فرق بعضها في المقدمة وبعضها في المؤخرة الى جانب الميمنة والميسرة. وتوضع قطع المدفعية في الصف الأمامي. لأن الأتراك يدفعون في المعارك بعدد كبير من الجنود. فيجب ابادتهم وعدم ترك الفرصة لهم ما أمكن للانخراط في العمليات القتالية والاحتكاك بالمقاتلين المسيحيين. كما يجب الحرص على عدم إعطاء الفرصة لمستعملي الأقواس في القوات التركية، لأنهم يمثلون القوة الضاربة. رغم أن الأقواس التي يستعملونها لا تطلق الأسهم مسافات بعيدة مقارنة بالأقواس التي يستعملها جنودنا.

يجب استحضار مسالة أشرت اليها وهي أن الجنود الأتراك لا يتناولون كميات كبيرة من الطعام. وكذلك خيولهم. وهم يتحركون بخفة. ويمكن استنفارهم بسرعة. بمجرد إشعارهم بتحركنا، سيأتون لملاقاتنا. ويمكن أن يتراجعوا كذلك بسرعة. فيجب الاستعداد لمنازلتهم في أي وقت. ولكن على أساس أن تكون قواتنا دائما مجتمعة. ومن الضروري الإستعانة بفرسان مخبرين يقومون برصد تحركات الأتراك وإبلاغ القادة للتحرك في ضوء المعلومات التي يقدمونها. مع تجنب النزالات في الميادين المكشوفة. لأن الهزيمة ستلحق القوات التي ستقوم بذلك. فضلا عن كون الأتراك يحبذون جر أعدائهم داخل الحواضر وعلى أطرافها. رغم أن عددا من تلك الحواضر ليست محصنة بما فيه الكفاية كما لاحظت ذلك.

وأعود لأكرر بأن جنود "الأمم" الثلاث، أي فرنسا وأنجلترا وألمانيا، قادرون على تحقيق المهمة. شريطة الإلتزام بالتحرك دفعة واحدة وبانتظام. وحينها سيضطر الأتراك الى التراجع تاركين نسائهم وأطفالهم. لأنهم لا يتوفرون على تحصينات جيدة في بلاد اليونان كما ذكرت ذلك في مناسبات كثيرة. وقد اتضح من خلال المعارك السابقة، أنهم يجدون دائما صعوبات كلما عبروا نهر الدانوب في اتجاه بلاد اليونان.

ويمكن للجنود الذهاب الى ميدان المعركة عن طريق البر عبر "أورشليم". كما أنه من الممكن غزو بلاد اليونان. وهناك لن تطرح أية مشاكل فيما يتعلق بالتمويل أو الإمداد وغيرهما. فالأراضي اليونانية والصربية والهنغارية والمقدونية خصبة وتجود بوفرة. ومياه أنهارها صالحة للملاحة.

وبعد مقام في بلغراد دام ثلاثة أيام غادرتها. فعبرت نهر الدانوب الذي كان عرضه أثناء عبوري يبلغ حوالي عشرة أميال. وقد قيل لي بأنه لم يحدث قط أن بلغ عرضه هذا القياس. وكنا نود الذهاب الى بودا (Buda) مباشرة، ولكن لم يكن بمقدورنا ذلك، فاتجهنا نحو مدينة بانتشيڤو (Pančevo). وهي مدينة غير محصنة. عبرتها وسرت في منطقة منبسطة ومستوية لم أعبر خلال رحلتي منطقة مماثلة لها حتى وصلت الى نهر عبرته على متن زورق. ثم واصلت المسير حتى وصلت الى مدينة تسمبكريك (Beckerek) [زرينجنان (Zrenjanin) حاليا] التابعة لمجال نفوذ مستبد راسكا (صربيا). فعبرت نهرين على قنطرتين ثم واصلت المسير حتى مدينة بيتشي (Bečej) التابعة هي الأخرى لسلطة المستبد المذكور. وواصلت المسير بعدها، ثم عبرت نهرا عميقا يدعى نهر تيسا (Tizsa) ووصلت بعد عبوره الى مدينة سيجد (أو سكدين) Segedin). وهي مدينة كبيرة غير محصنة تقع على النهر المذكور. وقد سرت هذه المسافة دون رؤية أشجار باستثناء فضائين غابويين صغيرين يحيط بهما جدولان صغيران، ولذلك يستعمل سكان هذه المناطق الحشائش والقصب الجداول والمستنقعات للطهي والتدفئة. وقد لاحظت أن سكان هذه المناطق لا يتناولون الخبز بل كميات قليلة من أنواع من الحلوى الرطبة.

ورغم أن مدينة سيجد مدينة كبيرة كما ذكرت، فلا يقع بها سوى زقاق عريض وطويل، يبلغ طوله حوالي لوقة (une lieue)[1]. وتعرض بأسواق المدينة، المواد الغذائية بوفرة وخاصة الأسماك التي رأيت أنواع منها كبيرة الحجم لم يسبق لي أن رأيت أكبر منها من قبل. وقد زرت سوقا تعرض به طيور الكركي (les grues)[2] وأنواع من الحباري (les outardes)[3] التي تملح وتعد للطهي. ولا ينام على الأفرشة الا القليل من السكان، فيما ينام معظمهم على أكياس من جلد مصنوعة خصيصا لهذا الغرض. طول الواحدة

---

[1] - حوالي أربع كيلوميترات.

[2] - طيور تشبه النعام الى حد ما.

[3] - فصيلة من الطيور الكبيرة الحجم والطويلة الأعناق. تشبه بدورها النعام.

منها بطول جسم الرجل. يتم ملؤها بالهواء عن طريق النفخ. كما زرت سوقا تعرض به الخيول. ومعظمها خيول "وحشية" يتم قنصها وترويضها. وقيل لي بأنها رخيصة الثمن. يمكن شراء برذون[1] بعشر فلورينات مجرية.

وتوجد بمدينة سيجد كنيسة يرتادها الكرادلة (les cordoliers) الذين سمعتهم يقيمون القداس بلهجة مجرية. وقد قيل لي بأن الامبراطور منح إدارة المدينة لأحد الأساقفة. وقد رأيته فعلا. وبدا لي رجلا حكيما.

وقد غادرت سيجد واتجهت صوب مدينة كيشكميت (Kecskemet). ومنها الى مدينة بيست (Paele ou Pest) الواقعة على نهر الدانوب قبالة مدينة بودا (Buda). ومررت للوصول اليها بمنطقة مستوية جميلة تنتشر بها كثير من المزارع الخاصة بتربية الأفراس التي ترعى معظم فصول السنة في الحقول مثل الحيوانات غير الأليفة فلا تتطلب تربيتها تكاليف كثيرة، ولذلك توجد أسواق كثيرة تعرض فيها الخيول للبيع.

وقد عبرت نهر الدانوب ودخلت مدينة بودا التي تعد أهم مدينة في المجر. ويوجد بهذه المدينة قصر كبير شرع في تشييده الامبراطور سجيسموند. وكان من الممكن أن يكون أكبر وأفخم لو تم استكمال عملية بناءه.

تقع مدينة بودا على تل غير مرتفع يميل الى الطول تدري مياه نهر الدانوب على امتداد أحد جوانبه في اتجاه الشرق بينما توجد في اتجاه الغرب هضبة يقع القصر المذكور في أحد أطرافها ويشرف على مدخل المدينة. وتوجد بمحاذاة القصر حمة معدنية مياهها ساخنة نسبيا يحلو الاستحمام بها. وتوجد حمات أخرى غيرها ولكن مياهها أقل جودة، لذلك ليس عليها اقبال كبير.

وتتميز مدينة بودا بنشاطها التجاري. ولذلك تعرض في أسواقها منتجات كثيرة ومتنوعة وخاصة منها الخمور من النوع الأبيض ذات المذاق الحار نسبيا نظرا لكون شجيرات الكروم التي تجود بها تقع في مناطق تخترقها مياه معدنية غنية بمادة الكبريت حسبما قيل لي.

ويحكم هذه المدينة الألمان الذين يسيطرون على مؤسساتها وأنشطتها التجارية. فتجدهم في مؤسسة القضاء وفي مجال التجارة وفي مجال الأنشطة الحرفية كالخياطة والنجارة والبناء والصياغة كما أخبرني بذلك فرنسي من مدينة أراس (Arras)، يدعى نيكولا داڤيون (Nicolas Davion)، التقيت به. يشتغل نيكولا هذا في قطاع صناعة النجود (السجاد

[1] - حصان ضخم البنية قوي الأرجل، يصلح للقيام بجر محراث أو عربة.

أو الزرابي)، استقدمه الامبراطور سجيسموند من فرنسا مع مجموعة حرفيين آخرين. والى جانب الفرنسيين، يوجد كذلك بالمدينة عدد كبير من اليهود يتحدث معظمهم باللغة الفرنسية. وهم أولائك الذين تم طردهم من مملكة فرنسا. وبالإضافة الى ذلك، يقع على بعد لوقة (une lieue) من هذه المدينة ضريح القديس بولا الناسك (Saint Paul l'ermite).

وأعود الى سياق رحلتي، لأذكر بأنني رحلت عن مدينة بودا وعدت الى مدينة بيست (Pest) التي التقيت بها ببعض أفراد ستة أسر فرنسية استقدمها الامبراطور سجيسموند للاشراف على عملية بناء برج شيده على ضفة نهر الدانوب قبالة بلاطه بهدف وضع حاجز بينهما لقطع النهر عند الضرورة. وقد بدا لي هذا الأمر صعب التحقيق لأن النهر عريض جدا. ومن المحتمل أن الامبراطور حمل هذه الفكرة معه من فرنسا بعد مقامه بها سنة 1416 وزيارته لبرج بوركونيا الواقع قبالة حصن الهويس (أو المحبس) (château de l'écluse). وقد قمت بزيارة برج بيست، فلاحظت أنه مرتفع نسبيا وجدرانه سميكة. وما زالت بالقرب منه كمية من الأحجار المصقولة التي يمكن استعمالها في الزيادة في ارتفاعه. فسألت عن سبب عدم استعمالها. فقيل لي بأن البنائين الذين اشتغلوا في بنائه ماتوا كلهم ولا يوجد الآن من يعرف كيفية مواصلة بنائه.

تحيط بمدينة بيست أراضي منبسطة يقيم بها عدد كبير ممن يعتنون بتربية الخيول التي يعرضونها للبيع في اصطبلات، على شكل مجموعات، تضم كل واحدة منها عشرة خيول. يبيعون كل مجموعة منها بمائتي فلورين مجري. وقد رأيت عددا منها ولاحظت أن اثنين أو ثلاثة من بين تلك التي رأيت تستحق أن يدفع المرء من أجلها ما يملك من مال. ومعظم هذه الخيول مستقدمة من منطقة ترانسلفانيا، أي من المنطقة الفاصلة بين مملكة المجر وڤلاشيا. وبالإضافة الى الخيول، توجد في هذه المنطقة بعض مناجم الذهب والملح التي، قيل لي بأن كل واحد منها يدر على ملك المجر دخلا يناهز ألف فلورين كل سنة. وقد تنازل عن دخل مناجم الذهب لكل من سيد بروسيا نظير قيامه بحراسة الحدود ومنع تسرب الأتراك منها. وكذلك للقمط ماركو نظير قيامه بحماية بلغراد. أما دخل مناجم الملح، فقد غدت تستفيد منها الملكة، وهي الزوجة الثانية التي اقترن بها سجيسموند. وقيل لي بأن ملح تلك المناجم من النوع الجيد الذي يشبه الحجارة. يصقل على شكل قطع طول الواحدة قدم وعرضها قرابة قدم، تحمل على متن عربات الى مطاحن. وقد رأيت عينات منه، فلاحظت أنه رطب شديد البياض.

وبما أن عينات من الخيول التي رأيتها راقتني، فقد اشتريت أحدها بدا لي بأنه يركض بسرعة، مع أن عددا من تلك الخيول يتميز بهذه الخاصية. ولكن بعضها يستعمل لجر العربات. وقد رأيت فعلا عددا من تلك العربات تجوب المسالك. بعضها على متنها ستة أفراد، وبعضها على متنها ثمانية. ومعظم تلك العربات يجرها حصان واحد. ولا تستعمل فقط لقطع مسافات قصيرة، بل كذلك لقطع مسافات طويلة. وبعض تلك العربات مغطات بسقف، ورغم ذلك فهي خفيفة ومحمولة على أربع عجلات خفيفة، الخلفيتان منها أكبر نسبيا من الأماميتان، ولذلك أعتقد أنه باستطاعة رجل جر واحدة منها إذا ربطها الى عنقه خاصة وأن المسالك في هذا البلد مستوية وتربتها رطبة تساعد على سير هذه العربات بسهولة. وقد لاحظت أن عملية قلب تربة الأرض هنا سهلة كذلك الى درجة أن سكة المحراث تحدث بها أخدودا عميقا دون عناء فاندهشت لهذا الأمر. كما يوجد الكلأ هنا بوفرة. يقدم مربو الخيول كميات منه لخيولهم.

وقد التقيت في المدينة بفرنسي يعمل مساعد بناء عبر لي عن رغبته في مرافقتي للعودة الى قرية براي (Bray) الواقعة على نهر السوم (la Somme). فلم أتردد في قبول طلبه لأنني كنت في حاجة الى خادم.

وغادرنا بيست وعدنا أدراجنا الى مدينة بودا التي كان سفير ميلانو ما زال مقيما بها. فاتجهت بمعيته الى مقر إقامة نيكولا كَراي (Nicolas Garay)، قمط هنغاريا وقبطان الامبراطور. وقد استقبلنتا بترحاب واعتقد أنني تركي. ولكنه حين اكتشف بأنني مسيحي لم يعد يعيرني أي اهتمام. وقيل لي بأنه لا يفي بالوعود وليس مخلصا تمام الإخلاص للامبراطور. وعموما، فإن معظم المجريين هم على نفس المنوال. وقد خالطتهم مدة قصيرة، اقتنعت خلالها بأنه بإمكان المرء أن يثق في وعد يقدمه أحد الأتراك ولا يمكنه الثقة في وعد يقدمه أحد المجريين.

وقد رأيت ابن هذا القمط في مبارزة ثنائية. وكان ممتطيا حصانا قصيرا على ظهره سرج منخفض. وهي عادة متبعة من قبل فرسان هذا البلد. ويمكن من خلال مثل تلك المبارزات معرفة الفارس الجيد المتمرس. لأنه يجب على كل واحد أن يظل جالسا على سرج الحصان أثناء المبارزة ولا يسقط على الأرض. ولا يستعمل فرسانهم السيوف أثناء المجاولات، وانما رماحا قوية قصيرة ويضعون فوق ظهور خيولهم أسرجة موحدة توزع على المتبارزين عن طريق القرعة. كما يمتطون خيولا متشابهة. ولا يتبارزون الا مثنى مثنى، أي فارس ضد فارس.

وقد قيل لي بأن ابن القمط عقد قرانه منذ فترة قصيرة مع فتاة جميلة من بنات البلد. وأبوه رجل مسن عينه الامبراطور سجيسموند قمطا على إثر اتفاق بينهما. وكان قبل ذلك محكوما بالحبس من قبل الامبراطور بعد أن كان قد القى القبض على ملك بوهيميا وأودعه السجن على إثر صراع نشب بينهما.

وقد شرعت في الاستعداد لمغادرة مدينة بودا رفقة سفير ميلانو الذي أخبرني بأننا سنفترق في الطريق ليأخذ وجهة ميلانو. وقبل مغادرة المدينة اتصلت بنيكولا داڤيون، الذي تحدثت عنه فيما مضى. فالتمس مني حمل رسالة الى تاجر من معارفه يقيم بڤيينا.

وغادرنا مدينة بودا في اتجاه مدينة تاتا (Tata). وهبي مدينة غير محصنة، ولكن يوجد بها قصر محصن يقيم فيه ملك المجر من حين لآخر. ومنها توجهنا الى مدينة جيور (Györ) الواقعة على نهر الدانوب. وبعدها مررت بالقرب من بلدة صغيرة هي عبارة عن جزيرة صغيرة على نهر الدانوب تقع في ملكية السيد رونيي بوت (Renier Pot)، رجل السياسة خادم سيدي دوق بورگونيا، الذي قام بدور دبلوماسي مهم في الاعداد لمعركة نقوبوليس، فأكرمه الامبراطور سجسموند بأن وهبه تلك البلدة. ومنها وصلنا الى مدينة بروك (Brück) التي لاقينا صعوبة جمة في الوصول اليها. لأنه ليس ثمة طريق يفضي اليها سوى مسلك ضيق يقع على امتداد مستنقع يفصل بين مملكة المجر ودوقية النمسا. وبدا لي بأن عددا قليلا من المحاربين يمكنهم حراستها من جهة النمسا، فلا يستطيع أحد التسلل اليها.

سابعا: المرحلة النمساوية

واصلنا المسير بعد مغادرة مدينة بروك قرابة لوقتين (deux lieues)، ودعني السفير بعدهما وأخذ وجهته نحو مدينة ميلانو. بينما اتجهت أنا نحو مدينة فيينا التي حللت بها بعد انصرام خمسة أيام منذ مغادرة مدينة بودا.

وقد لاقيت عند وصولي الى ڤيينا صعوبة في إيجاد من يأويني لأن الجميع اعتقد أنني تركي. وأخيرا وجدت عن طريق الصدفة فندقا كبيرا قبل صاحبه ايوائي رفقة مساعد البناء الذي قدم معي كخادم. ونظرا لكونه يعرف التحدث بالمجرية وبالألمانية، فقد استفسر صاحب الفندق عن التاجر الذي حملت اليه الرسالة. فبعث صاحب الفندق للتو في طلبه. وقد حضر بالفعل فسلمته رسالة نيكولا داڤيون، التي ذكر فيها اسمي وذكر فيها أنني خادم دوق

بورگونيا. وبعد أن اطلع عليها قال لي بأنه يضع نفسه رهن اشارتي لتلبية طلباتي. واتصل في الحين بالسيد ألبير (Albert) دوق النمسا[1]، الذي هو أحد أبناء عمومة سيدي دوق بورگونيا، فذكر له اسمي وأخبره بأنني حللت بفيينا. فبعث الدوق ألبير أحد رجاله يدعى سنيش (Senich). وبعده ببرهة قدم السيد ألبريخت البتندورفي (Albrecht de Pottendorf)، الذي حدث أن ألقيت عليه القبض، بمساعدة بعض رجال سيدي فليب الطيب، في منطقة بين الفلاندر وبرابنت. واعتقدنا عند القاء القبض عليه أنه أحد رجال فردريك دوق النمسا، الذي أعلن العصيان وتحدى سيدي دوق بورگونيا.

واعتقدت عند قدومه بأنه أتى ليأسرني كما فعلت معه. ولكنه على العكس من ذلك جاء مبعوثا من قبل السيد ألبير دوق النمسا للترحيب بمقدمي. وأخبرني بكونه رهن اشارتي لتلبية طلباتي. ومنحني كمية من الذهب ومبلغا ماليا وعددا من الخيول.

وبعد مرور يومين قدم هذا السيد ألبريخت عندي وطلب مني مرافقته لتحية السيد ألبير دوق النمسا. وعند حلولنا بالبلاط، كان الدوق قد انتهى للتو من أداء القداس. فاستقبلني وكان برفقته ثمانية أو عشرة من كبار الفرسان. وعندما قدمت له ما يليق من تحية، أخذ بيدي وأخبرني ألا أحدثه منذ تلك اللحظة وأنا جاث على ركبتي. واستفسرني عن أحوال سيدي دوق بورگونيا. فلمست من خلال استفساره بأنه يعز سيدي ويكن له التقدير

كان سيدي دوق النمسا طويل القامة نسبيا، أسمر البشرة. وبدا لي أميرا ودودا. وقد قيل لي بأنه رجل شجاع معطاء يدين له بالولاء كثير من نبلاء بوهيميا الذين طردهم الهوسيون (les hussites) بعد رفضهم اتباع مذهب جون هوس. وأذكر بالمناسبة أن سيدي ألبير كان قد استقبل منذ فترة قصيرة وفدا يرأسه أحد أكبر بارونات بوهيميا قدم الى ڤيينا لبحث سبل إيجاد حل توافقي لهذا الوضع. وقد قيل لي بأن الهوسيين أرادوا مساعدة ملك بولندا في حربه ضد البروسيين. وقدموا له عروضا مغرية أثارت حفيظة دوق النمسا الذي لا يرغب في عقد أي اتفاق مع الهوسيين. وقد سبق أن غزا بلاد موراڤيا وهزم الهوسيين مرتين.

وقبل مغادرة البلاط، قادني بعض الخدام الى جناح الدوقة عقيلة الدوق ألبير لتحيتها. وهي امرأة جميلة ابنة الامبراطور سجيسموند ووريثة عرشه.

---

[1] - هو ألبير الخامس. ولد في غشت سنة 1397 وتوفي في اكتوبر 1439. عين دوقا للنمسا بعد وفاة أبيه في شتنبر 1404.. ثم عين ملكا على هنغاريا وكرواتيا وبوهيميا بعد وفاة الإمبراطور سجسموند في دجنبر 1437.

وقد وضعت قبل فترة قصيرة مولودة. وليس لها حتى الآن غيرها. فاستقبلتني بدورها بحفاوة واستفسرتني عن أحوال سيدي دوق بوركُونيا وعقيلته. وعدت بعد تلك المقابلة الى مقر إقامتي مرفوقا بسادة أرفع مني مقاما.

وفي صبيحة اليوم الموالي، أتاني السيد ألبريخت مبعوثا من قبل سيدي دوق النمسا لدعوتي لحضور مأدبة العشاء على مائدته. فحضرت تلك المأدبة وجلست الى مائدته الخاصة. وقد جلس على نفس المائدة أحد كبار نبلاء النمسا ونبيل من المجر. وكانت تلك المائدة مربعة الشكل وضع فوقها صحن واحد مليئ بالطعام. شرع في تذوقه ضيف كان الصحن أقرب اليه نسبيا من الضيوف الآخرين. وتعد هذه الطريقة في بدء تناول الطعام من بين بروتوكولات الضيافة في البلاطات. بحيث لا يمد الدوق يده الى الطعام قبل الضيوف. ويجب أن يشرع في ذلك أي ضيف يكون الصحن أقرب اليه.

وقد حضر تلك المأدبة ضيوف آخرون من خدام الدوق. ولكنهم كانوا جالسين حول مائدة موضوعة في قاعة مجاورة للقاعة التي يتناول فيها الدوق وجباته. ولا يُجلِس كبير الطباخين حول مائدة الدوق الا الضيوف الذين أمره بأن يجلسوا معه حولها. وقد أعد الطباخون كمية كبيرة من المأكولات معظمها مكون من اللحوم والأسماك التي يستعملون في طهيها كميات من التوابل.

وبعد الانتهاء من مأدبة العشاء، قادني بعض الخدام الى جناح الدوقة لحضور حفل راقص. لم يحضره سوى كبار النبلاء وعقيلاتهم. وقد أهدتني الدوقة غطاءا يوضع فوق الرأس، يغطيه ويغطي الكتفين مصنوع من خيوط من ذهب وحرير كما وهبتني خاتما وقطعة من الماس وأمرت المكلف بالسهر على مجوهراتها بالاعتناء بي وتلبية طلباتي. فطاف بي في بعض أجنحة البلاط وأطلعني على ما به من نفائس. ومن ضمنها تاج مملكة بوهيميا المرصع بنفائس الحجارة. كما قادني الى جهة من البلاط توجد بها عينات من العربات لتي استعملها جنود الدوق، على شكل سلسلة الواحدة خلف الأخرى، للاختباء ورائها تجنبا لنبال الرماة البوهيميين. واستطاعوا بفضلها تقليل الخسائر في صفوفهم وهزم البوهيميين.

وأذكر أنني التقيت خلال ذلك الحفل الراقص بالسيد ڤالسي (Walsee)، حاكم الجهة الواقعة في الحدود مع بوهيميا. وهو كذلك كبير نبلاء النمسا ويأتي في المقام الثاني بعد سيدي الدوق ألبير. كما التقيت بالسيد جاك تروسي (Jacques Trousset) أحد كبار الفرسان. وقد ابتهجا لرؤيتي واحتفيا بي. كما التقيت بأحد المكافين بملاحقة المطلوبين. وهو يعمل لحساب

سيدي دوق النمسا. ويلقبونه هنا بالوحيد. كان قبل الالتحاق بالدوق يعمل لحساب أميرال اسبانيا. وقد تعرفت عليه قبل الحفل لأنه كان يأتي كل يوم الى مقر إقامتي ونذهب سويا لحضور القداس أو نذهب الى أي مكان آخر في المدينة. وحين كنت استعد لمغادرة فيينا، منحني كمية من المينا المزجج (des émaux)، قيمتها حوالي خمسين ماركا فضيا، واقترح على بيعها للحصول على بعض المال لاعتقاده بأنني أنفقت كل ما كان بحوزتي. والتمس مني ألا أخبر أحدا بما فعل لأنه رأى أنني لم أكن أقبل شيئا من أي أحد باستثناء سيدي دوق النمسا الذي رآه يمنحني مبلغا ماليا قبلته منه.

والتقيت خلال الحفل أيضا بالسيد روبير الابرسدورفي (Robert d'Ebersdorf) كبير حجاب دوق النمسا الذي زار منطقة الفلاندر متنكرا خلال السنة الماضية ورأى سيدي دوق بورگونيا ووقف على ما يحظى به من تبجيل. وتحدث عن ذلك كثيرا في دوقية النمسا.

وأذكر كذلك أنه كان من بين الحاضرين في الحفل رجل يسمى شينك (Schenk). وهو سقاء الامبراطور وأحد من يجالسونه من الخاصة عند احتساء النبيذ. وحين علم بأنني أحد خدام فليب الطيب دوق بورگونيا أخذ يتربص بي للامساك بي إذا سنحت له الفرصة لينتقم مني لأنه فقد أحد اخوته وأحد أصدقائه في معركة بولنفيل (Bulgnéville)[1]. وقد أشعَر الخدام سيدي دوق النمسا بهذا الأمر، فاستدعاني للجلوس بالقرب منه وأخذ يحدثني وأذن في ذات الوقت للسيد شينك بالانصراف.

وقد حضرت أثناء مقامي بفيينا ثلاث مجاولات في ثلاث مناسبات. ولاحظت أنه في كل تلك المجاولات كان الفرسان يمتطون خيولا قصيرة كما يفعل فرسان المجر. كانت أولى تلك المجاولات في باحة من باحات بلاط سيدي دوق النمسا بينما كانت الأخريتان في إحدى ساحات المدينة. ولاحظت في هاتين المبارزتين أن فارسين أصيبا بجروح فعلا. وقيل لي بأنه يحدث أحيانا أن يصاب أحدهم بجروح بليغة. كما رأيت عند حضور المجاولة الأولى السيد جاك تروسي وهو يحمل سلاحه ويجهز نفسه لخوض احدى المجاولات.

ولا بد أن أذكر في سياق رحلتي بأن مدينة فيينا مدينة كبيرة وفسيحة. يقيم بها عدد من التجار الأثرياء وعدد من الحرفيين الذين يمتهنون حرفا

---

[1] - وقعت في مطلع شهر يوليوز 1432 بنوفشاتو (Neufchateau) بمنطقة الفوج (Vosges) بسبب النزاع حول أحقية من يتولى السلطة غداة وفاة شارل الثاني دوق اللورين.

كثيرة. وهي مدينة محصنة جيدا تحيط بها أسوار وخنادق. بينما تقع احدى جهاتها على ضفة نهر الدانوب الذي يجري على امتداد الأسوار. وهي مدينة المتعة والمرح تقع في منطقة جميلة خصبة.

رأيت فيها بعض كتائب الجنود الذين يسهرون على حمايتها. فبدا لي أنهم أحسن تسليحا من جنود المجر. كانوا يرتدون دبليات (سترات) تغطي النصف الأعلى من أجسامهم. وهي عريضة نسبيا وسميكة. ورغم ذلك يرتدون فوقها هبركية (un haubergeon). وفي ميدان الوغى، يضع المحارب فوق الهبركية درعا واقيا. ويضع فوق رأسه خوذة.

يوجد في هذا الثغر النمساوي-البوهيمي فرسان يحملون أقواسا مستعرضة (أو عرادات) (des arbalètes). أما في المجر، فيوجد قواسون (رماة النبال) يستعملون أقواسا مثل تلك التي يستعملها الأتراك ولكنها أقل صلابة. ولاحظت أن بعضهم لا يحسن استعمالها.

أعود لسياق رحلتي، فأذكر أنني ذهبت لتوديع سيدي ألبير دوق النمسا وعقيلته. وعندما هممت بالانصراف سألاني إن كنت في حاجة لأي شيء معتقدين أنني أنفقت كل ما كان لدي من مال. ولكن أخبرتهما، كما فعلت في السابق مع غيرهما، بأن سيدي دوق بورگونيا منحني من المال ما يزيد عن حاجتي، وما زال لدي ما يكفي لاستكمال رحلتي. عندها استدعى سيدي ألبير السيد ڤالسي (Walsee) والسيد جاك تروسي (Jacques Trousset) وطلب منهما أن يتعهداني، خاصة وأنهما كانا سيغادران فيينا ويسلكان الوجهة التي سأسلكها.

ومن فيينا اتجهت صوب مدينة سانت بولتن (Sankt Pölten) التي تشتهر بكونها مدينة تصنع بها أجود السكاكين. وقد وصلت اليها بعد يومين من مغادرة فيينا. ومنها توجهت الى مدينة ميلك (Melk) الواقعة على نهر الدانوب والتي يوجد بها أحد أجمل الأديرة البندكتية. وبها تصنع أجود الأقواس المستعرضة (الرعادات). ونهر الدانوب هذا الذي ذكرت بأن المدينة تقع بالقرب منه، يجري في اتجاه الشرق صوب مدينة بودا. ثم يغير مجراه نحو الجنوب الى بلغراد. ومن هناك يجري مرة أخرى في اتجاه الشرق بين بلغاريا والمجر. ثم يصب في البحر الأسود.

ومن مدينة ميلك وصلت الى مدينة ڤالسي التي ينتسب اليها كبير نبلاء النمسا الذي كان رفقتي. وعند وصولنا طاف بي في قصر منيع يقع على

صخرة مطلة على نهر الدانوب. وأراني به مجموعة من الملابس الفاخرة المطرزة والمزينة بالحجارة الكريمة لم يسبق أن رأيت مثلها.

وقد قضيت الليلة في ضيافته. وفي صبيحة اليوم الموالي قدم لزيارته أحد نبلاء بوهيميا، فأراد السيد جاك تروسي أخذه ليجعله يقف بالقرب من نبتة زعرور شائك تقع عند مدخل القصر لإذلاله. ولكن السيد ڤالسي تنبه بسرعة للأمر، وأشار للسيد تروسي بألا يفعل احتراما لضيفه ولصون كرامته. فقال له السيد تروسي طالما أن البافاري أتى حتى هنا، فيجب أن يعامل بتلك الطريقة. فاقترب السيد ڤالسي من ضيفه وحاول استدراك الموقف.

وقد علمت فيما بعد لماذا أراد السيد تروسي اذلال الضيف الباڤاري لأن كلاهما ينتمي الى تنظيم سري ويعرف بعضهما البعض.

وفي اليوم الموالي توجهت صوب مدينة إنز (Enns) الواقعة على نهر يحمل نفس الاسم. ومنها اتجهت صوب مدينة إبلسبرغ (Ebelsberg) الواقعة بدورها على نفس النهر. ومنها الى مدينة لينز (Linz). وهي مدينة مهمة تقع على الحدود مع بوهيميا وتخضع لسلطة السيد ڤالسي. وقد قمت بمناسبة حلولي بها بزيارة عقيلة هذا الأخير. وهي سيدة من أصول بوهيمية، رحبت بي وأكرمت وفادتي وأهدتني حصانا جميلا جيد الركض وقبعة مرصعة بأحجار كريمة.

وبمدينة إنز، ودعت السيد ڤالسي وعقيلته وانطلقت رفقة السيد جاك تروسي (Jacques Trousset) صوب مدينة افردينغ (Eferding) التي يحكمها القمط شومبورگ (Schaumburg). وتمثل هذه المدينة نهاية المجال الترابي الخاضع لنفوذ دوقية النمسا. وقد مضت ستة أيام منذ مغادرتي لفيينا حتى وصولي الى هذه المدينة.

ثامنا: المرحلة الباڤارية

ومن مدينة افردينغ وصلت الى مدينة ريد (Ried) الواقعة في دوقية بڤاريا التي يحكمها هنري الباڤاري (Henri de Bavière). ومنها الى مدينة براوناو (Braunau) الواقعة على نهر إن (Inn). ومنها الى مدينة بورغهاوزن (Burghausen) التي دخلت اليها بعد عبور نهر إن الذي يقع على ضفته قصر (شاتو) جميل. ومنها وصلت الى مدينة مولدورف (Mühldorf) التي دخلت اليها هي الأخرى بعد عبور نهر إن. ومنها اخترقت الأراضي الخاضعة لسلطة الدوق لويس الباڤاري واتجهت صوب

مدينة ميونيخ (Munich)، المدينة الصغيرة الجميلة التي تخضع لسلطة الدوق غليوم الباڤاري (Guillaume de Bavière). ومنها وصلت الى مدينة لاندسبيرغ (Landsberg). وحين غادرتها كنت قد خرجت من بلاد باڤاريا ودخلت الى المجال السوابي (la Souabe). وكانت مدينة ميندلهايم (Mindelheim) أول مدن هذا المجال التي دخلتها. وواصلت المسير في مسلك يعبر هضبة ممينجن (Memmingen) حتى المجال الترابي الخاضع لسلطة السيد جاك تروسي. فقادني الى أحد القصور التي يملكها ويدعى قصر ڤلبورغ (Walburg) الذي أقمت به يومين أو ثلاثة أيام في انتظار عودة السيد تروسي الذي ذهب لزيارة صديق كان ملتزما معه بموعد. فأمر قبل انصرافه خدامه بالاعتناء بي وتلبية طلباتي كما يفعلون معه شخصيا. وبعد عودته ودعته واتجهت صوب مدينة رافنسبورغ (Ravensburg) الخاضعة لسلطة الامبراطور. ومنها اتجهت الى مدينة ماركدورف (Markdorf). ومنها الى مدينة ميرسبورغ (Meersburg) الواقعة على ضفاف بحيرة كونستانس (Constance) التي عبرتها على متن زورق. وأعتقد أن عرض هذه البحيرة عند المكان الذي عبرتها منه قد يصل الى حوالي ثلاثة أميال. وبعد عبور هذه البحيرة، واصلت المسير صوب مدينة تحمل اسم البحيرة. وغادرت هذه المدينة وعبرت نهر الراين (le Rhin) الذي يحمل هذا الاسم بعد انطلاق مجراه من البحيرة التي تحدثت عنها.

وبعد عبور النهر، ودعني السيد جاك تروسي وعاد أدراجه وترك معي أحد خدامه لمرافقتي أطول مسافة ممكنة. وقد ودعته وأنا جد متأثر من طيبوبة هذا الفارس النبيل المشهور بين الألمانيين بدماثة خلقه. وكان من الممكن أن يستمر في مرافقتي، ولكنه كان مضطرا للعودة نظرا لكونه كان ملتزما بالاشتراك في مجاولة مبرمجة منذ فترة. وذكر لي بأن تلك المجاولة سيشترك فيها كذلك السيد ڤالسي (Walsee) الذي يعتبره مثل أخيه. وستدور بين فريق من ثلاثة عشر فارسا ضد فريق آخر باستعمال الرماح. وهو ذائع الصيت في هذا المجال كما في الحروب على أرض المعركة. وقد أراني في قصره السالف الذكر بعض أنواع الأسلحة التي يتقن استعمالها.

وواصلت المسير في اتجاه مدينة شتاين (Stein) التي عبرت منها نهر الراين مرة أخرى وواصلت الرحلة على امتداد احدى ضفتيه في اتجاه مدينة شافهاوزن (Schaffhouse) الواقعة على هذا النهر والتي تدخل ضمن مجال نفوذ الامبراطور سجسموند. ومنها وصلت الى مدينة فلدزهوت (Waldshut) الواقعة على نهر الراين والتي تدخل ضمن مجال نفوذ الدوق فردريك النمساوي (Frédéric d'Autruche). ومنها واصلت المسير في

اتجاه مدينة لاوفنبورغ (Laufenburg) الواقعة بدورها على نهر الراين والخاضعة كذلك للدوق المذكور. ومنها وصلت الى مدينة راينفيلدن (Rheinfelden) التي تقع هي الأخرى على نهر الراين وتخضع لسلطة الدوق فردريك النمساوي. ومنها وصلت الى مدينة بال (Bâle) الخاضعة لسلطة الامبراطور سجسموند. وهي التي انعقد بها المجمع الديني الشهير[1]. وبمجرد أن أبلغ حاكمها غليوم الباڤاري (Guillaume de Bavière) بمقدمي، بعث من رجاله من استقبلني وقادني الى مقر إقامته. وقد استقبلني فعلا بمعية الدوقة عقيلته.

وقد عاينت فور وصولي جلسة من جلسات ذلك المجمع التي كان يحضرها كل من الدوق بوصفه ممثلا للامبراطور سجسموند والكاردينال غليانو سيزريني (Giuliano Cesarini) ممثلا لقداسة البابا أوجين (Eugène) وعدد آخر من االكردينالات، قد يكون عددهم سبعة بالإضافة الى عدد من البطارقة والأساقفة والقساوسة. والتقيت بمناسبة انعقاد هذه الجلسة ببعض خدام سيدي دوق بورگونيا مثل جون جرمان (Gean Germain) أسقف شالون (Châlon) ومستشار الدوق فليب الطيب والسيد جيلبير دو لانوا (Gilbert de Lannoy) نبيل قمطية ڤيلرڤال (Willerval) والكاردينال غليوم الإستوتڤيلي (Guillaume d'Estouteville) الذي طرح علي أسئلة كثيرة حول اليونان والتمس مني أن أبلغ سيدي الدوق رغبته في غزو هذا البلد الذي يحبه كثيرا.

تاسعا: برتراندون دو لا بركيير يدخل مجال دوقية بورگونيا عائدا من رحلته

وحين عولت على مغادرة مدينة بال، ودعت خادم جاك تروسي الذي كان يرافقني. فعاد أدراجه، بينما واصلت رحلتي الى بورگونيا رفقة المنشد الرئيسي (un chantre) لكنيسة ليون (Lyon). فممرت بقمطية فريتي (Ferrette) الخاضعة لنفوذ الدوق فردريك النمساوي (Frédéric d'Autruche) حتى وصلت الى مدينة گرانفيلار (Grandvillars). ومنها وصلت الى مدينة منيليار (Montbéliard). ومنها دخلت الى المجال البورگوني الخاضع لسلطة سيدي فليب الطيب الذي هو كذلك دوق برابنت

[1] ـ انعقد ذلك المجمع في 23 يوليوز 1431 بمدينة بال وظلت أشغاله منفتحة ومتنقلة بين عدة مدن حتى سنة 1449 بسب الانقسامات الدينية وواختلاف وجهات نظر رجال الدين الذين حضروه.

(Brabant). واتجهت صوب مدينة بيزنسون (Besançon). ومنها اتجهت الى مدينة ڤيزول (Vesoul). ومنها الى مدينة ڤيلنوڤ التي أرتأيت أن أسلك منها الطريق المفضي الى ثغر بار وفلاندرز (Bar et Flandres) وأتمكن بذلك من الالتقاء بسيدي الدوق. ولكن بلغني قبل مغادرة المدينة أن سيدي الدوق يوجد في موضع يقع في الشمال عند مدخل الدوقية وأنه يضرب الحصار على بلدة موسي- لڤيك (Mussy-l'Évêque)[1]، ولذلك عدلت عن الفكرة وغادرت مدينة ڤيلنوڤ (Villeneuve) في اتجاه مدينة أوكسون (Auxonne). ومنها اتجهت الى مدينة ديجون (Dijon) حيث اتصلت بالسيد نيكولا رولان (Nicolas Rolin) رئيس الجهاز الإداري والتمست منه مرافقتي للذهاب لملاقاة سيدي الذي كان يوجد بدير بوتيير (Abbaye de Pothières). فخصني عند الوصول باستقبال حار. ومثلت بين يديه وأنا مرتديا الألبسة التي اشتريتها من دمشق[2]. فقدمت له الحصان الذي اشتريته من دمشق ومنحته كل المتاع الذي اشتريته ونسخة من المصحف والمسودة التي خطها رجل الدين الملحق بقنصلية البندقية بدمشق. وقد كانت طويلة ومكتوبة باللغة اللاتينية فقدمها سيدي الدوق للسيد جون جرمان (Jean Germain) عالم اللاهوت ليقوم بفحص محتواها. ومنذ ذلك اليوم لم أراها قط، لأن السيد جون جرمان تم تعيينه بعد ذلك مباشرة أسقفا في مدينة شلون (Chalon-sur-Saône).

وحتى هذا الحد، أتحفظ عن الحديث مطولا عن الأوضاع في البلاد الممتدة من فيينا حتى هنا لأن عددا كبيرا من الناس يعرفونها جيدا ويعلمون أن ما قد أقوله حولها يجانب الصواب أم لا، أما البلدان الأخرى التي تحدثت عنها فيما مضى والأماكن التي مررت بها وأتيت على ذكرها، فأتمنى ألاّ يعتبر القارئ أن ما قلته حولها يراد من ورائه تحقيق المجد أو إبراز الذات أوالتباهي. فكل ما قمت به كان لسببين: الأول هو الإرشاد، حتى إذا ما خطر ببال رجل نبيل أن يذهب الى تلك الجهات، سيجد فيما كتبته حولها دليلا وسيكتشف ساعتها ان كنت قد قلت الحقيقة أم لا. والثاني هو الاستجابة لطلب سيدي، مهاب الجانب، دوق بوركونيا، الذي أمرني بكتابة رحلتي انطلاقا مما كنت أسجله في كتيب من ملاحظات وانطباعات كلما أتيحت لي فرصة الكتابة.

---

[1] - تقع في شرق فرنسا على بعد 100 كلم من مدينة ديجون (Dijon)

[2] - هي الألبسة التركية التي ظل متنكرا بها طوال الرحلة.

وإذا ما لاحظ البعض أن هذا النص الرحلي ليس مكتوبا بنفس الطريقة التي استطاع أن يكتب بها آخرون، فإنني ألتمس منهم المعذرة.

[ملحق]

تقرير يوحنا طورسيلو وتعقيب برتراندون دو لا بركيير عليه

أولا: تقرير يوحنا طورسيلو

انطلاقا من كوني واحد من المسيحيين الأتقياء المخلصين، فكرت، بعد أن وجدت نفسي في بلاط كبير الأتراك لمدة اثنتي عشر سنة، أن أتحرى حول طبيعة سلطته وحول الطريقة التي يدير بها كيانه حتى أتمكن من اطلاع الأمراء المسيحيين المخلصين عليهما، راجيا أن يولوا هذا الأمر كل الحب والعناية من اجل خلاص أرواحهم.

فأقول بادئ ذي بدء، بأن القوات التي يمكن أن يستنفرها كبير الأتراك لقتال المسيحيين وغزو أراضيهم يمكن أن تبلغ حوالي مائة ألف فارس. من بينهم عشرون ألف هم تحت إمرته مباشرة. عشرة آلاف منهم مسلحون بشكل جيد. والآخرون عزل، يستعملون الأقواس والنبال والدروع. وبالإضافة الى هؤلاء عشرة آلاف جندي من المشاة لا يستعملون سوى السيوف والأقواس ولا يتوفرون على دروع (تروس).

يمكن إلحاق الهزيمة بهذا الجيش والسيطرة على القدس في حوالي شهر. ولتحقيق ذلك، يجب على المسيحيين إستنفار ثمانين ألف مقاتل. ويجب أخذ الطريق الذي يمر عبر هنغاريا (المجر) حتى نهر الدانوب. ويقتضي ذلك توفير مراكب لعبور النهر ثم تقسيم المقاتلين الى ثلاث فرق: الأولى رئيسية تتألف من خمسين ألف مقاتل تتجه الى مدينة ڤدين (Vidin ou Vidine) الواقعة على ضفة نهر الدانوب. والثانية تتألف من عشرين ألف تتجه صوب مدينة بلغراد الواقعة أيضا على احدى صفتي نهر الدانوب. ومن هنا تصل هذه القوات الى بلاد اليونان[1] التي أقول حول أوضاعها ما يلي:

---

[1] ـ المقصود منطقة الروميلي التي تمثل اليونان جزءا منها.

هي خاضعة لثلاث زعماء مسيحيين. أحدهم حاكم راسيا (la Rascie). وهو خاضع للأتراك يدفع لهم الجزية. أراضيه متاخمة لهنغاريا (المجر). وهو قائد شجاع باسل يوجد تحت قيادته اربعون ألف فارس في أتم استعداد. ويمكن، عند رؤية مقدم المسيحيين، أن ينضم إليهم ويتمرد ضد الأتراك ويساعد على هزمهم..

وهناك ألبانيا، المؤلفة من مقاطعتين. يمكن أيضا أن يتمرد حاكماهما ضد الأتراك وينضما الى المسيحيين بعشرين ألف فارس.

وهناك إمارة مورية (La Morée) التابعة لسيدي الامبراطور الذي يمكن أن يضع رهن إشارة المسيحيين خمسة عشر ألف رجل في أتم الجهوزية.

ويمكن لجميع القوات السالف ذكرها، أن تجتمع في ظرف ثمانية أيام. وتلتحق بالفرقة المؤلفة من عشرين ألف محارب المتجهين نحو مدينة بلغراد.

وبالإضافة للقوات السالف ذكرها، يمكن الاعتماد أيضا على مقاتلين مسيحيين، تعدادهم أكثر من خمسين ألف رجل، يوجدون تحت قيادة الأتراك. سيتمردون بمجرد رؤيتهم للقوات المسيحية. وهم الذين يمكن التعويل عليهم في هزيمة الأتراك.

وبالإضافة الى ما قيل، هناك عدد كبير من المسيحيين يدفعون للأتراك جزية مفروضة عليهم. سيتمردون من دون شك وينضمون للمسيحيين.

ولا بد من التنبيه الى أن فرقة القوات المسيحية المؤلفة من خمسين ألف مقاتل، والمتجهة الى مدينة ڤدين كما سبق القول، يجب أن تظل في المقدمة. وتتجه بانتظام نحو أندريانوبل (أدرنة) الحاضرة الرئيسية للأتراك. فتضرب عليها الحصار في انتظار قدوم القوات المساندة. ويمكن أن تهزم الأتراك لأنهم لن يستطيعوا طلب الامداد بفعل هذا الحصار.

يجب التذكير بأن المسيرة بين مدينتي ڤدين وأندريانوبل تقدر بخمسة عشر يوما على ظهر الحصان. ستقوم بهذه المسيرة، عبر مدينة بياترا (Piatra)، الفرقة الثالثة المؤلفة من عشرة آلاف فارس. وسيعزز صفوفهم حاكم ڤلاشيا (la Valachie) بخمسة آلاف فارس، يعدون من أشرس مقاتلي العالم. فضلا عن الدعم الذي سيقدمه لهم حاكم مقاطعة مانيسا (Manisa ou Zagora).

واعتمادا على القوات السائرة وفق الخطة المذكورة، يمكن هزم الأتراك في أقل من شهر بعون الله. ويعتبر دور اليونان في المعركة حاسما. ولكنه لن يكون على هذا النحو الا بتوفير عشرين قطعة بحرية مجهزة تمنع

الأتراك من تقديم العون والإمدادات لليونان. وفيما يتعلق بهذه القطع، يمكن طلب المساعدة من البندقيين ومن القطلانيين، الذين لن يترددوا في القيام بذلك لرغبتهم في تحرير بعض مقاطعاتهم من قبضة الأتراك.

ولتحقيق هذا المبتغى وإنجاح جميع المساعي، أقترح أن يضع أبونا القديس البابا هذه المعرك الكبرى تحت قيادة أحد الأمراء المخلصين الغيورين القادرين على تحقيق المبتغى. وتكون باسم المسيحية لكي يتسنى توفير الأموال الضرورية لتغطية جميع النفقات كمرتبات المحاربين وما الى ذلك.

ومما لا شك فيه، أن ممالك أخرى، مثل ألمانيا وهنغاريا وبوهيميا وكرواتيا، الواقعة بمحاذاة موطن الأتراك، والتي تلقت الهزيمة على أيديهم، ستنظم للمعركة الحاسمة بحوالي مائة ألف مقاتل.

وسيكون العبور من هنغاريا الى اليونان [بلاد روميلي] عبر نهر الدانوب سهلا. وإذا تحقق ذلك، لن تكون هناك صعوبات وسيلتحق بالحملة كل من رغب في ذلك.

لا داعي للتذكير بأن السيطرة على اليونان [بلاد روميلي] هي مفتاح السيطرة على القدس. ويمكن أن تتحقق هذه السيطرة في ظرف شهر كما ذكرت. لأن الاستيلاء على اليونان سيسهل كل شيئ. فضلا عن كونه سيجعل أكثر من مائة مركب حربي ومائة ألف محارب رهن اشارة المسيحيين.

أعود لأذكّر بأنه بين مدينتي ڤدين وأدرنة مسيرة خمسة عشر يوما. وبين أدرنة والقسطنطينية ثلاثة أيام. وبين ادرنة وڭليبولي (Gallipoli) الواقعة على البحر مسيرة ثلاثة أيام. وإذا ما نجحت القوات في الوصول الى ادرنة، لن يكون آنئذ أي شيئ يمكن خشيته، لأن جميع المقاطعات والمناطق ستتمرد ضد الأتراك. وان المناطق الواقعة في قلب تركيا بالذات هي التي ستعمل على تدمير كيانهم.

ثانيا: تعقيب برتراندون دو لا بركيير على التقرير

أنا برتراندون دو لا بركيير، سيد القصر القديم، المستشار والقاطع الأول (premier écuyer tranchant) لدى سيدي المبجل فليب الطيب دوق بورڭونيا وبرابنت، اطلعت على التقرير الذي أعده السيد جون طورزيلو (طورسيلو)، الفارس، خادم وحاجب امبراطور القسطنطينية،

والذي يحث فيه الزعماء المسيحيين على غزو بلاد اليونان وتركيا والأرض المقدسة.

فقد قدم لي سيدي نسخة منه بعد عودتي عبر البر من القدس الى فرنسا وطلب مني ترجمتها من اللغة الفلورنسية الى اللغة الفرنسية وإدراجها كملحق ضمن الكتاب الذي يتناول رحلتي والذي أشرف على اعداده الأستاذ يوحنا ميلو (Jehan Mielot) أسقف كنيسة القديس بطرس بمدينة ليل وكاتب سيدي االمهاب.

ويبدو لي أن تقرير السيد طورسيلو جيد ويتطابق مع الحقيقة تبعا لما عاينته شخصيا. وخاصة ما ذكره عن تعداد قوات التركي [كبير الأتراك]. حيث يوجد تحت إمرته ما بين مائة ومائة وعشرين ألف رجل. من بينهم أربعون ألف راجل لا يرتدون ملابس واقية أو ما شابه ذلك. يستعملون السيوف فقط. أما بخصوص العشرين ألف مقاتل الذين ذكر السيد طورسيلو بأنهم يشكلون حرسه الخاص على الدوام، فأعتقد أنهم عشرة آلاف. هم بمثابة عبيده. يضعون على رؤوسهم قبعات بيضاء. وقد رأيت بعضهم. وفي الوقت الذي وصلت فيه الى تلك المنطقة كان [كبير الأتراك] يزحف على تيساليا بواسطة [قيالق] من بين هؤلاء العشرة آلاف، الذين يسميهم البعض بالإنكشارية، والذين يثق فيهم ثقة عمياء. وقد تلقوا هزيمة على يد الألبانيين. أما عن تقديرات القوات الأخرى، فأشاطر السيد طورسيلو الرأي بشأنها رغم أنني لم أر جميع االمقاتلين في الميدان يستعملون السلاح ويخوضون الحرب

أما عن المسالك الثلاث التي اقترح السيد طورسيلو عبورها لدخول اليونان، أستطيع القول إنني أعرف طريق بلغراد المار عبر صوفيا. ولا أستطيع الحديث عن طريق ڤدين. ولكن أتفق معه في إمكانية استعمال الطريق الرابط بين هذه المدينة وأندريانوبل. إذ يمكن أن تسلكه العربات المحملة بما يلزم من مؤونة لجيش ضخم. كما توجد بين المدينتين مدن وبلدات كثيرة لا توجد على الطريق المتجه صوب بلغراد.

أما عن إمكانية انضمام قوات للفرقة المؤلفة من عشرين ألف مقاتل، التي تحدث عنها السيد طورسيلو واقترح أن تسلك طريق بلغراد، فيجب اعادة تقييمها لأن الوضع تغير الآن. فقد أقصى الأتراك "مستبد" راسيا عن معظم أراضي راسيا وصربيا التي كان يحكمها. ولم يعد له نفوذ كما كان ذلك زمن اعداد التقرير من قبل السيد طورسيلو. أما إذا أراد السلاڤيون والألبانيون الإنضمام الى قوات الأمراء المسيحيين، فسيكونون في مأمن من

أي هجوم تركي عبر طريق ڤدين. وسيحدث العكس إذا ما سلكوا طريق بلغراد.

وأعتقد أن مسألة دخول اليونان من قبل قوات الأمراء المسيحيين، تقتضي إحاطة السلاڤيين والألبانيين علما بها. لأنه لا يمكن الجزم بأنهم سيقبلون ذلك. وفي حالة قبولهم، يجب الاتفاق مع قادتهم حول المكان الذي سيلتحقون فيه بتلك القوات وحول أعداد المقاتلين الذين سيقومون بذلك. وأعتقد أن يكون عددهم محدودا خلافا للعدد الضخم الذي اقترحه السيد طورسيلو.

وأظن في هذا الإطار، أنه ليس من الضروري استنفار أعداد ضخمة من المقاتلين لتدمير كيان الأتراك. إذ يمكن الاعتماد على قوات منتخبة يشترك فيها عدد كبير من مستعملي الأقواس من مقاتلي فرنسا وأنجلترا وايكوسيا. ويكون بعضهم ممتطيا الخيول. ويمكن دعمهم بعدد من الفرسان الألمان الحاملين للخوذات وبعدد من المقاتلين الجِنَويين والفرنسيين والكَسكونيين والقطلونيين من حملة الأقواس المعدنية وكل المحاربين من الذين هم على شاكلتهم. لأن الأتراك لا يستعملون في المعارك سوى السيوف والأقواس وتروسا خشبية صغيرة الحجم. ويضعون فوق رؤوسهم، تحت العمائم، نوعا من القبعات المصنوعة من خيوط صلبة تقيهم ضربات السيوف. وسيكون مفيدا جدا استعمال وحدات من "المدافع الرشاشة" (les ribaudequins) في المقدمة. كما تعود سيدي على الاستعانة بها في معاركه.

وخلافا لما اقترحه السيد طورسيلو حول جعل فرقة في مقدمة الجيش، أعتقد، وفق ما تواتره الذين عاينوا المعارك التي خاضها الأتراك، كما ذكرت ذلك في كتابي، أن هؤلاء يعتمدون على فرقة في المقدمة وأخرى في المؤخرة. فيجب أن تكون الصفوف متقاربة ومنظمة على هذا المنوال. ويكون في المقدمة محاربون يعرفون جيدا الطرق المستعملة من قبل الأتراك في المعارك، لأن هؤلاء أذكياء ويباغتون العدو. كما يجب أن يتخلل الصفوف عدد من مستعملي الأقواس العادية والأقواس المستعرضة. لأن الأتراك يعتمدون كثيرا على محاربين يستعملون هذان النوعان من السلاح.

وأظن أنه يستحسن عدم بدء المعركة حتى يشرع المقاتلون الأتراك في ملاحقة المسيحيين لأن لهم أسلوبا خاصا في القتال كما يقال. فهم يتظاهرون بالفرار لخداع المسيحيين الذين يلحقون بهم فيتعبوهم. وتحصل بعد ذلك الكارثة في أوساطهم. فيقومون بهزمهم لأنلأن المقاتلين الأتراك أخفاء لا يرتدون لباسا واقيا يعيق حركتهم ويمتطون خيولا خفيفة سريعة الركض.

فيقومون، أثناء الركض، باستعمال النبال تجاه ملاحقيهم بطريقة قوية صائبة أحسن حتى من طريقة استعمالها عند القنص. وعلى العكس من ذلك، فإن المقاتلين المسيحيين أقل خفة لأنهم مدججين بالسلاح ويمتطون خيولا ضخمة ثقيلة الحركة، فينجح الأتراك، وهم يتظاهرون بالفرار، في خلق البلبلة في صفوفهم واصابة الرجال والخيول أثناء مطاردتهم. وهم يتوفرون على طبول صغيرة مربوطة في مؤخرة سروج خيولهم، يقرعونها أثناء التظاهر بالفرار ثم يتصايحون فيتجمعون كما تجتمع الخنازير عند سماع صياح بعضهم البعض. وعندما يجتمعون في وقت يكون فيه المسيحيون في حالة بلبلة واختلال، تخيلوا وقتها كيف ستكون النتيجة التي تترتب عن ذلك.

وبالنظر لطبيعة المعركة، فيجب أن تدور وقائعها تحت راية الصليب الذي يجب أن يحمله الأمراء والنبلاء وجميع المحاربين. وليس من الضروري أن تكون أعداد هؤلاء االمحاربين كثيرة. فالأفيد، الاعتماد على الحرفية، بحيث يكون من بين المقاتلين عدد من أولائك الذين يحسنون استعمال الأقواس والنبال. ويستحسن كذلك أن يكون في المقدمة عدد من هؤلاء، لأن معظم الأتراك يستعملون الأقواس والنبال. ويجب أن يبادر المسيحيون الى استعمالها قبل أن يشرع الأتراك في ذلك. ويستحسن أن تكون فرق المحاربين متقاربة لاستدراج الأتراك لقلب المعركة. وإذا ما حدث بعون السيد المسيح أن لاذوا بالفرارلخلق البلبلة في أوساط المسيحيين، فيجب الحرص على الانضباط. وإذا حدث أيضا أن أراد الأتراك عبور مضيق، فيجبب الانتظار الى أن يعبر عدد منهم عندئذ يلاحقهم مقاتلو المقدمة لضربهم من الخلف ويسندهم مقاتلوا المؤخرة عند الاقتضاء للقضاء على أكبر عدد منهم. ومن شأن ذلك أن يربكهم ويحدث البلبلة في أوساطهم. وأظن أن حكمة القيادة وانضباط المسيحيين سيكونان في غير مصلحة كبير الأتراك وسيؤدي به ذلك الى الهزيمة أو يضطره الى التخلي عن اليونان لعدم حصانة حدودها التي لاحظت أثناء عبوري لها أنه لا توجد بها أبراج حصينة. كما أن أسوار معظم مدنها مدمرة باستثناء القسطنطينية وحصن إبسالا، ولذلك سيضطر كبير الأتراك الى استنفار عدد كبير من المحاربين للدفاع عنها فيضطر للتخلي عنها وينهزم.

ولا بأس أن يتوفر المحاربون على سيوف حادة ورماح قصيرة نسبيا وخفيفة شبيهة بتلك القطع الحديدية التي تصنع منها الرماح المسماة بألسن الثيران.

ولا بأس كذلك من الاستعانة بمخبرين من عين المكان يطلعون على المواقع قبل أي اشتباك تفاديا لأية مفاجأة من جانب الأتراك.

والملاحظ أن السيد طورسيلو لم يتحدث في تقريره عن مسألة العدالة التي لا يمكن قيادة الحملة بدون توفرها. وعليه، يجب على الزعماء المسيحيين اصدار مراسيم تمنع المحاربين وعموم الناس من الاعتداء على ممتلكات بعضهم البعض أو الاعتداء على ممتلكات الغير وخاصة ممتلكات المسيحين كما حدث في الماضي. ومن يقوم بذلك يلقى العقاب. كما يجب اصدار مراسيم لحماية التجار الذين سيرافقون الحملة لتزويد الناس بما يحتاجون اليه من بضائع. وعلى الجميع الامتثال لأوامر الأمراء والقادة تفاديا لما من شأنه اثارة النزاعات أو الانشقاق التي قد تترتب عنها عواقب وخيمة.

وبناء عليه، فيجب الامتثال لأوامر الأمراء والقادة حتى دخول بلاد اليونان، بل وحتى تجاوز حالة الحرب لأن الأخطار ستكون محدقة ولأن الأتراك مجدون قادرون على أن يقطعوا في يوم واحد المسافة التي يمكن أن يقطعوها في يومين أو ثلاثة أيام سيرا على الأقدام.

وأنبه في هذا المضمار، بأن كبير الأتراك يحكم كيانا شاسع المساحة ممتد الأطراف. وهو مطاع من قبل الجميع. لم أر قط زعيما مطاعا أكثر منه. وقد حدثني كثير من الأتراك عن هذا الأمر. ولذلك لا يجرؤ أحد على عصيانه أو مخالفة أوامره مخافة فقدان حياته. وهو لا يستثني أحدا عندما تقتضي الضرورة ذلك. والأتراك كما عرفتهم مجبولين على الجد والاجتهاد ويعرفون كيف يحققون مبتغاهم عند الاقتضاء.

أما بخصوص عملية السيطرة على القدس، فلا أعتقد أنها ستكون سهلة. وتتحقق في أقل من شهر عبر البر كما ذكر السيد طورسيلو. ولا أظن أنه سلك هذا الطريق. أما فيما يتعلق بالطريق البحري، فأترك هذا الأمر لمن هم أدرى به.

والمحصلة، هي أن ما ننوي الإقدام عليه، نبتغي منه مرضاة الله والسيد المسيح. وقلوبنا مفعمة بالتقوى والايمان وليس بحب المجد الزائف

وألتمس من سيدي المهاب الجانب أن يتقبل تعقيبي وما عبرت عنه من نصائح بناءا على تقرير السيد يوحنا طورسيلو. وإذا ما كان ثمة أمر يمكن أن يخدم مصلحة المسيحيين، فليتفضل به سيدي. وأرجو أن يحظى ما عبرت عنه برضاه. فقد قمت به على قدر فهمي وادراكي المحدود. وأرجو أن يوفق الله الجميع لخير المسيحية ولشرف سيدي المهاب دوق بوركونيا"[1].

---

[1] - ورد تعقيب برتراندون دو لا بركيير في الصفحات 267- 274.

الفصل الرابع
ملاحظات حول مشاهدات برتراندون دو لا بركيير
وانطباعاته خلال مراحل الرحلة

يتضمن نص رحلة برتراندون دو لا بركيير معلومات غزيرة جدا حول مناطق شرق المتوسط التي زارها. وتتعلق تلك المعلومات بمختلف الجوانب والمناحي، الطبيعية والتاريخية والجغرافية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والدينية. فضلا عن معلومات غزيرة تتصل بعادات وتقاليد ومنظومة قيم بعض مجتمعات تلك المناطق.

ويبدو هذا الأمر منطقيا إذا علمنا بان نص الأصلي للرحلة طويل نسبيا، يتألف من 274 صفحة من القطع الكبير في النسخة التي وضعها شارل شيفر. سجل فيها الرحالة كل ملاحظاته وانطباعاته خلال السنة ونصف التي استغرقتها رحلته.

والجدير بالذكر أن تلك الملاحظات والانطباعات لا أثر فيها للانبهار أو الغرائبية لأنها كانت محكومة بمقتضيات نص الرحلة الذي هو عبارة عن تقرير "استخباراتي" في المقام الأول. وفضلا عن ذلك يسمح زخم الانطباعات والملاحظات بالقول بأن الرحالة كان مرهف الحس، متوقد الذهن، خلال المدة التي استغرقتها رحلته. فأبدى ملاحظات أحيانا حول أمور دقيقة قد لا يعيرها غيره اهتماما.

ويكفي أن نذكر في هذا المقام، أنه لم يفته أن يتحدث عن المسالك التي كان الفرس بسير فيها بصورة جيدة وتلك التي كان يلاقي فيها صعوبة. كما لم يفته أن يشير الى الطرق، أو الوسائل، التي استعملها في عبور الأنهار. فهناك تلك التي عبرها عبر قنطرة وهناك التي عبرها بواسطة مركب. ولم يفته أن يشير الطريقة التي كان يتناول بها أعضاء القافلة التي انضم اليها بضعة أيام طعامهم وطريقة أدائهم للصلاة، بل حتى طريقة تبولهم.

وقد استعرضنا فيضا من المعلومات في الفصل السابق حول مشاهدات برتراندون دو لا بركيير وتوقفنا عند انطباعاته حول الأفراد الذين التقى بهم وردود فعله في عدة مواقف.

وسنحاول في هذا الفصل التوقف عند نماذج من تلك المشاهدات والانطباعات. تتعلق بشخصية السلطان مراد الثاني وبالبلاط السلطاني

وبالنظام العسكري الذي كان يتبناه العثمانيون وبالتحصينات العسكرية والمواقع الاستراتيجية المنتشرة على طول الطريق البري الذي سلكه الرحالة وهو عائد الى موطنه.

وقد ارتأينا التركيز على هذه النماذج نظرا لأهميتها بالنظر للسياق العام الذي تمت فيه الرحلة. ونظرا لارتباطها الوثيق بأهداف الرحلة والدواعي التي كانت وراء القيام بها.

ولكن تركيزنا على الجوانب السالف ذكرها، لن يمنعنا من تخصيص حيز لجوانب اخرى تطرق لها الرحالة ضمن مشاهداته. وتتعلق بأوضاع بعض الحواضر والقرى التي عبرها خلال زمن الرحلة وطبائع مجتمعات المناطق التي زارها.

وينسجم تناولنا لهذه الجوانب مجتمعة مع الهدف الذي رام برتراندون دو لا بركيير تحقيقه من وراء مؤلفه حين ذكر بأنه وضعه "**لإفادة الملوك والأمراء المسيحيين في حالة ما إذا أراد أحدهم القيام بغزو القدس أوقيادة جيش عبر البر. ولإفادة النبلاء في حالة ما إذا أراد أحدهم الذهاب والعودة. فسيكون على دراية بالمدن والبلدات والمناطق والأودية والجبال والأنهار والدول والسادة الذين يحكمونها ابتداء من القدس حتى دوقية بورگونيا**"[1].

أولا: حول شخصية مراد الثاني والبلاط السلطاني

1) شخصية السلطان مراد الثاني

نستهل الحديث عن هذا الجانب بالإشارة الى أن برتراندون دو لا بركيير كان شخصية متميزة. إستفاد كثيرا في رحلته من مكانته السامية ومن تجربته وانفتاحه وقدرته على التواصل مع من التقى بهم من عامة وخاصة الناس. كما كان محظوظا جدا. فقد تمكن من رؤية أبرز حكام كيانات الشرق عن كثب.

يكفي أن نُذكّر هنا بأنه التقى بسفير مملكة قبرص. وظل ملازما له حتى استقبله الملك الكرماني إبراهيم بك. فحضر برتراندون دو لا بركيير تلك المقابلة ورأى الملك عن كثب. كما أقام خلال وجوده بالقسطنطينية بفندق يملكه تاجر قطلوني. فرافق ذلك التاجر لحضور الحفل الذي أقامه الإمبراطوريوحنا الثامن باليولوگ. ورأى الإمبراطور عن كثب. ثم غادر

---

[1] - انظر نص الرحلة، ص. 2. (نعود لنذكر بأن ترقيم نص الرحلة في نسخة شارل شيفر مستقل عن ترقيم المواد الأخرى التي يتضمنها الكتاب).

القسطنطينية صباح يوم 23 يناير 1433 رفقة شخصية سامية. ويتعلق الأمر بالسيد بنديكتو دو فورلينو (Benedicto de Fourlino) الذي كان في طريقه الى حاضرة العثمانيين مبعوثا من قبل دوق ميلانو. وظل ملازما له. وحين أذن مراد الثاني باستقبال المبعوث رافقه برتراندون دو لا بركيير الى البلاط وتمكن من رؤية السلطان.

وقد أوردنا في الفصل السابق حديث برتراندون دو لا بركيير عن حيثيات تلك المقابلة وعن الترتيبات التي سبقتها وعن الغرض من الزيارة. كما أوردنا الوصف
الذي خص به السلطان مراد الثاني وما ذكره عن خصاله.

ولا مجال للانكراء بأن "بورتري" السلطان مراد الثاني الذي يقدمه برتراندون دو لا بركيير، لا توفره المصادر التي وضعها معاصروه من الإخباريين المسلمين. كما لا تتضمن الدراسات الحديثة والمعاصرة نظيرا له. ونفس الأمر ينطبق على كثير من السمات التي أوردها عن هذا السلطان. ولكن بعضها، من قبيل طيبوبة السلطان وجنوحه للسلم، قال به الإخباري البيزنطي دوكاس (Doukas)[1] الذي عاصر السلطان مراد الثاني. كما قال به ثلة من المؤرخين القدامى والباحثين المعاصرين.

فقد ذكر دوكاس أن السلطان مراد الثاني "مات ميتة سهلة خلافا لأبيه. لم يصب بمرض استعصى علاجه. ولم يمت مقتولا. وقد مَنّ الله تعالى عليه بحسن الخاتمة. لأنه كان محبا لشعبه (...) كريما. عطوفا على الفقراء. لا يفرق بين المسلمين والمسيحيين. وكان ينفر من الحرب ويفضل الإنشغال بالعلوم والفنون والإعمار في ظل السلام. لم يحارب إلا مضطرا. وعندما كان ينتصر على أعدائه، لم يكن يثخن فيهم الى حد الإفناء. بل كان يفتح باب الجنوح للسلم"[2].

ويفيدنا إبراهيم بك حليم بأن السلطان مراد الثاني عزم سنة 1444 على التخلي عن الحكم لفائدة ابنه محمد. "ورأى أن تولية ابنه بدلا عنه ربما تترتب عنها راحة للعباد من غوائل الحرب"[3]. ويذكر نيقولا قتان (Nicolas Vatin) بان مراد الثاني "أثبت تعقله وعدم اسرافه نسبيا في الأعمال

---

[1] - أنظر اخباريته التي سبقت الاحالة عليها، ص. 181.

[2] - نفسه، ص. 181. نشير الى أن ويلماز أوزتونا، أورد جزءا من هذا النص في كتابه تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح محمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، إستانبول، 1988، المجلد الأول، ص. 130.

[3] - أنظر كتابه التحفة الحليمة في تاريخ الدولة العلية، مطبعة ديوان عموم الأوقاف، دون ذكر مكان الطبع، 1905، ص. 60.

العدوانية. ولكن عهده كان ايضا عهد تعزيز الجيوش العثمانية"[1]. بينما يفيدنا عزتلو يوسف بك آصاف بأن السلطان مراد الثاني لم يعمر أكثر من 47 سنة. قضى 30 سنة منها على راس السلطة. "فكان تقيا صالحا. محبا للخير. ميالا للرأفة والإحسان"[2].

والحقيقة أن المؤرخين المحدثين والمعاصرين يجمعون بأن السلطان مراد الثاني لم يفتتح عهده بحروب. بل افتتحه بإبرام اتفاقية صلح مع ملك القرمان واتفاقية هدنة مع ملك المجر[3]. كما أنه انتهج سياسة سلمية تجاه الكيانات المسيحية. ولم يخض إلا حروبا قليلة. وقد أدى جنوحه للسلم الى "سخط السباهيين الروميليين الذين كانوا يستفيدون من الحملات العسكرية والفتوحات الجديدة"[4].

وعموما، فقد خاض حروبا قليلة. وفي معظم الحالات كان مضطرا لخوضها إما تحت ضغط السباهيين وإما لصد عدوان أجنبي. ويتجلى جنوحه للسلم في كونه تنازل عن الحكم لفائدة ابنه مباشرة بعد هزيمة نيش (Niś) أمام الصربيين سنة 1443. ولكنه اضطر للعودة لممارسة الحكم تحت ضغط الظروف الطارئة[5].

2) البلاط السلطاني

خص برتراندون دو لا بركيير البلاط العثماني بوصف مقتضب بمناسبة حديثه عن المقابلة التي حظي بها مبعوث دوق ميلانو من قبل السلطان مراد الثاني. فتحدث عن المدخل الرئيسي وعن الحراس المصطفين على جانبيه. وتحدث عن البهو وعن القاعة التي جلس فيها السلطان وعن الرواق الذي جلس فيه كبار موظفي الدولة وجموع الحاضرين.

ومن المفيد التذكير بأن برتراندون دو لا بركيير تحدث عن قصر أدرنة التي كانت حاضرة الدولة العثمانية بين سنتي 1402 و1453. إذ بعد هذا

---

[1] - ورد قوله في الفصل الذي حرره تحت عنوان: "صعود العثمانيين ."ويمثل الفصل الثاني من كتاب، تاريخ الدولة العثمانية، إشراف روبير مونتران (Robert Montran)، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1992، الجزء الأول، ص. 109.

[2] - عزتلو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ، القاهرة، 2014.، ص. 49.

[3] - أنظر على سبيل المثال، محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سبقت الإحالة عليه، ص. 153.

[4] - ايرينا بيتروسيان، الانكشاريون، ص. 78. وص. 85.

[5] - أنظر في هذا الشأن المؤلفات التي احلنا عليها عند الحديث عن قيام وتطور الدولة العثمانية.

التاريخ أضحت القسطنطينية هي قاعدة الدولة ومركز السلطة. ولكن محمد الفاتح الذي سقطت على يديه، لم يقم بقصرها الإمبراطوري، بل أمر ببناء قصر جديد بمركز المدينة بجوار ساحة طاوري (Tauri) حسب إفادات الباحث خليل اينالجيك[1]. وقد انتهت اشغال بناء هذا القصر سنة 1455. ولكن السلطان لم يقم به الا بضعة سنوات. "لأنه لم يشعر فيه بالأمان"[2]. فأمر ببناء قصر جديد فوق تل مشرف على البوسفور وبحر مرمرة. وقد انطلقت أشغال بنائه سنة 1459. وتم إنجاز القسم الأكبر منه سنة 1464. بينما اكتملت جميع مرافقه وملحقاته سنة 1478[3].

وكان قصر القسطنطينية يتألف، وفق المعطيات التي أوردها خليل اينالجيك من قسم داخلي وآخر خارجي. ويقع بين القسمين بهو فسيح. يستقبل فيه السلطان الرعايا ويحضر فيه الحفلات. وتقع على يمين البهو قاعة مقببة مخصصة لعقد المجالس السلطانية. وخلفها قاعة يستقبل فيها السلطان رجال دولته والسفراء الأجانب.

ويبدو أن الهندسة العامة لبلاط القسطنطينية لم تختلف كثيرا عن هندسة بلاط ادرنة كما جاءت في حديث برتراندون دو لا بركيير. وقد أكد ذلك نكوارا بلدسانو (Nicoarà Beldiceanu) في معرض حديثه عن "السلطة المركزية في الدولة العثمانية، منذ نشأتها حتى سقوط القسطنطينية"[4]. وأضاف بأن البلاط كان يمثل مقر إقامة السلطان وحريمه وخدامه. وكذلك مركز ممارسة السلطة. ولذلك كان مؤلفا من عدة اجنحة. كما كان يأوي المئات من الموظفين والخدام. من بينهم الفرسان (السباهيون) وحراس الأبواب (القابيجي) والخدام الخصيان وكذلك الخدام المكلفين بالتموين[5].

وكان الرعايا المتظلمون يرتادون البلاط لرفع تظلماتهم. كما كان يرتاده السفراء والمبعوثون عن الملوك والأمراء وكذلك الموظفون السامون المكلفون بإدارة شؤون الدولة. وعلى راسهم الصدر الأعظم والوزراء.

والجدير بالذكر أن منصب الصدر الأعظم استحدث منذ عهد أورخان. وكان أول من شغله علاء الدين شقيقه.

---

[1] - أنظر كتابه، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء الى الإنحدار، مرجع سبق ذكره، ص. 121.

[2] - نفسه، ص. 122.

[3] - نفس المرجع ونفس الصفحة.

[4] - ورد هذا الحديث في الفصل الرابع الذي حرره ضمن المؤلف الجماعي تاريخ الامبراطورية العثمانية، الذي سبقت الاحالة عليه.

[5] - نفس الفصل ونفس المرجع، ص. 173.

وتبعا لاتساع رقعة الدولة وتزايد المهام، تم تعيين موظفين سامين وزيد في عدد الوزراء المساعدين للصدر الأعظم. فأصبح عددهم ثلاثة في عهد السلطان بايزيد حسب مؤلفي كتاب "الدولة العثمانية تاريخ وحضارة"[1]. وهو العدد الذي اورده ايضا نكوارا بلدسانو (Nicoară Beldiceanu)[2]. بينما ذكر برتراندون دو لا بركيير بأنه رأى أربعة أشخاص. وتحدث عنهم باسم "الباشوات"[3]. وقد كان على صواب فيما ذكره. لأن عدد الوزراء أصبح أربعة في عهد مراد الثاني كما اكد ذلك مؤلفو كتاب "الدولة العثمانية تاريخ وحضارة"[4]. وظل عددهم كذلك حتى بداية حكم سليمان القانوني. حيث ارتفع العدد. ووصل الى سبعة في أواخر عهده[5].

وعلى كل، كان الوزراء يحضرون المجالس التي يترأسها السلطان، وكذلك مراسيم استقبال السفراء كما ذكر ذلك برتراندون دو لا بركيير. وكان ينضم الى تلك المجالس قاضي العسكر ورئيس "الكتابة الخاصة" للسلطان والدفتردار الكبير ممثل روميليا. ومنذ عهد بايزيد، أخذ ينضم الى تلك الجلسات دفتردار ثان هو ممثل الأناضول[6].

كان السلطان العثماني يجلس في مكان من القاعة على أريكة واسعة ومرتفعة كما قال برتراندون عن السلطان مراد الثاني. ويبدو أن الأمر يتعلق بتقليد اتبع منذ عهد أورخان. واستمر خلال عهد السلاطين الذين أعقبوه. إذ يؤكد خليل اينالجيك نقلا عن أحد أطباء بايزيد الأول قوله: "كان السلطان بايزيد يأتي الى القاعة "في الصباح الباكر ويجلس على أريكة واسعة ومرتفعة. اما أفراد الرعية، فقد كانوا يقفون على مقربة منه"[7].

ويفيد هذا الأمر بأن التوجه الذي ظل غالبا على طريقة ممارسة السلطة في الدولة حتى عهد السلطان مراد الثاني، هو التواصل المباشر بين السلطان والوعية وبينه وبين كبار رجالات الدولة.

---

[1] ـ كتاب ألفه مجموعة من الباحثين، الجزء الأول، إشراف وتقديم أكمل الدين احسان أوغلي، نقله الى العربية صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية، إستانبول 1999، ص. 171.

[2] ـ أنظر الفصل الرابع من المؤلف الجماعي، تاريخ الدول العثمانية الذي سبقت الاحالة عليه، ص. 173..

[3] ـ السفر ما وراء البحر، ص. 183.

[4] ـ أنظر، الجزء الأول من الكتاب، ص. 184.

[5] ـ نفس المرجع ونفس الصفحة.

[6] ـ نفس الفصل ونفس المرجع ونفس الصفحة.

[7] ـ الدولة العثمانية من النشوء الى الإنحدار، مرجع سبقت الاحالة عليه، ص. 143.

ويبدو أن الأمور بدأت تتغير منذ عهد خلفه محمد الفاتح. فقد تزايد عدد أعضاء الديوان. ولم تعد الجلسات تنعقد يوميا. كما لم يعد السلطان يترأسها مباشرة. فقد أنيطت رآستها للصدر الأعظم حسب افادات بعض الباحثين[1]. وأصبح السلطان يتابع تلك الجلسات خلف ستار. ثم بعد مرور فترة زمنية، أصبح يتابعها وهو جالس في مقصورة.

ثانيا: النظام العسكري العثماني حتى عهد مراد الثاني

نعود لنكرر بأن برتراندون دو لا بركيير قام برحلته من أجل الإستخبار عن قدرات العثمانيين العسكرية. وقد توقف مطولا عند قدراتهم القتالية. فأدرج في كتابه تقرير طورسيلو الذي يتطرق لقدرات العثمانيين القتالية. كما عقب عليه انطلاقا من معاينته الشخصية. فتحدث في التعقيب وفي مواضع أخرى من مؤلفه عن عدد المقاتلين وعن فئاتهم وعن أزياءئ بعضهم وعن اسلحتهم وعن اساليبهم في القتال وعن سلوكهم. وسنحاول في الصفحات الموالية مقارنة وإثراء ما أورده بما قاله بعض الباحثين المعاصرين الذين تناولوا جوانب من الموضوع.

1) حول عدد جنود الجيش العثماني

نذكر في مستهل هذه الفقرة بأن القادة العثمانيين اعتمدوا، منذ عهد عثمان، على المتطوعين. فكانت كل قبيلة تمدهم بالرجال القادرين على الغزو. وكان معظم هؤلاء من الفرسان الذين كانوا يوزعون الى ثلاث فرق رئيسية. تتالف الأولى من عشرة عناصر وتسمى "الفصيل". وتتألف الثانية من مائة عنصر وتسمى "سرية". وتتألف الثالثة من ألف عنصر وتسمى "فوجا"[2]

ونظرا لاتساع رقعة الإمارة، منذ بداية عهد أورخان، ونظرا أيضا لكون المعارك أصبحت تتم في مناطق بعيدة عن المركز وأحيانا كانت تسبقها عمليات حصار لبعض الحصون والقلاع والحواضر، اقتضى الأمر التفكير في رفع عدد المقاتلين وإدراج عناصر جديدة ضمنهم. فاستقر الرأي على إحداث فرق من المشاة. وبعد مضي مدة أخذت اصلاحات بنية الجيش

---

[1] - أنظر على سبيل المثال، ما يذكره واضعو المؤلف الجماعي، الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، الجزء الأول، ص. 172.

[2] - يوسف عبد الكريم طه مكي الرديني، المؤسسة العسكرية العثمانية، (1299-1839) دراسة تاريخية، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، عمان 2014، ص. 50.

تتجه نحو استحداث فرق من المقاتلين الغير منحدرين من القبائل والذين لا تربطهم بها أية وشائج. فتم إحداث ما سيعرف فيما بعد بفرق "الإنكشارية" التي وضعت نواتها في هذا العهد كما ذكرنا فيما مضى.

وبناء عليه، فان القوات العثمانية أضحت مؤلفة منذ عهد أورخان من فئتي الفرسان والمشاة بالإضافة الى فئة ثالثة تمثلت في الحرس الخاص بالسلطان.

ومن المفيد التذكير بأن هذه الفئة الثالثة كانت معروفة في منطقة الأناضول قبل ظهور عشيرة آل عثمان على مسرح الأحداث وفق إفادات فؤاد كوبريللي[1]. على اعتبار أن زعماء القبائل كانوا يتخذون لأنفسهم حرسا خاصا مؤلفا من الشباب المقاتلين[2]. ومن المحتمل أن أرطغرل قد اتخذ هو الآخر حرسا خاصا به. أما عثمان، فحين تولى قيادة عشيرة آل عثمان كان زعيما "غازيا" تحت إمرته عدد من المقاتلين. ومن المرجح أن يكون قد اتخذ من بعضهم حرسا خاصا له.

وهذا ما يستشف من كلام لطفي باشا، الذي يذكر أن عثمان كان أقوى أبناء أرطغرل."وكان الناس يحبونه ويجلونه وتجمع الأتراك حوله في الصيد والقنص"[3]. ومن المحتمل أن عددا من هؤلاء "الأتراك" "كانوا حراسه على غرار "الرفقاء" الذين كانوا يحيطون بأعيان القبائل الجرمانية.

فقد خصهم الإخباري الروماني تاكيتوس (Tacitus)[4] بوقفة مطولة في مصنفه. فذكر بأن الشباب كانوا يتهافتون للتقرب من أعيان القبائل التي كانت مستقرة في المناطق المحاذية للإمبراطورية الرومانية حوالي القرن الثالث. فكان كل زعيم ينتقي من الراغبين في التقرب منه مجموعة من المتميزين بالإخلاص والشجاعة وإتقان فنون القتال، فيمدهم بالخيول والسلاح. ويتخذهم "رفقاء" (Comitatus) (des compagnons)[5]

---

[1] - أنظر كتابه قيام الدولة العثمانية، ترجمة وتقديم أحمد السعيد سليمان، تصدير أحمد عزت عبد الكريم، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967، ص. 148 وما بعدها.

[2] - نفسه.

[3] - أنظر كتابه تواريخ آل عثمان، ص. 110.

[4] - هو بوبليوس كورنليوس تاكيتوس (Publius Cornelius Tacitus). مؤرخ وفيلسوف ورجل سياسة روماني. ولد حوالي سنة 58 ميلادية وتوفي حوالي سنة 120. وضع عدة مصنفات من بينها كتاب De situ ac populis Germaniae (جرمانيا) الذي تحدث فيه عن القبائل الجرمانية.

[5] - لمزيد من التفاصيل، يمكن العودة للمبحث السادس "الفيودالية والنظام الفيودلي في أقاليم شمال غرب البحر المتوسط" ضمن كتبنا مباحث في تاريخ غرب البحر المتوسط في العصر الوسيط، منشورات أي-كتب، لندن 2018.

يرافقونه في رحلات القنص والاستجمام ويشتركون معه في العمليات الحربية التي يخوضها هجومية كانت أو دفاعية.

ونعتقد أن هذا التقليد كان "كونيا" اشترك في العمل به أعيان القبائل في معظم أنحاء العلم القديم. ويؤكد محمد فؤاد كوبريللي بأن هذا التقليد كان شائعا في مجال جغرافي واسع منذ عهد السامانيين[1].

وعلى كل، استمر العمل به في سائر مناطق أوربا بعد انهيار الامبراطورية الرومانية. فكان لزعماء الممالك الجرمانية، التي قامت بعد القرن الخامس للميلاد، "رفقاء". وبعد انهيار الامبراطورية الكارولنجية، أصبح أفراد الأرستقراطية، من كبار الملاكين العقاريين، يتخذون بدورهم "رفقاء". ونظرا لاضطراب الأوضاع الأمنية، طغى الطابع العسكري على دور أولائك "الرفقاء". فأصبحوا يشكلون ميلايشيات عسكرية تعمل كل واحدة منها تحت قيادة سيدها الأرستقراطي. تحميه وتخوض الحروب التي يأمر بخوضها.

وفي ضوء ما ذكرناه، نفهم لماذا استعمل جيل فاينشتاين (Gilles Veinstein) عبارة "المليشيا" في نعته للقوات التي كانت تلتف حول السلطان العثماني وتعمل تحت إمرته[2]. وهذا ما أكده أيضا أحمد عبد الرحيم مصطفى حين ذكر بان عملية تشكيل الحرس الخاص من قبل الزعيم تطورت منذ عهد أرطغرل. فأصبحت شبيهة بنظام الفروسية في أوربا الغربية. حتى أنه تم استحداث طقوس خاصة بمناسبة التحاق أحد "الغزاة" بحرس الزعيم على غرار طقوس انضمام الفارس لمليشيا أحد ارستقراطيي أوربا[3].

وفي ضوء ما تقدم، نستطيع القول بأن الجيش العثماني أصبح يتألف منذ عهد أورخان، من فئة حراس السلطان الذين سيعرفون لاحقا "بعبيد الباب" ومن فئة الفرسان أو الخيالة ومن فئة المشاة. وأخذت هذه الفئات تتعزز بفئات أخرى من المكلفين بالدعم والإمداد. وستتعزز بعد مطلع القرن السادس عشر بفئات اخرى من المقاتلين للقيام بمختلف العمليات العسكرية في البر والبحر.

وقد ذكر يلماز أوزتونا، أن السلطان أورخان استطاع منذ سنة 1332 تكوين جيش ضخم قوامه "تسعين ألف رجل". موزعين بين أربعين ألف

---

[1] ـ نفسه، ص. 148.

[2] ـ أنظر الفصل السادس من المؤلف الجماعي تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سبقت الاحالة عليه، ص. 288.

[3] ـ أنظر كتابه، أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت، 1986، ص. 27.

فارس وخمسين ألف راجل[1]. بينما ذكر أكمل الدين احسان أوعلي، أن أورخان شرع في تشكيل الجيش النظامي بعد فتح مدينة بوصة (1326). وكانت النواة الأولى تتألف من "ألفي رجل". نصفهم من الفرسان والنصف الاخر من المشاة[2]. كان يتم دعمهم بعدد آخر من المقاتلين وفق طبيعة المعارك التي خاضها العثمانيون في عهده.

ونعتقد من جانبنا أنه من الصعب التصديق بأن عدد المقاتلين بلغ عتبة التسعين ألف في هذا الوقت المبكر من تاريخ الدولة. علما بأن السلاطين الذين حكموا بعد أورخان لم يستطيعوا حشد أكثر من مائة أو مائة وعشرين رجل في اقصى الحالات.

ونُذكّر في هذا المقام بأن طورسيلو ذكر في التقرير الذي اوردناه في الصفحات الأولى من الفصل الخاص بدواعي الرحلة وسياقها التاريخي، أن "السلطان العثماني قادر على حشد مائة ألف مقاتل. من بينهم عشرون ألف فرد يكونون حرسه الخاص. عشرة آلاف منهم فرسان والعشرة آلاف الأخرى من المشاة". وأكد برتراندون دو لا بركيير في تعقيبه على التقرير بأن "السلطان قادر على استنفار مائة وعشرين ألف مقاتل". بينما قدر أفراد حرسه الخاص، "الذين هم بمثابة عبيده"، "بعشرة آلاف رجل".

ولكن برتراندون دو لا بركيير لم يشر الى المصادر التي استقى منها طورسيلو معلوماته عن عدد أفراد الجيش العثماني. علما بأن هذا الأخير مكث ردحا من الزمن في حاضرة الدولة. كما أن برتراندون دو لا بركيير لم يطلع على وثائق ذات صلة بالموضوع ولم يعاين أية معركة عن كثب. بل انطلق بخصوص الأرقام التي أوردها من الإفادات التي قدمها له بعض "المخبرين" ومن معاينته لمجموعة من الحراس ومن الجنود العثمانيين[3].

ونريد أن نخلص من وراء هذه الإشارات الى القول بأن مسألة عدد الجنود الذين كان بامكان السلاطين العثمانيين حشدهم لخوض الحروب، ظلت منذ قيام الدولة، وما زالت الى اليوم، موضوع اختلاف.

فقد تضمنت مصنفات الإخباريين العثمانيين، أمثال لطفي باشا[4]، وكذلك

---

[1] ـ أنظر كتابه تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سبق ذكره، الجزء الأول، ص. 97.

[2] ـ أنظر كتاب الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله الى العربية صالح سعداوي، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية، إستانبول، 1999، الجزء الأول، ص. 381.

[3] ـ يمكن العودة هنا للمقتطفات التي نقلناها من نص الرحلة في الفصل الثالث وكذلك من تعقيب برتراندون على تقرير طورسيلو.

[4] ـ سبق أن عرفنا به وأحلنا على كتابه.

مصنفات الإخباريين المسيحيين، أمثال دوكاس ويوحنا فرواسار[1]، أرقاما عن عدد الجنود الذين خاضوا بعض الحروب التي اندلعت بين العثمانيين والمسيحيين. كما تضمنت ارقاما عن عدد الضحايا الذين سقطوا في بعض المعارك. ولكن آفة تلك الأرقام هي أنها ضخمة في معظم الأحيان.

وبما أن المؤرخين المحدثين العرب والأتراك والأوربيين أنطلقوا من تلك المصنفات، فقد اختلفوا بدورهم فيما يخص الأرقام. وهذا ما سنوضحه من خلال التطرق بايجاز لمعركة كوسوڤو (1389) ومعركة نقبوليس (1396) وبعض المعارك التي خاضها العثمانيون في عهد السلطان مراد الثاني. وأهمها معركة ڤارنا (1444).

أ) معركة كوسوڤو

يفيدنا لويس ليجي (Louis Léger)، في مقال مطول نشره سنة 1916 حول معركة كوسوڤو التي خاضها العثمانيون ضد الصربيين[2]، بأن "أحد الإخباريين الصربيين" (لم يحدد هويته)، ذكر أن يوك برانكوڤيتش انضم لصفوف العثمانيين وتحت إمرته "اثنا عشر ألف رجل"[3]. وأن عدد القتلى فيها من المسيحيين ناهز "ثمانية آلاف رجل"[4]. ومعنى ذلك، في نظره، آن الجنود الذين خاضوها "كانوا بالآلاف". والحقيقة أن الأمر لم يكن كذلك في نظره. واستدل في ذلك بدراسة تقنية حول تلك المعركة أنجزها العقيد الصربي ميكاكوڤيتش (Michakovitch) قدر فيها الجيش الصربي الذي كان تحت إمرة الملك لازار (Lazare) "بخمسة وعشرين ألف رجل" وجيش البوسنيين "بعشرة آلاف رجل". وقدر عدد افراد الجيش العثماني بحوالي مائة ألف رجل[5].

وذكر جون سيدلار(Jean W. Sedlar) في كتاب نشره سنة 1994[5]، وخص فصلا منه لمعركة كوسوڤو، أن عدد المسيحيين الذين شاركوا في

---

[1] - سبق أن عرفنا بهما وأحلنا على كتابهما أثناء حديثنا عن دوقية بوركونيا وعن أوضاع بيزنطة.

[2] - "La bataille de Kosovo et la chute de l'Empire Serbe", Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres, 1916, p.p. 533-543.

[3] - نفس المقال، ص. 541.

[4] - نفسه، ص. 542.

[5] - نفس المقال ونفس الصفحة.

[5] - East Central Europe in the Middle Ages, (1000-1500), Washington, University of Washington Press, 1994.

تلك المعركة كان "بين اثنى عشر وعشرين ألف رجل"[1]. بينما شارك فيها من جانب العثمانيين "ما بين سبعة وعشرين وثلاثين ألف رجل"[2].

وخص كَيِيْل ستوكس (Gale Stokes)، الباحث الذي قضى تسع سنوات من الخدمة العسكرية في سلاح الجو الأمريكي، هذه المعركة بورقة[3]، في مؤلف جماعي صدر سنة 1996، ذكر فيها أن عدد من خاضوها من الجانب الصربي "تراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين ألف جندي". بينما كان تعداد الجيش العثماني بين "ثلاثين وأربعين ألف جندي". وعاد جون كوكس (John K. Cox) لتناولها في كتاب نشره سنة 2002[4]. فذكر أن مراد الأول خاض المعركة على رأس جيش قوامه ما بين ثلاثين وأربعين ألف رجل. وكان جيش المسيحيين يضم ما بين خمسة عشر وخمسة وعشرين ألف رجل[5].

ب) معركة نقبوليس

تطرق دولاڤيل لو رول (Delaville Le Roulx) لمعركة نقبوليس في سياق مؤلف نشره سنة 1886 تناول فيه دور فرنسا في الشرق خلال القرن الرابع عشر. فذكر أن الجيش المسيحي الذي خاض تلك المعركة كان مؤلفا من "مائة ألف جندي". وكان جيش العثمانيين يضم "مائة وعشرة آلاف جندي"[6]. واتفق معه الى حد بعيد عزيز سوريال عطية، في بحث مستفيض خصه للمعركة ذاتها ونشره سنة 1934. حيث جاء فيه بأن "السلطان بايزيد حشد لخوض تلك المعركة جيشا قوامه مائة وأربعة آلاف رجل". في حين "كان جيش الصليبيين يتألف من مائة ألف جندي"[7]. بينما ظل يلماز أوزتونا وفيا لرقم "تسعين ألف". فذكر أن بايزيد حشد لتلك المعركة جيشا قوامه

---

[1] - Ibid., p. 244.

[2] - Ibid., p. 244.

[3] - "Battle of Kosovo", in The reader's companion to military history, Edited by Robert Cowley and Geoferey Parker, New York, Hougphton Mifflin Campany, 1996, p. 249.

[4] - John K. Cox, The History of Serbia, Westport, Greenwood Press, 2002.

[5] - أنظر الصفحة 30 من الكتاب الذي أحلنا عليه في الهامش السابق..

[6] - La France en Orient au XIVe siècle. Expéditions du Maréchal Boucicaut, Paris, Ernest Thorin Éditeur, 1886, Tome I, p. 264.

[7] - Aziz Suryal Atiya, The crusade of Nicopolis, Methuen and CO. LTD., London, 1934, p. 66.

"سبعون ألف جندي بين فرسان ومشاة". وترك حوالي عشرين ألف جندي كقوة احتياطية في ممر شبقة لتأمين مؤخرة الجيش[1].

ونعود لنكرر بأن هذا الاختلاف في الأرقام المقترحة من قبل الباحثين المحدثين يكمن في طبيعة المصادر الخطية التي اعتمدوا عليها. ولذلك نجدهم يختلفون أيضا في عدد المقاتلين الذين تمكن بايزيد من حشدهم لخوض معركة أنقرة، التي دارت بين العثمانيين والمغول سنة 1402. بين قائل بأنه حشد "مائة وعشرين ألف جندي"[2] وقائل بأن العدد لم يتجاوز "السبعين ألف جندي"[3].

ج) بعض المعارك التي خاضها العثمانيون في عهد مراد الثاني

لا نملك عن تعداد الجنود الذين كان يتم حشدهم من قبل السلطان مراد الثاني، سوى معطيات رقمية قليلة ومضطربة. فقد ذكر برتراندون دو لا بركيير أن "السلطان قادر على حشد مائة وعشرين ألف جندي" دون ذكر إسم السلطان المعني بالقول. وربما كان يقصد مراد الثاني. بينما يذكر إبراهيم بك حليم أن السلطان مراد الثاني لم يستنفر في السنوات الأولى من عهده سوى "عشرة آلاف"[4] أو "سبعة عشر ألف جندي"[5] لملاقاة دوزمه مصطفى الذي ادعى احقيته في تولي الحكم. وكان تحت إمرته جيش قوامه "سبعون ألف جندي"[6].

وعاد الباحث ذاته ليؤكد في معرض حديثه عن معركة ڤارنا أن ملك المجر استطاع حشد "ثمانين ألف جندي"[7] بمن فيهم مقاتلين من صربيا والبوسنة ومن ممالك أخرى. بينما لم يستطع مراد الثاني "حشد جيش كثيف". "فصادف [أعدائه] على رأس فئة قليلة. (...) فتفرقت عساكره

---

[1] - يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سبق ذكره، الجزء الأول، ص. 107. وحسين جوكتشة وصالح كولن ولطيف جنتش، السلاطين الأوائل، مرجع سبق ذكره، ص. 125.

[2] - أورد هذا الرقم إبراهيم بك حليم في كتابه التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1988، ص. 49. كما أورده يلماز أوزتونا في كتابه السالف الذكر، ص. 110.

[3] - حسين جوكتشة وصالح كولن ولطيف جنتش، السلاطين الأوائل، مرجع سبقت الإحالة عليه، ص. 135.

[4] - إبراهيم بك حليم، التحفة الحليمية، ص. 56.

[5] - يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، الجزء الأول، ص. 120.

[6] - إبراهيم بك حليم، التحفة الحليمية، ص. 56.

[7] - نفسه، ص. 61.

بحالة انهزام"[1]. ورغم ذلك لم ييأس. "فصعد على ربوة ينتظر نصرة إلهية"[2].

ورغم أن وجهة نظر ابراهيم بك حليم تبدو مقبولة، لأن أغلب المؤرخين العرب والأتراك يتفقون بأن العثمانيين لم يحشدوا قوات ضخمة لخوض تلك الحرب وكانوا على وشك خسارتها، فإن الباحث الفرنسي إيمانويل قسطنطين أنطوش (Emanuel Canstantin Antoche)[3] يدافع عن الوجهة القائلة بأن قوات العثمانيين كانت أكثر من قوات المسيحيين دون أن يقدم أرقاما دالة على ذلك. ولكنه يستحضر وجهة نظر الباحث غوستاف كلينگ (Gustav Kling) في الموضوع. فيذكر أن هذا الأخير قدر عدد المسيحيين الذين خاضوا تلك الحرب، "بإحدى وعشرين ألف رجل". بينما قدر عدد الجنود العثمانيين بحوالي "أربعين ألف رجل"[4]. وهو الرقم الذي اقترحه سيد محمد السيد محمود في كتابه "تاريخ الدولة العثمانية، الصادر سنة 2007[5]. وكان كنيث سيتون (Kenneth M. Setton) قد اقترح، في بحثه المستفيض الصادر سنة 1976، أن عدد الجنود العثمانيين بلغ حولي ستين ألف[6].

يجدر التذكير في الأخير بأن طورسيلو أشار في تقريره الى حرس السلطان. وقدر عددهم "بعشرين ألف". بينما جعلهم برتراندون دو لا بركيير "عشرة آلاف".

وقد خصهم الإخباري البيزنطي دوكاس بوقفة قصيرة في مصنفه[7]. فسماهم "بالإنكشارية". وتحدث عن أصولهم المسيحية وعن طريقة تنشأتهم وتكوينهم العسكري. وذكر أن عدد العاملين منهم تحت إمرة السلطان بايزيد بلغ "أكثرقليلا من عشرة آلاف رجل". وعلى غراره، تحدث عنهم الإخباري

---

[1] - نفس المرجع ونفس الصفحة.

[2] - حاجي خليفة، فذلكة، ص. 187 وإبراهيم بك حليم، التحفة الحليمية، مرجع سبق ذكره، ص. 61.

[3] - أنظر مقاله:

"Les croisades de Nicopolis (1396) et de Varna (1444). Une comparaison", Medievalia Transilvanica vol. 4, 2002, p.p. 28-74.

[4] - Ibid., p. 70.

[5] - أنظر كتابه، تاريخ الدولة العثمانية (النشأة- الإزدهار)، مرجع سبق ذكره، ص. 158.

[6] - Kenneth M. Setton, The Papacy and the Levant, (1204-1571), Volume II, the Thirteenth and Fourteenth Centuries, The American Philosophical Society, Philadelphia, 1976, p. 90.

[7] - مصدر سبق أن أحلنا عليه، ص. 41 وص. 109.

الإغريقي- الإيطالي لاونيكوس شلكونديل (Laonicos Chalcondyle)[1]. وذكر أن عددهم كان يتراوح بين "ستة وثمانية آلاف فرد" في عهد السلطان مراد الثاني[2].

بينما تفيدنا الباحثة إيرينا بيتروسيان بأن عددهم كان قليلا حتى فتح القسطنطينية. ولم تقترح رقما معينا. وأضافت بأن عددهم ارتفع بعد سنة 1453. حيث وصل الى اثني عشرة ألف رجل سنة 1566[3]. وكان فيلق من هذا العدد مكلفا بالحراسة الشخصية للسلطان. بينما كان الباقون يقومون بالمهام القتالية كمشاة.

وبغض النظر عن أعدادهم، فالراجح أن دورهم كان محدودا في المعارك حتى عهد مراد الثاني. وهذا ما عبر عنه محمد فؤاد كوبريللي حين قال: "كان الجيش الإنكشاري قوة من المشاة في خدمة الحاكم دائما (...) ولم تكن لهم في القرن الرابع عشر أهمية لافتة. ولم ينظم قانون الدوشرمة إلا في القرن الخامس عشر على عهد مراد الثاني"[4].

والجدير بالذكر، أن برتراندون دو لا بركيير ذكر عددهم، ولكن لم يذكرهم باسم "الإنكشارية". كما لم يبرز دورهم في المعارك. بل تحدث عموما عن الفرسان وعن المشاة. وإن ركز على دور الفرسان كقوة ضاربة في المعارك التي خاضها العثمانيون.

ومهما يكن من أمر، يتضح في ضوء ما تقدم أن السلاطين العثمانيين كانوا يحشدون قوات كثيفة نسبيا لمواجهة المسيحيين. ولكن عدد تلك القوات لم يكن بالضخامة التي تحدث عنها الإخباريون عامة، والمسيحيون منهم على وجه الخصوص.

وقد كسبت تلك القوات معظم المعارك. رغم أن الحقيقة العلمية تقتضي القول بأن عدد المحاربين لم يكن هو العنصر الحاسم في تلك المعارك. بل ثمة عناصر أخرى كان لها دور فعال في ذلك. من بينها الخطط المتبعة من

---

[1] - مؤرخ إغريقي ولد بأثينا حوالي سنة 1423. وتوفي بإيطاليا سنة 1490. وضع مصنفا في التاريخ تناول في بعض اقسامه مظاهر تدهور الإمبراطورية البيزنطية وسقوط القسطنطينية. كما عرض فيه لقيام وتطور دولة العثمانيين. وقد نقل المصنف الى عدة لغات أوربية من بينها اللغة الفرنسية التي نقل اليها تحت عنوان:

Histoire générale des Turcs, traduction Blaise de Vigenaire, Paris, Avevstin Covrbe Éditeur 1662, 2 tomes.

[2] - نفسه، ص. 130.

[3] - أنظر كتابها، الإنكشاريون، ص. 59 وص. 68.

[4] - أنظر كتابه قيام الدولة العثمانية، ص. 189.

قبل السلاطين وقادة الجند في مواجهة أعدائهم والأسلوب المتبع في القتال ونوعية الأسلحة المستعملة في المعارك ومعنويات الجنود وما الى ذلك. وجميع هذه العناصر توقف عندها برتراندون دو لا بركيير. وقد رحل أصلا من أجل "الإستخبار" عنها رغم أن فليب الطيب وزعماء الكيانات المسيحية الأخرى كانوا يتوفرون على معلومات في موضوعها من خلال ما تواتره الإخباريون والسفراء عنها ومن خلال المعاينة الميدانية لبعض من شاركوا في معركة نقبوليس وتم افتداؤهم من الأسر.

2) حول طرق العثمانيين في خوض المعارك

ذكر برتراندون دو لا بركيير أن العثمانيين كانوا يخوضون حروبهم بتوزيع محاربيهم من مشاة وفرسان الى أربع فرق: واحدة في القلب والثانية في الميمنة والثالثة في الميسرة والرابعة في المؤخرة.

وقد أكد صحة ما ذكره برتراندون دو لا بركيير أحمد منجم باشي[1] الذي يفيدنا في كتاب "جامع الدول" أن وحدات الجيش العثماني أخذت مواقعها في معركة كوسوڤو على النحو الآتي:

"ثبت السلطان [مراد الأول] في القلب وعلى يمينه وزيره علي باشا وعلى يساره أمير أمرائه تيمور ناش باشا وفي الميمنة ولده بايزيد خان مع صاروجة باشا وفي الميسرة يعقوب جلبي مع طوغوجة بلبان بك وأورنوس بيك وفي جناح اليمين ابنه بيك صوباتي وفي جناح اليسار قامت طائفة يكيجري أمام السلطان. ودبر أورنوس [المعركة] تدبيرا حسنا لتشويش صفوف الكفار، وذلك أنه انتخب ألفي رام من العسكر. وجعل الألف أما الميمنة والألف الآخر أمام الميسرة. فرموا صفوف الكفار بالسهام والنشاب حتى تشوشوا. فتداخل الفريقان"[2]

---

[1] - هو أحمد بن عيسى بن لطف الله، المعروف بمنجم باشي. تركي الأصل من أهل مدينة سالونيك. توفي سنة 1702. اشتهر بوضعه عدة مصنفات في علوم مختلفة من بينها التاريخ الذي وضع فيها مصنفا يعرف عند البعض "بصحائف الأخبار في وقائع الأعصار" وعند البعض "بجامع الدول".

[2] - أنظر النسخة التي حققها ونشرها أحمد أغير أقجة وخديجة إرسلان ونوري أونلو تحت عنوان: جامع الدول. تاريخ الدولة العثمانية، وصدرت عن دار الكتب العلمية ببيروت سنة 2020، ص. 50.

وذكر بعض الباحثين المعاصرين، ومن بينهم حسين جوكتشة وصالح كولن، أن القوات التي خاضت معركة نقبوليس أخذت مواقعها في الميدان على نفس المنوال وذلك على النحو الأتي:

تصدر جنود المشاة المسلحين بالأقواس مقدمة الجيش بقيادة سروجة باشا. وخلفهم في الوسط "فيلق" مشاة الإنكشارية. وفي الجانب الأيمن جنود الأناضول بقيادة أمير أمراء الأناضول قره دمرداش باشا. وفي الجانب الأيسر جنود روميلي بقيادة سليمان شلبي. وكانت فرق الميمنة والميسرة مدعومة بوحدات من الخيالة في أقصى الجانبين الأيمن والأيسر. بينما وضعت في مؤخرة الجيش وحدات احتياطية من الإنكشارية وعدد من الفرسان[1].

ويبدو أن تموقع مختلف الوحدات على هذا الشكل، تقليد اتبع في مختلف المعارك منذ عهد مراد الأول. اذ تفيدنا ايرينا بيتروسيان أن وحدات القواسين كانت تصطف في مقدمة الجيش وخلفها فيلق من جنود الإنكشارية وعلى يمينهم فيلق من المشاة وعلى يسارهم فيلق مماثل. وفي أقصى اليمين وحدات من السباهيين الأناضوليين وفي أقصى اليسار وحدات من فرسان صروخان وأيدين[2].

والراجح أن مستعملي الأقواس، من المحاربين المنتخبين، هم الذين كانوا يفتتحون وقائع المعارك بإطلاق وابل من النبال على الأعداء. وكان دورهم حاسما لأنهم كانوا يصوبون سهامهم نحو الفرسان المسيحيين المدججين بسلاح ثقيل. فيتساقط بعضهم ويتفرق الباقون في ميدان المعركة وعندها يتدخل الفرسان.

ومن هنا نفهم ما ذهب اليه جوزيف داهموس حين ذكر بأن سرعة القواسين واستخدامهم للسهام غالبا ما كانا يكفيان لتحقيق النصر قبل ان يقع الالتحام[3].

وتذكر إيرينا بيتروسيان في هذا الصدد، أن القواسين تقدموا صفوف الجيش العثماني في معركة نقبوليس. فأطلقوا نبالهم التي اخترقت أجساد الخيول. فتساقط عدد من الفرسان البورگونيين الذين كانوا يتقدمون

---

[1] ـ أنظر كتابهما، السلاطين الأوائل، مرجع سبقت الاحالة عليه، ص. 125. وكذلك سيد محمد السيد محمود، تاريخ الدولة العثمانية (النشأة والازدهار)، ص. 121.

[2] ـ أنظر كتابها، الإنكشاريون، مرجع سبقت الإحالة عليه، ص. 66.

[3] ـ أنظر كتابه، سبع معارك فاصلة في القرون الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دون ذكر تاريخ الطبع، ص. 185.

القوات الصليبية[1].

ويؤكد الباحث التركي أحمد شيمشيرغيل بدوره، أن معركة ڤارنا انطلقت بتراشق غزير للسهام بين الطرفين (العثماني والمسيحي). ثم هدأت السهام بعد برهة وحلت السيوف والخناجر محلها حين هاجم القائد المسيحي دراكول ميمنة الجيش العثماني[2].

ولا بأس من الإشارة في سياق الحديث عن طرق العثمانيين في خوض المعارك، الى أن هؤلاء كانوا يلجؤون الى طرق أخرى لم يتوقف عندها برتراندون دو لا بركيير من قبيل استعمال الكمائن. فقد ذكر لطفي باشا في سياق حديثه عن استيلاء "الغزاة" العثمانيين على قلعة إزنيق، أنهم قاموا برصد فترات خروج ودخول الجنود الأعداء المرابطين في القلعة. فتحينوا في احدى المناسبات خروجهم الى الساحل. فأسرع فيلق من "الغزاة" الى الساحل ونصبوا كمائن في الطريق الذي سيسلكه الجنود بعد رسُوُ مراكبهم كما حفروا حفرا اختبأوا فيها وانتظروا فترة. وحين أخذ الجنود يمرون، خرجوا فجأة وباغتوهم وأعملوا السيوف في رقابهم. فأهلكوا منهم خلقا كثيرا. بينما غرق بعضهم في البحر وتمكن البعض الآخر من الفرار[3].

كما كانوا يستعينون بجواسيس يقومون بالاستطلاع حول تحركات الأعداء ويحيطون القادة الميدانيين علما بها. وقد أكد لطفي باشا لجوء العثمانيين الى هذا الأسلوب منذ قيام إمارتهم. فذكر، في معرض حديثه عن محاصرة قلعة إزنيق السالف ذكرها، أن أورخان الذي كان على رأس الغزاة بعث "جاسوسا" لرصد تحركات الجنود البيزنطيين المرابطين بالقلعة. "وعندما علم [الجاسوس] بموعد خروجهم الى البر، أسرع الى الغزاة وأخبرهم"[4].

وبالاضافة الى الجواسيس، كانوا يستعينون بأدلاء يقدمون لهم معلومات عن المدن والقرى والحصون المراد فتحها. وقد ذكر أحمد منجم باشي في هذا السياق، أن العثمانيين شددوا الحصار على بروسة. فاقترح قادة الجند على عثمان فتح الحصون المحاذية لها. فاستجاب لاقتراحهم ولكن شرط عليهم الاستعانة " (...) بدليل يعلم مداخل تلك البلاد ومخارجها ومضايقها

---

[1] - الإنكشاريون، مرجع سبقت الإحالة عليه، ص. 59.

[2] - أنظر كتابه، تاريخ بني عثمان سلطنة بنفوذ عالمي، ترجمة مهتاب محمد، مؤسسة ثقافة للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2016، الجزء الثاني، ص. 92.

[3] - أنظر تواريخ آل عثمان الذي سبقت الإحالة عليه، ص. 117.

[4] - نفس المصدر ونفس الصفحة.

ودروبها حتى نأمن من مكر العدو وكمينه"[1]. فاقترح عليهم الاستعانة بأحد حكام تلك الحصون كانت تربطه علاقة ودية بالعثمانيين لتحقيق هذا الأمر[2].

3) سلوك الجنود

تحدث برتراندون دو لا بركيير عن شجاعة العثمانيين عامة. ولاشك أنه كان يقصد الجنود كذلك رغم أنه لم يعاينهم وهم يخوضون إحدى المعارك. فذكر ما يلي: "لا أستطيع أن أقيّم طرقهم في خوض الحروب. فقد أبانت لحد الآن عن نجاعتها. وكل ما أستطيع قوله، هو أنه أتيحت لي فرص اقتناء بعض بضائعهم. فلمست في الباعة الصراحة والصدق. واتيحت لي مناسبات، عاينت فيها أحداثا كانت تقتضي التدخل وإبداء كثير من الشجاعة. فرأيت أن رجالا من بينهم لم يترددوا وكانوا في مستوى تلك الأحداث[3]. وكأنه بذلك يؤكد ما أورده لطفي باشا وهو يتحدث عن العثمانيين عند بداية حركتهم. فكتب ما يلي: "نعم كان الغزاة قلة ولكنهم كانوا شجعانا ويؤمنون أن الرجل لو قاتل ألفا من الكفار، فإنه سينتصر عليهم، لأن عقيدتهم طاهرة وقوية" وقد يسر الله تعالى لهم هذا الأمر"[4].

وتأكد ذلك في كثير من المواقع، ومن بينها معركة نقبوليس التي خاض السلطان بايزيد غمارها كواحد من الجنود. "وحدث أن سقط من على فرسه. ورغم ذلك نهض بسرعة وعاد للقتال بشراسة أكثر. وكأن السقطة أمدته بشحنة زائدة"[5].

وتكرر هذا الأمر في معركة أنقرة التي انهزم فيها الجيش العثماني. ورغم ذلك لم يستسلم بعض قادته، وعلى رأسهم السلطان بايزيد الذي ظل يحارب حتى وقع أسيرا في يد الأعداء. ولم يتوسل لتيمور إطلاق سراحه. ولم يقترح تقديم فدية نظير حريته حتى لقي حتفه في الأسر.

وأبان العثمانيون مرة أخرى عن رباطة جأش وشجاعة نادرة في وقعة ڤارنا التي قادها السلطان مراد الثاني. ورغم أن الدوائر دارت فيها عليهم

---

[1] ـ منجم باشي، جامع الدول أو تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق أحمد أغير أقجة وخديجة أرسلان و سوزوطوغرو ونوري أونلو، ص. 21.

[2] ـ نفسه ونفس الصفحة.

[3] ـ السفر ما وراء البحر، ص. 217.

[4] ـ أنظر كتاب تواريخ آل عثمان، مصدر سبق ذكره، ص. 116.

[5] ـ أنظر كتاب قمط سلابيري الذي سبقت الإحالة عليه:

Charles-Marie d'Irrumbery comte de Salaberry, Histoire de l'Empire ottoman…, Tome I, p. 92.

و"فتفرقوا منهزمين" كما يذكر إبراهيم بك حليم[1]، فقد ظل السلطان مرابطا بمعية ثلة من قادة الجند. فتجرأ ملك هنغاريا على مبارزته. فنادى السلطان مراد الثاني في القادة ألا يقابله أحد غيره. ولكن كان يوجد من بين القادة من كان أشجع من السلطان ذاته. فلم ينتظر حتى يجرد السلطان سيفه من غمده، وانقض على ملك المجر وحز رأسه[2].

وإذ اقتضى الموقف المشار اليه من هذا القائد عدم الامتثال لأوامر قائد الجيش السلطان العثماني، فإن برتراندون دو لا بركيير يفيدنا مع ذلك بأن الجنود العثمانيين تميزوا بالإنضباط وطاعة قادتهم.

وقد أجمع الإخباريون القدامى ومعظم الباحثين المحدثين والمعاصرين، بأن الجنود العثمانيين تميزوا فعلا بالشجاعة والاستبسال والطاعة والإنطباط. فضلا عن خصال أخرى من قبيل الإخلاص والوفاء والصبر والتجرد عن الذات. وقد توارث الجنود وعامة الرجال تلك الخصال منذ عهد أرطغرل وعثمان[3].

فمنذ عهد أرطغرل، "كانوا محاربين جيدين" كما يذكر يلماز أوزتونا[4]. كما كانوا يتلهفون الى الجهاد والغزو وينصاعون لأوامر القادة الميدانيين ويتبعون تعاليم شيوخ الطرق الصوفية.

كان القادة الميدانيون يخططون للمعارك ويقودون المحاربين. وكان شيوخ الطرق الصوفية يلهبون مشاعرهم. كما كانوا يسهرون على تلقين الشباب المسيحيين الملتحقين بالوحدات العثمانية مبادئ الدين ويشبعونهم بالقيم ويلهبون حماسهم لفتح الأقطار وتوسيع رقعة الاسلام[5].

ويذهب يلماز أوزتونا بعيدا في هذا الاتجاه حين يحاول إقناع القارئ بأن الجنود العثمانيين استمدوا قدراتهم القتالية من زعمائهم الذين "كانوا متميزين عن غيرهم من الأقوام. لأن أولائك الزعماء "ينحدرون، منذ أرطغرل، من سلالة ذات خصائص جسمية ونفسية خاصة"[6]. ويضيف

---

[1] - أنظر كتابه التحفة الحليمية، ص. 61.

[2] - أنظر لطفي باشا، تواريخ آل عثمان، ص.ص. 193-194. وحاجي خليفة، فذلكة، ص. 188.

[3] - أنظر على سبيل المثال، الفقرات التي أوردتها ايناس حسني البهجي في الموضوع ضمن كتابها تاريخ الدولة العثمانية، منشورات مركز الكتاب الكاديمي، عمان 2016، ص.ص. 38-42.

[4] - أنظر كتابه تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح محمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، استامبول، 1988، الجزء الأول، ص. 88.

[5] - نفس المرجع ونفس الصفحة.

[6] - نفس المرجع ونفس الصفحة.

قائلا: "بأن الله وهبهم الدهاء والفطنة والشجاعة والقدرة على التخطيط الجيد والتنفيذ السريع في الوقت المناسب. وبثوا هذه الخصال والمزايا في أوساط المحاربين وعامة الرجال"[1]. وينطلق فيما ذهب اليه من بيتين للشاعر محمد نامق كمال[2] يقول فيهما:

نَحنُ ذلكَ النسلُ الكُريمُ مِنْ العشيرةِ العُثمانيـــةِ
أُصولُنا امتزجَتْ بدمِ الشهادةِ مِنَ الرأسِ الى القَدَمِ
نَحنُ أصْحابُ هِمَم عالية، نَحنُ أصْحابُ جِد واجتهاد
استطَّعنا بِذلكَ أن نُكوّنَ دَولة عالمية كبرى مِنْ عشيرة واحِدَة[3]

ويسعى يلماز أوزتونا الى اقناع القارئ، انطلاقا من البيتين، بأن الله من على جنود تلك العشيرة بالنصر والتمكين منذ عهد أرطغرل. وظل يؤيدهم بنصره حتى كونوا امبراطورية عظمى بفضل زعمائم "المنتقين". ويتحدث في هذا السياق عن إنجازات الزعماء العثمانيين الذين حكموا قبل فتح القسطنطينية، فيذكر أن "عثمان بك كان استراتيجيا بعيد النظر (...) وأورخان بك كان عسكريا ممتازا (...) طبقت شهرته العالم بإسره (...) وسليمان باشا انتقاه الله للعبور بالجنود العثمانيين الى أوربا. فغير مجرى تاريخ أوربا وتاريخ العالم. (...) أما مراد الأول، فكان سلطان الغزاة والمجاهدين (...) غياث الدنيا والدين (...) ليث الإسلام وغياث المسلمين (...) خاض بنفسه 37 حربا إنتصر فيها جميعا. فأصبحت له شهرة القائد الذي لا يقهر (...) كان داهية عسكريا وأستاذا استراتيجيا. جعل من العثمانيين أمة موحدة"[4].

والراجح في اعتقادنا، أن ذلك السلطان، كان تحت إمرته جنود أشاوس ساعدوه في تحقيق تلك الانتصارات ونيل تلك الألقاب. مصداقا لقول أحدهم " الجندي الحق ساعد قائده (...) ولا قيمة لقائد بلا جنود حقيقيين"[5].

---

[1] ـ نفس المرجع، ص. 90.
[2] ـ أديب تركي مشهور ورجل دولة من أتباع التيار القومي. توفي سنة 1888.
[3] ـ ورد البيتان في الصفحة 88 من كتاب يلماز أوزتونا السالف الذكر.
[4] ـ أنظر كتابه تاريخ الدولة العثمانية، الجزء الأول، ص. 98.
[5] ـ نقصد هنا محمد محيي الدين حمادة الغنيمي. وقد أورد القولة في كتابه قيامة أرطغرل بين الدراما وبناء القيم، دار النور المبين للنشر والتوزيع، عمان 2019، ص. 154.

ونستطيع القول أن ما أورده يلماز أوزتونا كان يمثل جانبا من الحقائق العسكرية التي أضحت راسخة في أذهان خاصة الناس وعامتهم في الحواضر العثمانية زمن زيارة برتراندون دو لا بركيير لها. ولذلك بلغت الى مسامعه فوقف مشدوها أمام سلوك أولائك الجنود رغم أنه لم يعاين أية معركة خاضوها.

ويبدو من خلال طريقة حديثه أن ذلك السلوك كان له وقع في نفسه لأنه رجل نبيل قادم من ربوع كانت فيها ثقافة الفروسية مازالت طاغية، منذ انبثاقها في مطلع القرن الحادي عشر، ولأنه لم يكن قد تجرع بعد الهزيمة النكراء التي تلقتها الجيوش المسيحية في معركة نقبوليس، والتي كان من بين أسبابها عدم انضباط المحاربين البورگونيين الذين تموقعوا في الصفوف الأمامية معتقدين أنهم قاد مين الى الشرق في رحلة قنص واستجمام. لقد عبروا حقا من خلال موقفهم عن شجاعتهم المفرطة. ولكنهم عبروا ايضا، من خلال ذات الموقف، عن عدم انضباطهم.

فلا غرو إذا وجدنا برتراندون دو لا بركيير، يؤكد على مسألة الإنضباط والطاعة في التعقيب الذي حرره ردا على تقرير طورسيلو، لقناعته بدورهما المحوري في حسم المعارك.

1) حول الأسلحة المستعملة في المعارك

تعد الأقواس من أهم الأسلحة التي كان يستعملها الجنود العثمانيون كما ذكرنا فيما مضى. وكان يختص باسعمالها الآلاف من المشاة المنضوين في صفوف الإنكشارية.

وقد تحدثت منجم باشي عن هؤلاء "القواسين" في كتابه "جامع الدول" دون ذكر عددهم الإجمالي بالتحديد. فقال في معرض حديثه عن معركة كوسوڤو أن القائد أورنوس بك "دبر" تلك المعركة "تدبيرا حسنا" بأن "انتخب ألفي رام من العسكر، وجعل الألف أمام الميمنة والألف الآخر أمام الميسرة، فرموا صفوف الكفار بالسهام والنشاب حتى تشوشوا"[1].

ويبدو أن معظم القواسين العثمانيين كانوا يجيدون استعمال ذلك السلاح، شأنهم في ذلك شأن القواسين التركمانيين، وفق شهادة برتراندون

[1] ـ أنظر كتاب جامع الدول الذي سبقت الإحالة عليه، ص. 50.

دو لا بركيير الذي أبدى إعجابه بهذه التقنية[1]. وذكر أنه رأى أثناء فترة استراحة "بباحة استراحة" تركمانية، ستة أو ثمانية تركمانيين يقومون برمي أهداف بأقواسهم وهم جالسين. وكانت النبال تصيب تلك الأهداف بدقة متناهية[2].

ولا بأس من الإشارة الى أن استعمال الأقواس لم يكن حكرا على الجنود المشاة. بل كان عدد من الفرسان يستعملون بدورهم ذلك السلاح. وكان عليهم إصابة أهدافهم وهم على ظهور الخيول الراكضة. ونذكر هنا بأن برتراندون دو لا بركيير كان قد اشترى إبان مقامه بدمشق قوسا وجبة ومجموعة نبال فضلا عن سيف دمشقي. وحين غادر موكب الحجيج وواصل الرحلة رفقة المملوكي، إلتمس من هذا الأخير مساعدته على تعلم الرمي بالقوس والحصان في وضعية ركض[3].

ولا بأس من الإضافة هنا، بأن إعجاب النبلاء المسيحيين (في شخص برتراندون دو لا بركيير) بتقنية استعمال الأقواس من قبل مسلمي مشرق دار الاسلام ليست وليدة القرن الخامس عشر. بل عبروا عن إعجابهم بهذه التقنية منذ الحملة الصليبية الأولى التي تحدث عنها بعض إخباريهم. ومن بينهم فوشي الشارتري (Foucher de Chartres) الذي ذكر أن الجنود السلاجقة تصدوا للمسيحيين وهم متجهين للسيطرة على نيقية. "وكان معظم أولائك الجنود مؤلفين من فرسان مسلحين بأقواس سيرا على عادتهم. بينما كنا [أي المسيحيين] مؤلفين من فرسان ورجالة (...) وحين اقتربوا منا، وهم متحمسين ويرددون الهتافات، شرعوا في إمطارنا بالنبال. فأثاروا فينا الرعب والبلبلة. فقتل عدد منا وجرح عدد آخر، لأننا لم نكن متعودين على مثل هذه الطريقة في القتال"[4].

وبالاضافة للأقواس، كانت فئة من الجنود العثمانيين تستعمل السيوف. بينما كان آخرون يستعملون أسلحة اخرى من بينها الرماح والخناجر. واستعملوا في كثير من الوقائع الفؤوس والبلطات (أنواع من الفؤوس)

---

[1] - أنظر الصفحة 83 من رحلته. وكذلك في مواضع متفرقة وأيضا ضمن تعقيبه على تقرير طورسيلو.

[2] - نفسه ونفس الصفحة.

[3] - نفسه ونفس الصفحة.

[4] - Histoire des Croisades, in collection des mémoires relatifs à l'histoire de France, Édition et traduction Michel Gizot, Paris, J.-L.-J. Brière Libraire 1825, p. 29.

والهراوات. كما استعملوا المطارق والدبابيس وفق إفادات حاجي خليفة. الذي يذكر في معرض حديثه عن معركة دارت بين العثمانيين والمسيحيين سنة 1449 أن الجمعان التقيا صبح يوم 23 شتنبر من ذلك العام في ساحة الوغى. فتقاتلا وحمي الوطيس "فهجم الكفار بأجمعهم على المسلمين الذين سدوا عليهم المخرج. فعقروا دوابهم وقتلوهم بالمطارق والدبابيس"[1]. ويؤكد منجم باشي بدوره استعمال "الدبابيس" في الوقائع التي كان يخوضها العثمانيون. فيذكر في سياق الحديث عن معركة كوسوڤو. أنه عندما تداخل الفريقان، شرع بايزيد ابن مراد الأول في خوض القتال باستعمال "دبوس كبير على عادته. فخرق الصفوف وظهرت منه آثار رستمية يومئذ"[2].

ويتضح إذا أن النوعان من الأسلحة الوارد ذكرهما في شهادتي حاجي خليفة ومنجم باشي وكذلك الأسلحة الأخرى كالخناجر والبلطات والهراوات، كانت تستعمل عند الاحتكاك المباشر بالمسيحيين. لأن هؤلاء، وخاصة منهم الفرسان، كانوا مدرعين. ولذلك كان لابد من استعمال الأسلحة المذكورة للنيل منهم أو للنيل من الخيول التي يمتطوها لتسقط فيسهل النيل من الفرسان الذين يمتطونها.

ويفيد ذلك أيضا بأن الجنود العثمانيين، فرسانا كانوا أو مشاة، كانوا يستعملون أسلحة خفيفة ولم يكونوا مدججين بالسلاح ومدرعين على غرار للفرسان المسيحيين، ولذلك كانوا يتحركون بخفة داخل ميدان المعركة. كما كانوا يتحركون بسرعة من المواقع التي يرابطون فيها الى ساحة المعركة كما لاحظ ذلك برتراندون دو لا بركيير، الذي يذكر بأنهم كانوا يتحركون بخفة متناهية الفيلق تلو الفيلق دون أن يحدثوا ضجيجا خلافا للمحاربين المسيحيين الذين كانوا، وفق شهادته، بطيئي الحركة كثيري الضوضاء.

وفضلا عن خفة الحركة دون إحداث ضوضاء، كان الجنود العثمانيون يفضلون في كثير من الأحيان السري ليلا. ويشير برتراندون دو لابركيير في هذا الصدد أنهم كانوا يقطعون مسافة طويلة في وقت وجيز.

وقد أكد صحة ملاحظته بعض الباحثين المعاصرين ومن بينهم قمط سلابيري[3]، الذي يذكر أن المقاتلين المسيحيين الذين خاضوا معركة نقبوليس بلغوا قرابة المائة ألف رجل. وقد أعجبوا كلهم بقدرات السلطان بايزيد القتالية وحنكته في إدارة المعركة وسرعة وصوله الى ميدان المعركة. فقد تحرك المقاتلون العثمانيون تحت إمرته في الخفاء ووصلوا الى ميدان

---

[1] ـ أنظر كتابه فذلكة، ص. 189.
[2] ـ أنظر كتاب جامع الدول الذي سبقت الاحالة عليه، ص. 50.
[3] ـ أنظر مصنفه الذي سبقت الإحالة عليه، ص. 91.

المعركة بسرعة مدهشة. واتخذوا مواقعهم على شكل قوس لم يظهر جناحاه الذان اختفى الجنود المكونون لهما بين الأشجار[1].

ويؤكد حاجي خليفة أيضا في سياق الحديث عن أحداث سنة 1442، أن المسيحيين استغلوا الحرب الدائرة بين السلطان مراد الثاني وإبراهيم بك في بلاد القرمان، فحشدوا محاربيهم وانطلقوا من بلغراد بنية الاستيلاء على أدرنة. "ولكن السلطان سبقهم وضبط عدة حصون في طريقه. ومنعهم من السلوك. فلما تبين عجزهم عن الجواز وقد حل الشتاء، عادوا الى بلادهم"[2].

5) حول أزياء الجنود

نذكر في مستهل هذه الفقرة بأن برتراندون دو لا بركيير خص السلطان مراد الثاني بوصف دقيق توقفنا عنده في فقرة سابقة. ولكنه لم يتحدث عن الملابس التي كان يرتديها. كما لم يتحدث عن الملابس التي كان يرتديها الباشاوات. ولكنه بالمقابل خص ملابس النسوة، اللائي كن في موكب هدية السلطان لابنة باي بلاد الإغريق بمناسبة زفافها، ببضعة أسطر. فذكر أن زوجة أحد الباشوات كانت تتقدم حوالي ثلاثين امرأة "كن يرتدين فساتين فاخرة من الفرو المطرز. وكن يضعن فوق وجوههن نقابات من قماش فاخر مرصعة بالأحجار الكريمة"[3].

وكان قبل ذلك قد تحدث، خلال المرحلة اللبنانية – السورية، عن الملابس العربية ثم الملابس التركمانية التي اشتراها وارتداها قصد إخفاء هويته.

وبغض النظر عن هذه المعلومات المقتضبة، لم يخصص لأزياء عامة وخاصة الناس حيزا مهما في نص الرحلة. وبما أنه أولى عناية للحديث عن الجنود العثمانيين وعن الطرق التي كانوا يتبعونها في خوض الحروب وعن بعض الأسلحة التي كانوا يستعملونها، كان من المنتظر أن يخصص حيزا للحديث عن أزيائهم. ولكنه لم يفعل واكتفى بحديث مقتضب عن زي الفرسان عامة. فذكر كما أوردنا ذلك في النص الذي توقف فيه مليا للحديث عن طرق تخلص المسيحيين من سيطرة العثمانيين، بأن هؤلاء يرتدون سراويل تحتية تصل الى الركبتين. ويضعون فوقها لباسا مصنوعا من القطن يشبه الفستان يغطي الجسم من الكتف حتى القدمين. وقد يضع الواحد منهم

---

[1] ـ نفس المرجع والصفحة.

[2] ـ أنظر كتاب فذلكة، ص. 187.

[3] ـ أنظر السفر ما وراء البحر، ص. 198.

فستانين أو ثلاث، الواحد فوق الآخر. ويرتدون فوق تلك "الفساتين" رداءا خفيفا يشبه المعطف. يمنع تسرب مياه الأمطار الى ما تحته. وينتعلون أحذية طويلة تصل الى الركبتين. ويضعون فوق رؤوسهم قبعات مصنوعة من خيط صلب. ثم يضعون فوقها ما يشبه الخوذات.

وتفيد معظم الدراسات الحديثة والمعاصرة التي أحلنا على نماذج منها، بأن المقاتلين العثمانيين لم يكونوا يرتدون أزياء موحدة عند بداية عهدهم في غرب الأناضول. فقد كانوا يمارسون الزراعة ورعي قطعان الماشية إبان فترات السلم. وحين تقضي الضرورة القيام بالغزو، يتوزع المؤهلون منهم للقتال بين خيالة ومشاة حاملين الأقواس والسيوف والأسلحة الخفيفة الأخرى التي تحدثنا عن نماذج منها دون الحرص على توحيد أزيائهم أو انتقاء ملابس خاصة ملائمة لعمليات القتال.

وفي أعقاب النصر الأول الذي حققوه في ربيع 1285، ثم الانتصارات التي تلته خلال السنوات الموالية، أهدى سلطان السلاجقة علاء الدين لزعيمهم عثمان شارات السيادة متمثلة في "طبل وراية"[1] وسمح له بممارسة السلطة في المناطق التي كانت تحت يده. فكان ذلك مقدمة لقيام كيان سياسي.

وغني عن البيان أن الكيان السياسي يقتضي الإستناد الى قوة عسكرية. ولذلك تزايد عدد المقاتلين تحت إمرة عثمان بانضمام شباب المناطق التي انضوت تحت راية العثمانيين. ثم أخذت التطورات اللاحقة تدعو الى ضرورة اتخاذ جيش نضامي. وذلك ما تحقق في عهد أورخان الذي خلف أباه عثمان على زعامة عشيرة العثمانيين، حيث أصبح معظم المقاتلين منضوين في جيش متفرغ للحروب موزع بين فرسان ومشاة. ففكر بعض المقربين من أورخان التمييز بين عناصر هذا الجيش من حيث الزي. ويذكر لطفي باشا في "تواريخ آل عثمان"، أن علي باشا هو من اقترح على أخيه السلطان أورخان أن يجعل الجنود متميزين بأن يضع بعضهم فوق رأسه غطاء أحمر والبعض الآخر غطاء أبيض. "فأمر أورخان الجيش بلبس العمامة فلبسوها"[2].

وزاد عنه حاجي خليفة في هذا الشأن. فذكر أن السلطان أورخان خص جنده وجند البلاط بالقلنسوة البيضاء. بينما "ألبس الأعيان أتباعهم قلنسوة

---

[1] - أنظر، منجم باشي، جامع الدول، ص. 11 وحسين جوكتشة وصالح كولن ولطيف جنتش، السلاطين الأوائل، عصر تأسيس الدولة العثمانية، مرجع سبقت الاحالة عليه، ص.ص. 19-20.

[2] - أنظر تواريخ آل عثمان، ص. 116.

حمراء. واستمر الأمر كذلك الى زمن أبي الفتح (محمد الفاتح) الذي أمر أن يتعمم عامة الجنود بعمامة بيضاء رعاية للسنة النبوية"[1]. ويؤكد الإخباري البيزنطي دوكاس بدوره أن الجنود الذين يحاربون تحت إمرة السلطان مباشرة، كانوا يرتدون القلنسوة البيضاء[2].

ويؤيد الباحثون المعاصرون حاجي خليفة ودوكاس في كون عناصر فيلق الإنكشارية المستحدث في عهد أورخان، اختصوا بالقلنسوة البيضاء. ويزيدون عنهما في التفصيل بأن الجزء الخلفي من تلك القلنسوة كانت تتدلى منه شريطة عريضة نسبيا شبيهة بكم معطف.

وترمز تلك الشريطة، وفق أولائك الباحثين، الى كم القميص الذي كان يرتديه الفقيه، أو الى ذراعه، حين مده ووضع يده فوق رأس أحد "الإنكشاريين" مباركا عملية تأسيس الفيلق الجديد.

ثالثا: التحصينات العسكرية العثمانية على الطريق البري الذي سلكه برتراندون دو لا بركيير أثناء العودة

نعود لنذكر في هذا المقام بأن برتراندون دو لا بركيير قام برحلته بأمر من الدوق فليب الطيب قصد الإطلاع على قدرات العثمانيين العسكرية في سياق الإعداد لحرب مقدسة كان الدوق ينوي خوضها ضدهم.

وقد كان الدوق ينوي أن تتجه جيوشه لخوض تلك الحرب عبر الطريق البري الذي سلكه برتراندون دو لا بركيير وهو عائد الى موطنه. ويخترق ذلك الطريق جنوب شرق تركيا الحالية ومنطقة البلقان وبلغاريا وصربيا وهنغاريا (المجر). وتقع على امتداده عدة مراكز حضرية من بينها أدرنة وفيليبوبوليس (بلوڤديڤ حاليا Plovdiv) وصوفيا وڤدين (Vidin).

وتبعا للمهمة التي رحل من أجلها برتراندون دو لا بركيير، فقد حرص على تسجيل جملة من الملاحظات حول طبيعة المناطق التي يخترقها ذلك الطريق وحول التحصينات العسكرية الواقعة على امتداده.

ويكفي أن نذكر من بين تلك الملاحظات، على سبيل المثال، ما ذكره عن اتجاهات نهر الدانوب وعن جريان مياهه وعن المنشآت الواقعة على ضفافه[3] وما ذكره عن قرية شقودر (Shkodër ou Scutari) التي قال عند وصوله اليها "بأنها تقع قبالة مدينة بيرا (Pera) وقد دخلنا اليها عبر

---

[1] ـ أنظر كتابه، فذلكة، ص. 140.

[2] ـ أنظر اخباريته التي سبقت الاحالة عليها، ص. 109.

[3] ـ أنظر السفر ما وراء البحر، الصفحات 283 و 308 و313 و316.

مضيق"[1]. واضاف بأن "أعوانا أتراكا يشرفون على حراسة المضيق ويأخذون مكسا من كل شخص يعبره. وقد عبرنا المضيق على متن مركبين في ملكية إغريقيين"[2]. وأرسى المركب في مرفئ يقع بين صخرتين تساعدان على حصانته[3]. وذكر حين وصوله الى مدينة بيرا (بك أوغلي حاليا Beyoğlu)، بأنها مدينة كبيرة خاضعة لسلطة الجينويين. تبدو غير محصنة من جهة البر[4].

وعلى كل، فإن العثمانيين الذين شرعوا في العبورالى منطقة البلقان ابتداء من سنة 1353، سلكوا الطريق الذي أشرنا اليه. وتفيد بعض الأبحاث أن قسما كبيرا من هذا الطريق كان يربط قديما بين شطري الامبراطورية الرومانية. وكان ينعت "بالطريق العسكري" (via militaris). كانت تعبره الجيوش. ولكن كان يعبره أيضا المسافرون والتجار.

وظل بعد ذلك المسلك الاعتيادي الذي أخذ يسلكه السفراء ورجال الدولة الأوربيين، وسعاة البريد، وهم متجهين الى القسطنطينية بعد أن أضحت حاضرة الإمبراطورية العثمانية. كما كانت توجد على امتداده قلاع وأبراج وكذلك مراكز ايواء واسطبلات موضوعة رهن إشارة العابرين[5].

بدأت علاقة العثمانيين بذلك الطريق سنة 1353 كما ذكرنا. حين تمكنوا من هزم القوات الصربية – البلغارية التي كانت تسعى للسيطرة على مدينة اسطمبول. واعترافا بالجميل تنازل الإمبراطور البيزنطي يوحنا كونتاكوزين عن قلعة جمبي (çimpe) لأورخان. فكانت أول مركز في البلقان شمله نفوذهم. فاتخذوه قاعدة متقدمة انطلقوا منها بعد ذلك للقيام بالفتوحات في الأراضي الأوربية. فسيطروا على كَلبولي (Gallipoli) سنة 1357. ثم سيطروا على بورصة وإزنيق وإزميت. وواصلوا زحفهم عبر ذلك الطريق خلال عهد مراد الأول. فاستولوا سنة 1365 على أجزاء من منطقة تراقيا البلغارية. ومن ضمنها مدينة أدرنة التي أعادوا سيطرتهم عليها واتخذوها

---

[1] - السفر، ص. 140.
[2] - نفسه. ونفس الصفحة.
[3] - نفسه.
[4] - نفسه.
[5] - يمكن العودة في هذا الشأن الى كتاب:
Jan Abraham Meijn Van Spanbroek, Le voyage d'un gentihomme d'ambassade d'Utrecht à Constantinople en 1765, texte présenté et annoté par Catherine Vigne, Paris, L'Harmattan, 2007, p. 26.

حاضرة لدولتهم. ثم استولوا على وادي ماريتسا سنة 1367. ثم بسطوا سلطتهم على مناطق جنوب صربيا سنة 1371. واستولوا بعد ذلك على نيش سنة 1375. ثم على صوفيا سنة 1382.

وتواصل المد العثماني عبر ذلك الطريق في عهد السلطان بايزيد الأول الذي وصلت جيوشه الى أثينا. ثم في عهد مراد الثاني الذي اخترقت جيوشه صربيا وطرقت أبواب بلغراد وحاصرتها لمدة ستة أشهر دون أن تتمكن من اقتحامها كما ذكرنا فيما مضى.

وكان العثمانيون يرغبون في اقتحام هذه المدينة نظرا لموقعها الاستراتيجي ولكونها تمثل قلعة منيعة في وجه أية قوة تريد اقتحامها من جهة الشرق أو من جهة الغرب. وقد افضت تلك الرغبة الى مواجهة ڤارنا 1444 التي سبق أن تحدثنا عنها.

وشجع انتصار العثمانيين في تلك المواجهة على المضي قدما في زحفهم عبر الطريق الذي سلكه برتراندون دو لا بركيير خلال عودته الى موطنه. فوصلت جيوشهم بعد عهد مراد الثاني الى ڤيينا التي حاصرتها مرتين (سنة 1529 وسنة 1683).

وإن الذي يهمنا في هذا المقام، هو أن عمليات الفتح التي تمت حتى بداية رحلة برتراندون دو لا بركيير، قامت على أساس اقتحام المراكز العسكرية المسيحية من حصون وقلاع وابراج فضلا عن المؤسسات الدينية التي حولها المسيحيون الى حصون قبيل انطلاق الفتوحات العثمانية وخلال مجرياتها[1].

وفي أعقاب كل انتصار، كانت خطوط الدفاع العثمانية تتقدم لتشمل المجال الجغرافي الذي أضحى تحت سيادتهم. وهذا ما يؤكده محمد حمزة اسماعيل الحداد بقوله "أنه كلما تقدمت الفتوحات، كلما تشكلت مناطق حدود جديدة"[2].

ولكن الملاحظ أن العثمانيين لم يشيدوا، حتى سنة 1453 تاريخ سيطرتهم على القسطنطينية، حصونا وقلاعا جديدة في المناطق الأوربية التي فتحوها. بل استغلوا المراكز العسكرية التي كانت موجودة بها وقاموا بترميم معظمها. ولكن ذلك لا يمنع من القول بأنهم أقاموا بعض المنشآت

---

[1] - يمكن العودة في هذا الشأن كتاب:

Peter Harrison, Casteles of God, Fortified religious buildings of the world, New York, The Boydell Press, 2004, pp. 133-139.

[2] - أأنظر كتابه، العمارة الإسلامية في أوربا العثمانية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت 2002، ص. 101.

العسكرية الجديدة. كما حدث مثلا في عهد بايزيد الأول حين أعادوا بناء حصن گلبولي الذي تعرض للدمار. كما شيدوا برجا للمراقبة والدفاع عن مرفئ المدينة وفق شهادة المؤرخ دوكاس[1]. وقد عاينه كْيبير دو لانوى وتحدث عنه في سياق رحلة التجسس التي قام بها قبل زميله برتراندون دو لا بركيير[2].

والراجح أن القلاع والحصون والأبراج القديمة المنتشرة على "الطريق العسكري" (via militaris) كانت تقع في مواقع استراتيجية. وظلت تؤدي الوظيفة التي شيدت من أجلها منذ القدم. ولذلك استغلها العثمانيون وفق إفادات بيسترا سڤيتكوڤا (Bistra Cvetkova) الذي يذكر في هذا السياق بأن العثمانيين استعانوا بخدمات جنود المناطق الأوربية التي فتحوها من خلال استنفار أعداد منهم ضمن وحداتهم القتالية. كما استغلوا قلاع تلك المناطق وحصونها وكذلك التجهيزات التي كانت تتوفر عليها[3].

وعموما، تمثلت أهم القلاع والحصون فيما يلي:

- قلعة زيلكالي كالسي (Zilkale Kalesi) الواقعة على وادي فيرتينا (Fırtına) في ولاية ريزة (Rize) في أقصى شرق البحر الأسود. وقد كانت في الأصل كنسية مبنية فوق تل صخري مطل على الوادي. فتم تحويلها عند مطلع القرن الرابع عشر الى حصن محاط بجدار مزدوج ينتهي ببرج مركزي. وتقع داخل الحص ثكنة لإيواء عدد من الجنود[4]. وقد استغله العثمانيون عندما أضحت منطقة وجوده ضمن مجال نفوذهم وزودوه بمدفعين متوسطي الحجم.

- قلعة گلوباك (Golubac) الواقعة في شمال شرق المجال الصربي على الضفة اليمنى لنهر الدانوب. وهي قلعة حصينة تحيط بها تسعة أبراج يحتمل أنها شيدت في مطلع القرن الرابع عشر[2]. ولكن نواة القلعة قديمة

---

[1] - أنظر كتابه الذي سبقت الاحالة عليه، ص. ص. 12-13.

[2] - أنظر رحلة كْيبير دو لانوى التي سبقت الإحالة عليها، ص. 161. وانظر كذلك كتاب ايرينا بيتروسيان، الإنكشاريون، ص. 59.

[3] - أنظر كتابه الموسوم ب:

Les institutions ottomanes en Europe, Wiebaden, Franz Steiner Verlag GMBH, 1987, p. 35.

[4] - لمزيد من التفاصيل، يمكنم العودة لكتاب:

Anthony Bryer and David Winfield, The Byzantine Monuments and Topography of the Pontos. Dumbarton Oaks Centre Studies Library and Collection, 1985. 2 Vol.

[2] - Alexandar Deroko, "Le château fort de Golubac", Bulletin de l'Académie Serbe des Sciences, Tome VI, no 01, 1952, pp. 64-66.

البنيان كانت عبارة عن منشأة للمراقبة حركة العبور والتجارة منذ قيام الإمبراطورية الرومانية. ثم أصبحت مركزا لمراقبة الحدود بالنسبة لأباطرة الإمبراطورية الشرقية[1].

وقد مثلت القلعة قاعدة متقدمة للدفاع عن صربيا ضد أي هجوم محتمل من الناحية الجنوبية أوالشرقية. ولذلك كانت موضوع شد وجذب بين الصربيين من جهة والهنغاريين والبيزنطيين من جهة أخرى. ثم أصبحت موضوع صراع بين الصربيين والعثمانيين حين شرعوا في التوغل في صربيا زمن حكم بايزيد. وقد انتهى ذلك الصراع بسيطرة العثمانيين عليها حوالي سنة 1382. ولكن الصربيين استردهوها زمن حكم سجيسموند الذي كان حكمه يشمل عدة مناطق بما فيها صربيا. فأقطعها، والمناطق المحيطة بها، لتابعه الصربي ستيفان لزرفيتش (Stefan Lazarevič) نظير التصدي للعثمانيين.

ثم ألت القلعة للعثمانيين بعد وفاة ستيفان لزرفيتش سنة 1427 وفشل سجيسموند في التصدي للجيش العثماني بقيادة مراد الثاني[2]. ولكن سيطرة العثمانيين على القلعة لم تكن مطلقة لأنها ظلت دوما موضوع شد وجذب بينهم وبين الهنغاريين.

- قلعة سالونيك الشهيرة، المعروفة بحصن إبتابيرجيون (Heptapyrgion) أو حصن السبعة أبراج. وهي عبارة عن ثكنة عسكرية صغيرة يمكن أن يحتمي بها حوالي ثلاثمئة جندي. وتضم برجا يتألف من سبعة أدوار. بنيت هذه الثكنة عند مطلع القرن الرابع للميلاد على أنقاض قلعة قديمة. وشهدت عدة اصلاحات فيما بعد. وقد تعرض قسم منها للدمار بعد سيطرة العثمانيين عليها سنة 1431. فأعادوا ترميمها[3].

---

[1] - Gordana Simic, The Mediaeval Fortress of Golubac, Institute for the Protection of Cultural Monuments of the Republic of Serbia, 2012.

[2] - أنظر الفصل الثالث من كتاب:

Tamás Pálosfalvi, From Nicopolis to Mohács: A History of Ottoman-Hungarian Warfare (1389-1526), Leiden/Boston, Brill 1901.

[3] - أنظر في هذا الشأن كتاب:

Slobodan Ćurčić, Euangelia Chatzētryphōnos, Secular Medieval Architecture in the Balkans 1300-1500 and Its Preservation, Aimos, Michigan, Society for the Study of the Medieval Architecture in the Balkans and its Preservation, 1997, p.192.

والقسم الثالث من كتاب:

- قلعة سمندرية (Smederevo) المنيعة. وهي خلافا للقلاع السابق ذكرها، تعتبر منشأة عسكرية حديثة البنيان. تعود لمطلع القرن الخامس عشر. تقع على بعد بضع كيلوميترات جنوب شرق بلغراد على الضفة اليمنى لنهر الدانوب. وتمثل مدخلا نحو عدة مدن هنغارية وكذلك مركزا استراتيجيا لمراقبة النشاط التجاري عبر النهر المذكور. والواقع أنها لم تكن مجرد قلعة. بل كانت عبارة عن مدينة محصنة نظرا لشساعة مساحتها. ولكونها اتخذت بعد الانتهاء من بنائها عاصمة لمملكة صربيا زمن حكم دوراند براكوڤيتش[1]. ولكن استقراره بها لم يتجاوز بضع سنين. حيث سقطت في حوزة العثمانيين الذين اقتحموها سنة 1438.

ومن المفيد الإشارة الى نموذج آخر من التحصينات لم يتحدث عنه برتراندون دو لا بركيير. ويتعلق الأمر "بالتحصينات البشرية" التي اولاها السلاطين العثمانيون أهمية لا تقل عن تلك التي اولوها للتحصينات المادية (قلاع وابراج).

فقد كانوا يعززون التحصينات العسكرية بإقامة مستوطنات في المناطق المفتوحة ويعملون على "تتريكها". ويفيدنا كل من يلماز أوزتونا وخليل اينالجيك في هذا المجال، بأن السلاطين كانوا يسمحون للقبائل التي تتبنى أسلوب الترحال بالانتقال من الأناضول للاقامة بمناطق البلقان التي كان يتم فتحها وذلك لضمان تبعيتها للسلطة المركزية. وأحيانا كانوا "يجبرون بعض القبائل على الانتقال اليها". كما كانوا يقومون بنقل بعض شباب تلك القبائل الى أقصى المناطق المفتوحة للاقامة في قصبات يقيمونها في تلك المناطق. وفي كل الحالات، كانوا ينشؤون المرافق الضرورية للمقيمين في كل مستوطنة كالمساجد والمؤسسات التعليمية والأسواق والحمامات[2].

Nikos D Kontogiannis, Byzantine Fortifications: Protecting the Roman Empire in the East, Pen and Sword Military, Yorkshire and Philadelphia, 2022. ...

[1] - أنظر كتاب:

John Jefferson, The holy wars of King Wladislas and Sultan Murad. The Ottoman-christian conflict from 1438-1444, Brill- Leiden 2012, pp. 107-108.

[2] - أنظر بالنسبة ليلماز أوزتونا، كتاب تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سبقت الاحالة عليه، ص. 88. وبالنسبة لخليل اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص. 22.

وساهمت طوائف الدراويش بدور مهم في العملية. حيث كان أفرادها ينتقلون للإقامة في البلدات والمدن المفتوحة. وكانوا يشكلون بها، الى جانب المقيمين العثمانيين الآخرين، ما يشبه "الدرع البشري" في وجه أي رد فعل عسكري من جانب السكان المحليين. فضلا عن كونهم كانوا يساهمون في نشر الإسلام بين سكان تلك البلدات والمدن وفي اضفاء الطابع التركي عليها[2].

رابعا: أوضاع بعض الحواضر والقرى التي زارها برتراندون دو لا بركيير

قدم برتراندون دو لا بركيير في مصنفه معلومات غزيرة ودقيقة عن المسار الذي سلكه أثناء رحلته. وقد تحدث عن المشاهد الطبيعية المحيطة بالمسالك التي عبرها كما تحدث عن المنشآت العمرانية المنتشرة على طول تلك المسالك كالحصون والقلاع والأبراج والقناطر والمنشآت السكنية الريفية والحضرية.

وقد خص بالوصف كل مدينة او بلدة مر بها أو أقام بها فترة قليلة أو طويلة. والملاحظ أن وصفه لمعظمها لم يتجاوز بضعة أسطر أو فقرة في أحسن الأحوال. باستثناء المدن المهمة كالقدس وبيروت ودمشق وبورصة والقسطنطينية وأدرنة التي خصها بوصف مطول نسبيا.

وسنحاول في هذه الفقرة التعقيب بايجاز على ما أورده حول أوضاع تلك المدن بشكل عام.

1) أوضاع مدن فلسطين وبلاد الشام

يقر برتراندون دو لا بركيير، أن المدن الفلسطينية، بما فيها القدس، فقدت الكثير من بريقها. ويحاول أن يقنعنا بأنها كانت أحسن حالا زمن سيادة الصليبيين. فيذكر في هذا المقام أن معظم منشآتها تعرضت للدمار. فمدينة يافا، على سبيل المثال، كانت حسب زعمه عامرة زمن سيادة المسيحيين.

---

[2] - لمزيد من التفاصيل في هذا الشأن، يمكن العودة على سبيل المثال للمقالين التاليين:
- Michel Balivet, "Aux origines de l'islamisation des Balkans ottomans", Revue du monde musulman et de la Mediterranée, 1992, pp. 11-20.
- Machiel Kiev, "La diffusion de l'Islam dans les campagnes bulgares à l'époque ottomane (XVe-XIXe siècles). Colonisation et conversion", Revue du monde musulman et de la Mediterranée, 1992, pp. 39-53.

أما خلال زيارته لها، فهي مجرد بنايات مخربة. بعضها تحولت الى كهوف يأوي إليها الحجاج هربا من لهيب الشمس[1].

وقد طغى على ملاحظاته نوع من الانتقال بين الماضي والحاضر. فظل عند وصف كل مدينة يتأسف على ما آلت اليه. ويذكر أنها كانت أفضل حالا فيما مضى أي حين كان يحكمها المسيحيون. ولم يشر قط الى أسباب ترديها. ومن المرجح أن التردي لحقها من جراء الحروب التي كانت ميدانا لها إبان مرحلة التحرير.

وإذ كانت الحرب أمرا لا مفر منه لتحرير المدن المحتلة، فإننا نعتقد مع ذلك أن أمراء المماليك تعمدوا نهج سياسة تدمير العمران وحرق الغلال لتحقيق التحرير كما تفصح عن ذلك شهادة المقريزي حول تحرير عكا[2]. حيث يذكر أن بوادر الإنهزام بانت على المسيحيين حين وصل المسلمون الى مشارفها وقبيل بدإ المواجهة. ورغم ذلك، " إمتدت الأيدي الى ما حول المدينة من الأبراج، فهدمت وأحرقت الأشجار حتى انعقد الجو من دخانها"[3]. ويورد سهيل زكار بدوره شهادة مماثلة عن تحرير نابلس وقلعة جيرين وبلدة صفد وغيرها من مدن الداخل والساحل. فيذكر أن السلطان صلاح الدين "أغار على المنطقة الواقعة حول قلعة الكرك لجمع الغلال والأعلاف (...) ثم عبر الى بلدة نابلس التي نهبها ثم أحرقها (...) ثم زحف من هناك الى العربية فشعثها واقتلع النساء والرجال وحملهم معه أسرى. وتابع من هناك زحفه الى قلعة جبرين الكبرى التي دمرها وقتل كلا من الرجال والنساء. باستثناء عدد قليل اتخذهم أسرى"[4]. وقد برر سياسة التدمير بتخوف أمراء المماليك من عودة الصليبيين الى تلك المدن إن تم تحريرها دون تدميرها.

وعلى كل، يلاحظ انطلاقا من إفادات برتراندون دو لا بركيير، أن فترة مرت على نهاية الوجود الصليبي في فلسطين دون ان تتم إعادة تاهيل وتعميرالمدن التي تأثرت من جراء تلك الحروب. خاصة وأنها استعادت

---

[1] - السفر ما وراء البحر، ص. 9.

[2] - أنظر كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1997، المجلد الأول، ص ص. 554.

[3] - نفسه، ص. 554.

[4] - أنظر كتاب الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق 2000، الجزء 39، ص.ص. 310-311.. وكتاب فلسطين في عهد المماليك من أواسط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي الى مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ص. 549 وما بعدها.

بعض عافيتها بفضل الأنشطة التجارية والحرفية التي كانت تحتضنها. كما أنها كانت وظلت قبلة الزوار الذين كانوا يرتادونها من جميع الآفاق. وكان الساهرون على تدبير الشأن العام بها يجنون أموالا طائلة من وراء تلك الأنشطة وتلك الزيارات.

ولكن الراجح أن المكلفين بتدبير الشأن العام المحلي وكذلك سادتهم من أمراء المماليك، لم ينجحوا في النهوض بتلك الحواضر وتحسين وضعية أهاليها رغم أنهم نجحوا في تحريرها من قبضة الصليبيين ورغم أنهم حاولوا إعادة إعمار بعضها. وإن تركزت محاولاتهم، على ما يبدو، في مدينة القدس التي أقاموا بها عدة منشآت وخاصة في عهد الظاهر بيبرس[1].

ويبدو أن وضع مدن بلاد الشام كان مماثلا تقريبا لوضع مدن فلسطين. ونذكر هنا بأن برتراندون دو لا بركيير لاحظ بعض معالم الدمار في دمشق وهو يتجول بين أحيائها رغم انصرام أكثر قليلا من ثلاثة عقود على الغزو الذي تعرضت له من طرف جيوش تيمورلنك. فذكر أن آثار النكبة ما زالت بادية للعيان على قلعتها الحصينة البواقعة قبالة الجيل. وقد كانت قبل الغزو من محاسن دمشق.

ونعتقد أن مصير مدن فلسطين وبلاد الشام وكذلك مصير أهالي تلك المدن كان سيان لكونهم كانوا خاضعين جميعا لسلطة أمراء المماليك.

ويجمع عدد من الباحثين العرب المعاصرين[2]، بأن أمراء المماليك طبقوا سياسة "شبه عسكرية" في المجال الذي خضع لسلطتهم. وقد قامت تلك السياسة على التمييز والإقصاء. حيث ميزوا في الأهالي بين خاصة وعامة أو عوام. فقربوا منهم بعض أفراد الخاصة كرجال الدين وعلية القوم وكبار التجار. بينما أقصوا سواد المجتمع أو العامة. وحالوا بينهم وبين دواليب الحكم على المستوى المحلي كما على مستوى النيابات الكبرى والصغرى أو على مستوى الإمارة. وهذا ما يقر به سعيد عبد الفتاح عاشور حين يذكر بأن أهل تلك الربوع "كانوا مغلوبين على أمرهم يخضعون

---

[1] - يمكن العودة في هذا الشأن الى مقال عمر موسى مشعل الموسوم ب:
"من تاريخ الحركة العمرانية بفلسطين في العهد المملوكي"، حوليات القدس، العدد 12، شتاء 2011، ص ص. 63-85.

[2] - من بينهم على سبيل المثال لا الحصر:
سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المملوكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة 1976، ص. 320 ومفيد الزبيدي، العصر المملوكي، ضمن موسوعة التاريخ الاسلامي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان 2009، ص. 221 وما يليها.

لأرستقراطية حاكمة استأثرت بالحكم وبالوظائف وحرمتهم من مشاركة، مشاركة ذات قيمة في أمر من أمور بلادهم"[1].

وفضلا عن ذلك لم يستفد أفراد العامة من عائدات الأنشطة الاقتصادية التي كانوا يمارسونها في الحواضر والأرياف. وقد كانت تلك الأنشطة أصلا محدودة لا تدر على ممارسيها دخلا كبيرا. حيث تمثلت في تجارة التقسيط وبعض الأنشطة الحرفية والخدماتية والزراعة المعاشية في ضواحي الحواضر وفي الأرياف فضلا عن تربية بعض قطعان الماشية.

ورغم كل هذه المثبطات، كان أولائك العامة ملزمين بالطاعة لأولي الأمر ودفع ما يفرض عليهم من ضرائب واتاوات ومكوس أثقلت كاهلهم وجعلتهم يعيشون حياة الكفاف على الدوام.

2) أوضاع مدن وقرى منطقة الأناضول

نشير قبل التعليق على ما أورده برتراندون دو لا بركيير حول أوضاع مدن وقرى منطقة الأناضول، الى أن السيادة على هذه المنطقة كانت موزعة بين الإمبراطورية البيزنطية ودولة السلاجقة. وحين دخلا مرحلة تدهور واحتضار، أضحت مرتعا لعدد من القوى المحلية المتمثلة في الأمراء التركمان والغزاة أمراء الحرب ومن بينهم العثمانيون الذين بزغ نجمهم. وتمكنوا من بسط سيطرتهم على بعض حواضرالمنطقة، كبورصة وأضنة وإريكّلي. ولكنهم فقدوا السيادة عليها خلال مرحلة التراجع والانكماش التي امتدت منذ هزيمة السلطان با يزيد أمام المغول حتى بداية حكم مراد الأول.

وحين زار برتراندون دو لا بركيير تلك المنطقة كان السلطان مراد الثاني ما يزال يخوض حروبا في بعض جهاتها من أجل إعادتها الى حضيرة الدولة. ونذكر هنا بما قاله عن صراع هذا السلطان مع صهره أمير قرمان.

ومما لا شك فيه، أن الحروب التي خاضها العثمانيون بها من أجل السيطرة عليها، والغزو الذي تعرضت له من قبل المغول ثم الحروب التي خاضها العثمانيون بها مجددا من أجل استعادتها، أثرت سلبا على أوضاع حواضرها وقراها وعلى أوضاع أهاليها.

وعلى كل، حين غادر برتراندون دو لا بركيير بلاد الشام، دخل مجالا كان يستوطنه التركمانيون. ويمتد هذا المجال من خليج الأسكندرون حتى المجرى الأسفل لنهر العاصي. فذكر بأن أكبر مراكزه الحضرية يتمثل في

---

[1] ـ أنظر كتابه السالف الذكر، ص. 213.

انطاكية. ورغم كبر حجمها، فما قاله عنها يترك الانطباع بان المدينة يغلب عليها الطابع الريفي لأن معظم أهاليها، بالإضافة الى عدد من القبائل العربية، كانوا يهتمون بتربية الإبل والماعز وعدد من رؤوس الأغنام والأبقار. وقلة منهم كانوا يمارسون زراعة معيشية في المناطق السهلية الخصبة أو حول المجاري المائية التي تخترق هذا المجال.

ويبدو أن هذا النمط من العيش كان متواترا منذ أمد بعيد وزادت في ترسيخه جموع القبائل التركية التي توافدت على المنطقة في أعقاب تراجع نفوذ البيزنطيين والسلاجقة وفق شهادة وليام شارل برايس (William Charles Brice)[1].

ويقر مجموعة باحثين بدورهم بأن القبائل التركية ظلت محافظة على نمط العيش الذي كانت تتبناه قبل وفادتها الى هذه الربوع ولم تغيره كما فعلت بعض فروعها التي استقرت في بعض مناطق سوريا على سبيل المثال. خاصة وأنها وجدت في منطقة الأناضول مجالا متسعا للترحال بقطعانها[2].

وقد لا حظ برتراندون دو لا بركييرفعلا أن عددا من الأهالي في بعض مناطق هذا المجال كما في المناطق الواقعة ما وراء الجبل الأسود، كانوا يتبنون أسلوب الترحال. ولذلك، لم يكونوا يقيمون في مساكن مبنية من مواد صلبة. وإنما في خيام أو في بيوت من خشب. وكانوا يهتمون بتربية المواشي التي تمدهم بكميات من الألبان يصنعون منها الجبن الذي يمثل أهم مادة عذائية يتناولونها في وجباتهم اليومية الى جانب كمية من قطع الخبز.

ولاحظ كذلك أنه سار بين مدينتي طرسوس وإريكْلي أربعة أيام في منطقة جبلية تتخللها بعض المنخفضات وبعض المساحات الواطئة. ورغم ذلك، لا يوجد بها عمران ولا يقيم بها أحد. مما يعني ميل أهالي تلك الربوع الى الترحال الدائم. وهذا ما أكده وليام شارل برايس[3].

---

[1] ـ أنظر مقاله الموسوم ب:

- "The Turkish colonization of Anatolia", Bulletin of the John Rylands Library, John Rylands Library, Volume 38, 1955, pp. 18-44.

[2] ـ أنظر:

Michel Balivet, Homa Lissen- Pezechki et René Mounier, Les Turcs seljoukides d'Anatolie du XIe aux XVe siècles, Aix- en- Provence, Presses Universitaires de Provence, 2017, Vol. 1, p. 35.

[3] ـ أنظر الصفحات 27 حتى 33 من مقاله الذي أحلنا عليه في هامش سابق.

ولم تتغير نبرة برتراندون دو لا بركيير عن منطقة الأناضول الا حين وصوله الى بورصة. فذكر بأنها أكبر حواضر هذه المنطقة. تعج بالحركة وتوجد بها كثير من المنشآت وأضرحة سلاطين بني عثمان الأوائل.

خامسا: حول طبائع مجتمعات المناطق التي زارها برتراندون دو لا بركيير

حين وصل برتراندون دو لا بركيير الى مدينة يافا بدأت فصول رحلته الطويلة التي كانت تقتضي نسج علاقات جديدة كل الجدة مع أمكنة مختلفة عن الأمكنة الأوربية التي يعيش فيها أو التي زارها. كما بدأ في الإحتكاك مع أفراد يختلفون عنه من حيث الإنتماء الإثني والديني واللغوي. وبقدر ما أحس بنوع من الإرتياح لأنه وصل سالما الى ما سماه "الأرض المقسة، أرض الميعاد" التي نوى أن يؤدي بها مناسك الحج قبل الشروع في المهمة التي رحل من أجلها، بقدر ما بدأت تصدر عنه بعض التعابير الدالة عن شعوره تجاه الأمكنة وتجاه الناس الذين يعمرونها. وظل هذا الشعور "يسكنه" طيلة مراحل الرحلة. ولكن التعابير الدالة عليه تراوحت بين السلبي والايجابي كما سنوضح من خلال هذا العرض السريع.

1) في فلسطين وبلاد الشام: بعض الأمكنة موحشة وبعض العرب طبعهم حاد

بدأت تصدرعن برتراندون دو لا بركيير بعض التعابير الدالة عن عدم الارتياح أو التذمر بعد أن حط بيافا وشرع في التطواف بين مدن فلسطين. وعبر وتجلى ذلك فيما ذكره عن خراب مدينة يافا وفيما ذكره عن الأعوان الذين يسهرون على إجراءات استقبال الوافدين ومنحهم تراخيص القيام بمناسك الحج وكذلك فيما ذكره عن الجباة الذين يستخلصون من الحجاج مكس العبور.

وأفصح أكثر عن شعوره كمسيحي حين وصل الى مدينة القدس. فذكر أن عدد المسيحيين المقيمين بها قليل. وأن العلاقة بينهم وبين المسلمين يطبعها التوتر. ولذلك يعيش هؤلاء المسيحيون في نوع من العزلة. ثم عاد للتعبير عن تذمره من سلوك العرب تجاه المسيحيين بعد تنقله بين القدس وغزة. فذكر أن القائمين بالترجمة في مدينة القدس يستفزون الحجاج وأن بعض أهالي غزة، من الذين يضعون دوابهم رهن إشارة الوافدين، يتعاملون

مع الزوار المسيحيين بنوع من الغلظة ويستغلون خدماتهم للابتزاز. فيمتنعون عن بيع الدواب لمن يرغب من المسيحيين في شرائها. ويفرضون عليهم كراءها بمبلغ يفوق السعر الذي تباع به.

ولكن حدة شعوره بعدم الارتياح من عرب فلسطين عامة ومن عرب غزة بوجه خاص، تراجعت في لحظة ضعف حين سقط مريضا وعاد أدراجه، بمساعدة رفاقه وبعض العرب، الى غزة دون إكمال الرحلة الى موناستير القديسة كاترين بسيناء. فآواه أحد الغزاويين في خيمة منصوبة قبالة بيته واعتنى به وسهر على راحته واتصل بترجمان أحضر شيخا سامريا قام بتطبيبه. فلم يجد ساعتها غضاضة في الثناء على الغزاوي والاعتراف بجميل صنعه.

ولكنه عاد للتعبير عن تذمره وعدم ارتياحه حين وصل الى دمشق. فوسم أهاليها من العرب بالتشدد ومقت الوافدين المسيحيين. فذكر أن مكري الدابة الذي كان يقوده واحد المسافرين كان رفقته، نصحهما بالترجل عند الاقتراب من مدخل المدينة. ولاحظ بعد دخول المدينة نفرا من السكان ينظرون اليهم بارتياب رغم ان المدينة لم تكن خالية من المسيحيين الأوربيين.

وحدث ان كان برتراندون دو لا بركيير يضع فوق راسه قبعة من فراء، فأتى أحدهم مسرعا وانتزعها من على رأسه بعصا كان يمسكها. فطارت القبعة بعيدا عن صاحبها. فالتقطها واراد وضعها مجددا فوق رأسه. ولكن مكري الدابة أشار اليه بألا يفعل. فعبر برتراندون دو لا بركييرعن ذلك التصرف بالقول: "هؤلاء العرب أشرار، إدراكهم محدود ولا يحبون أن يروا مسيحيا تبدو عليه علامات النعمة"[1].

وطبع الإزدراء أيضا موقفه من بعض أهل لبنان. وتجلى ذلك عندما عاد من دمشق الى بيروت. وحين وصلها شرع أهاليها قبيل الغروب في اقامة حفل عمومي. فكان بعضهم يغني وبعضهم يرقص. بينما كان نفر من الرجال يراقصون الخيول. فطلب برتراندون دو لا بركييرمن أحدهم القيام بتجربة فرفض بدعوى أن اللعبة خطيرة. وعندما قدم له قطعة نقدية (دوقة) سمح له بخوض التجربة. فعبر عن ردة فعل الرجل بقوله " بأن العرب مستعدين للقيام بأي شيئ يكسبون من ورائه مبلغا من المال"[2].

---

[1] ـ السفر ما وراء البحر، ص. 33.

[2] ـ نفسه، ص. 39.

وتفيد الإشارات التي أوردناها أن برتراندون دو لا بركيير لم يشعر بالارتياح منذ أن حل بيافا. وكان قاسيا في حكمه على طباع بعض أهالي فلسطين وبلاد الشام.

والملاحظ أن جذوة شعوره بالتذمرأخذت تخبو نسبيا مع توالي مراحل الرحلة كما سنرى لاحقا. ونعتقد أن لخصوصية المكان دور في تحديد طبيعة شعور الرحالة وما يصدر عنه طبعا من تعابير. فيافا أو غزة أو القدس ليست هي بورصة او ادرنة أو القسطنطينية أو بلغراد بالنسبة للرحالة المسيحي. ومعنى ذلك أن شعوره بالاختلاف ربما يكون أكثر حدة في أي مكان من الأرض المقدسة والمشرق الاسلامي عامة، عما يكون عليه في غيرهما.

ولذلك لا غرابة إذا وجدنا برتراندون دو لا بركيير يعبر عن ضجره في القدس وفي غزة وفي دمشق. فلم ترقه طريقة تعامل الأعوان والترجمان. كما لم يرقه سلوك أهل غزة ودمشق. وأشار الى كونه شعر بالاستفزاز في بعض المناسبات ورغب في الرد ولكنه كتم غيضه وامتلك أعصابه أو حيل بينه وبين الرد.

ولم يكن برتراندون دو لا بركيير الرحالة المسيحي الوحيد الذي حكم بقسوة على المنطقة وعلى اهاليها والقائمين بمناسك الحج فيها. فقد سبقه الى ذلك زميله الفارس كَيبير دو لانوى الذي زار الأرض المقدسة سنة 1421 والنبيل الفرنسي نومبار دو كومون (Nompar de Caumont) الذي رحل اليها سنة 1419[1] والراهب بيير (أو بطرس) برباتر (Pierre Barbatre) الذي أدى بها مناسك الحج حوالي سنة 1480 واكد بدوره ما تواتره الرحالة السابقون[2].

---

[1] ـ دون مشاهداته وانطباعاته عن تلك الرحلة في كتاب اعتنى بنشره ودراسته عدد من الباحثين من بينهم بياتريس دانسيت (Béatrice Dansette) التي أعادت نشره سنة 2002 ضمن موسوعة:

Croisades et Pèlerinages. Récits chroniques et voyages en Terre sainte XII^e^-XVI^e^ siècle, Paris, Robert Laffont, 2002.

لا بأس من الإشارة الى أن نومبار عبر عن تذمره منذ وصوله الى ميناء يافا الذي مكث به يومين على متن المركب الذي كان يقله في انتظار ان يحصل على ترخيص بمغادرة الميناء للقيام بمناسك الحج.

[2] ـ وردت ملاحظاته في سياق النص الذي وضعه بعد رحلته. وقد اهتم به عدد من الباحثين من بينهم بيير توكو-شالا (Pierre Tucoo-Chala) ونويل بينزوتي (Noël Pinzuti) اللذان قاما بنشره سنة 1974 تحت عنوان:

Le voyage de Pierre Barbatre à Jérusalem en 1480 : édition critique d'un manuscrit inédit, Paris, Klincksieck 1974.

والراجح أن هؤلاء المسيحيين كانوا على حق فيما ذهبوا اليه. فقد زار الرحالة المسلم ابن بطوطة مدينة القدس. وتحدث عن بعض الكنائس التي يزورها الحجاج المسيحيون. وذكر في معرض حديثه أن "النصارى" يعظمون احدى كنائس القدس ويزورنها معتقدين أن قبر عيسى عليه السلام موجود بها. "وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين. وضروب من الإهانة يتحملها على رغم انفه"[1].

ومما لا شك فيه، أن الغلظة في تعامل الأهالي مع الوافدين المسيحيين وتشدد الأعوان والجباة، كلها ظواهر تعكس التوجس والحذر الذان أضحيا يطغيان على موقف أعوان السلطة وموقف أهالي الأرض المقدسة من الوافدين المسيحيين. ويعتبران من دون شك من تداعيات ذلك الصراع المرير الذي احتدم بين المسلمين والمسيحيين خلال عدة قرون.

وقد ظل ذلك الصراع ماثلا في الأذهان. وخاصة خلال العقود التي تلت نهاية الوجود الصليبي بالمنطقة. وهذا ربما ما يفسر نظرة أهلها للوافدين المسيحيين وجنوح بعظهم للغلظة في التعامل معهم.

وقد توقفت نيكول شاريرون (Nicole Chareyron) عند بعض الشهادات من قبيل ما أوردناه. فخلصت الى القول بان حقيقة مقلقة أصبحت تروج بعد نهاية الحروب الصليبية في أوساط المسيحيين الراغبين في زيارة الأرض المقدسة وهي "أن الأشياء التي تفرق بين الناس أصبحت طاغية أكثر على تلك التي تقرب فيما بينهم"[2]. ولذلك كانوا يستعدون عند الوصول الى عتبات الأرض المقدسة لتحمل نظرات الأهالي وتشدد الأعوان وشطط الجباة.

2) في منطقة الأناضول: قوم طيبون ومتواضعون

كان موقف برتراندون دو لا بركيير من أهل حواضر وقرى الأناضول التي زارها مختلفا تماما عن موقفه من عرب فلسطين وبلاد الشام رغم أن عددا من الذين تعامل معهم في تلك الحواضر والقرى كانوا يعتنقون الإسلام

---

[1] ـ انظر رحلته الموسومة بتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق وتقديم الشيخ محمد عبد المنعم العريان، مراجعة وفهرسة مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، بيروت 1987، الجزء الأول، ص. 77.

[2] ـ أنظر كتابها الموسوم ب:

Les Pèlerins de Jérusalem au Moyen Âge : L'aventure du Saint voyage d'après Journaux et Mémoires, Paris, Imago, 2000, p. 90.

ورغم أن سوء تفاهم حصل بينه وبين بعضهم. بل ان أحدهم كاد أن يكشف أمره وما أتى من أجله. وقد كان موقفه عموما من هِلاء الأهالي مختلفا. ولا شك أن قارئ ما كتبناه عن مشاهداته وانطباعاته خلال المرحلة التركية يلمس ذلك.

فقد أبدى صاحبنا ارتياحه من بعض أهالي الأناضول منذ أن كان في دمشق. حيث نجح في الاتصال بالمدعو "الخوجة براك" قائد قافلة الحج القادمة من الديار المقدسة والتي كانت ستواصل رحلتها عبر الطريق الذي كان ينوي السير فيه. وقد وافق القائد، بعد تردد، على انضمام برتراندون دو لا بركيير الى القافلة. فعبر عن عرفانه بأن قدم "الخوجة براك" إناء مملوءا بالزنجبيل الأخضر كما ذكرنا فيما مضى.

ثم عبر عن ارتياحه تجاه هؤلاء الأهالي في شخص المملوكي الشركسي الذي تعرف عليه منذ انضمامه للقافلة. وكان لهذا الأخير دور مهم جدا في رحلة برتراندون دو لا بركيير. حيث دافع عنه بين ثلة من أعضاء الموكب فكروا في الفتك به لأنه مسيحي ورفض أن يلحقوا بها الأذى. بل حال بينهم وبينه بأن أبعده عن القافلة وأتما عدة مراحل من الرحلة بمفردهما.

وأبدى نفس الشعور حين التقى في مدينة أضنة بخمسة أو ستة تجار تركمانيين يعتنقون الاسلام. وقد أقام معهم ثلاثة أيام استطاع خلالها التواصل معهم بتلقائية. فشاركهم "الحديث" وترتيل الأذكار وتناول الطعام. كما رافقهم الى أحد الحمامات رغم أنه لم يستحم.

ولم يتردد في التعبير عن ارتياحه لمعاشرتهم وفي التعبير عن إعجابه بطيبوبتهم وكرمهم. فذكر بأنهم "أفراد طيبون". تعاملوا معه برفق. "وأنهم كرماء. كلما جلسنا لتناول احدى الوجبات، ومر فقير بالقرب منا، استدعوه ليشترك معنا في الأكل". وتأسف لكون هذه الظاهرة المعبرة عن كرم الأخلاق غير موجودة في موطنه.

وعاد للتعبير في مقام آخر عن إعجابه بأهالي منطقة الأناضول. فذكر بأنهم أناس مستعدون لمكابدة المشاق. وهم منشرحون على الدوام لا يخفون إحساسهم بالسعادة. تراهم منشرحين ويرددود الأغاني رغم قساوة العيش. وإن الإنسان البئيس أو التعيس، في نظره، لا يمكنه أن يجد مكانا له بينهم.

وان أهم ما نود استخلاصه هو أن موقف برتراندون دو لا بركيير من الأفراد الذين التقى بهم وتعامل معهم منذ بدء المرحلة التركية من رحلته حتى نهايتها وبداية المرحلة الأوربية كان متميزا وايجابيا بكل المقاييس رغم

سوء التفاهم والشجار الذي حصل بينه وبين مملوكي مسلم في أحد مراكز الايواء وكاد أن يفضي الى انكشاف أمره كما ذكرنا.

ويتجلى هذا التميز في كون برتراندون دو لا بركيير كان من أوائل الرحالة، وعموم المفكرين الغربيين، الذين تحدثوا بالايجاب عن سلوك الأتراك والتركمانيين. وقلة فقط من أولائك الرحالة والمفكرين ظلوا يتبنون ذلك الموقف الايجابي بعد القرن الخامس عشر[1]. في حين أن معظمهم كانوا يحطون من قدرهم ويشينون سلوكهم ويتهمونهم بالغلظة والعنف في التعامل مع الأوربيين. بل ذهب بعضهم الى نعتهم "بالبرابرة" الذين لفظتهم آسيا واجتاحوا أوربا. وظل هذا النعت شائعا في بعض الأوساط حتى مطلع القرن التاسع عشر[2].

---

[1] - من بينهم على سبيل المثال يوحنا-أنطوان كّير (Jean-Antoine Guer) الذي تحدث في فصل من الجزء الأول من أحد مؤلفاته عن بعض مثالبهم. ولكن لم يفته الحديث في ثلاث فصول أخرى من هذا الجزء عن سماحتهم واستقامتهم وحسن تعاملهم وغنى تقاليدهم ورقي مستواهم المعرفي...

يعرف هذا الكتاب ب:

Mœurs et usages des Turcs. Leur religion, leur gouvernement civil, militaire et politique avec un abrégé de l'histoire ottomane, Paris, Coustelier Libraire Éditeur 1747., 2 Tomes.

[2] - أنظر على سبيل المثال لا الحصر ما تورده مارينا لوشنكو (Marina Lushchenko) في مقال مطول تحت عنوان:

"La figure du barbare turc dans le discours politique et civilisationnel français du moyen âge (XII^{e}–XV^{e} siècles)", Viator Multilingual, no 43, 2012, pp. 75-96.

ومقال اريك لوروا دو كردونوا (Eric Leroy Du Cardonnoy) تحت عنوان:

"Les Turcs au XIXe siècle dans l'imaginaire collectif de la sphère habsbourgeoise", Revue Histoire culturelle de l'Europe, Légendes noires et identités nationales en Europe (fin Moyen Age-XIX^{e} siècle), no 1, 2016.

أنظر المقال على الموقع:

https://www.unicaen.fr

خاتمة

يتضح من خلال الفصول السابقة أن الرحلة موضوع هذا الكتاب، رحلة متميزة بكل المقاييس.

فصاحبها رجل نبيل ومستشار أحد أبرز حكام الكيانات السياسية في غرب أوربا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. خبر سياسة الكيان الذي رحل منه الى الشرق واكتسب تجربة في التعامل مع رجالات السياسة. وقد استطاع تسخير تلك الخبرة والتجربة في التواصل مع رجالات السياسة الذين التقى بهم خلال رحلته وفي رؤية أبرز حكام كيانات المشرق عن كثب. كما استطاع كذلك، تسخير تلك الخبرة والتجربة في استيقاء معلومات ذات صلة بالمهمة التي رحل من أجلها.

ويمثل النص الذي صاغه بعد عودته، الى جانب نماذج قليلة جدا، كالنص الذي وضعه غليوم الروبروكي والنص الذي وضعه ايمانويل بيلوتي، نوعا خاصا من النصوص الرحلية الى الشرق يختلف عن النصوص الرحلية التي وضعها الرحالة الأوربيون الذين زاروا الشرق خلال العصر الوسيط. بل يختلف حتى عن النصوص التي وضعها معظم الرحالة منذ بزوغ الأزمنة الحديثة حتى أواخر القرن التاسع عشر.

فمعظم رحالة العصر الوسيط، ان لم نقال كلهم، رحلوا الى الشرق من أجل أداء مناسك الحج. بينما رحل اليه معظم رحالة الأزمنة الحديثة، من أجل التمتع بسحره أو من أجل البحث عن الذات. أما برتراندون دو لا بركيير، والرحالة الآخران الواردة أسماؤهما، فرحلوا الى الشرق من أجل القيام بمهمة محددة وهي الاستطلاع أو الاستخبار كما وضحنا ذلك.

وتبعا لذلك، لم يحفل برتراندون دو لا بركيير كثيرا بالحديث عن البقاع المقدسة أو المعالم الدينية رغم أنه أدى مناسك الحج على الوجه الأتم كما يؤديها سائر الحجاج المسيحيين وخصص حيزا من نص الرحلة تطرق فيه لتلك المناسك ولما أحاط بها من أحداث. وعلى العكس من ذلك، أطنب في وصف المعالم الطبيعية والمسالك البرية والمجاري المائية والمرافئ والمنشآت الحضرية. كما أطنب في الحديث عن أزياء بعض الفرسان الذين رآهم. كما أسهب في وصف القلاع والحصون وفي الحديث عن طرق العثمانيين في خوض الحروب وعن أنواع الأسلحة المستعملة في تلك

الحروب وعن نمط عيش الناس وسلوكهم ومواقفهم الذهنية. وخصص حيزا من نص الرحلة توقف فيه مليا عند الطرق التي يمكن اعتمادها لتخليص العالم المسيحي من قبضة العثمانيين.

وقد حرص، وهو يدون مشاهداته وانطباعاته، على أن يكون واقعيا وأمينا في نقل الحقيقة كما هي دون تقصير أو مغالاة أو تركيز على مظاهر الإختلاف بين الشرق والغرب كما فعل معظم رحالة العصر الوسيط.

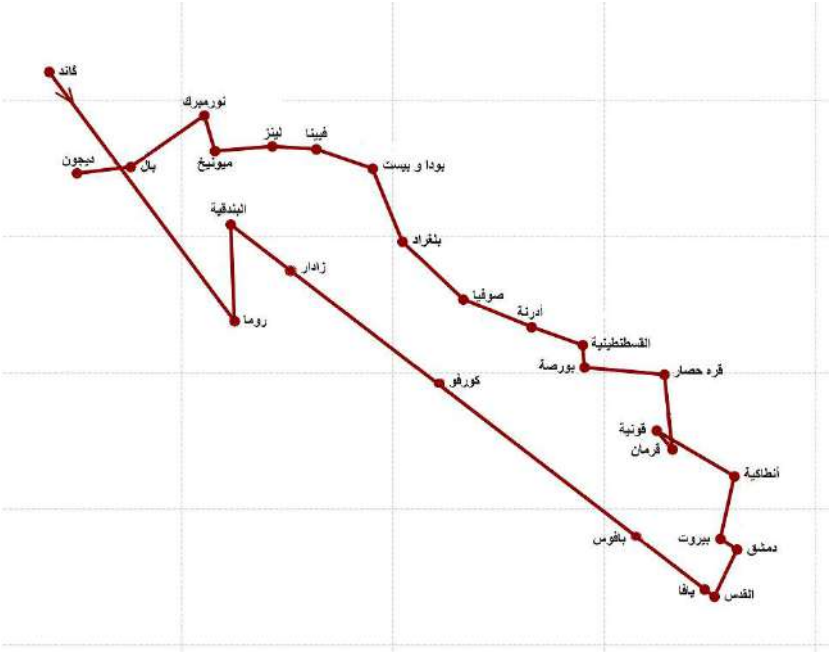
وفي ضوء ذلك، نستطيع القول بأن نص رحلة برتراندون دو لا بركيير يكتسي قيمة بالغة الأهمية بالنسبة للباحثين في تاريخ المشرق العربي وفي تاريخ بيزنطة وفي تاريخ العثمانيين خلال القرن الخامس عشر عموما وخلال عهد السلطان مراد الثاني بوجه خاص. لأنه يتضمن فيضا من المعلومات حول مختلف مناحي الحياة وعلى جميع الأصعدة والمستويات.

ولكن حضور هذا النص في الأبحاث والدراسات التي أنجزها الباحثون العرب، حضور باهت جدا رغم أن محمود زايد وضع رهن اشارتهم الصفحات المتعلقة بفلسطين وبلاد الشام نقلا عن النسخة الأنجليزية.

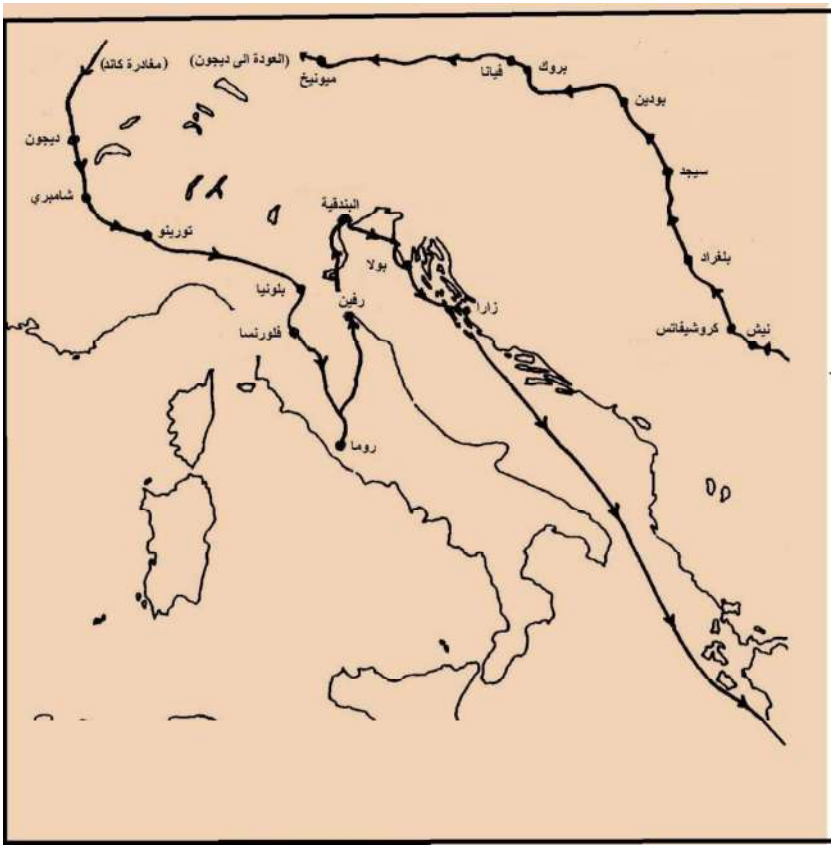
ولا شك أن ما يبرر هذا القصور، هو أن النسخة الأنجليزية أقل تداولا بين الباحثين، وان النص الأكثر تداولا، هو النص الذي حققه شارل شيفر. وهو نص قيم مقارنة بالنص الأنجليزي ولكنه مكتوب بلغة صعبة لا يمكن للباحثين العرب استيعابها، خاصة وأن معظمهم من الأنكلفونيين.

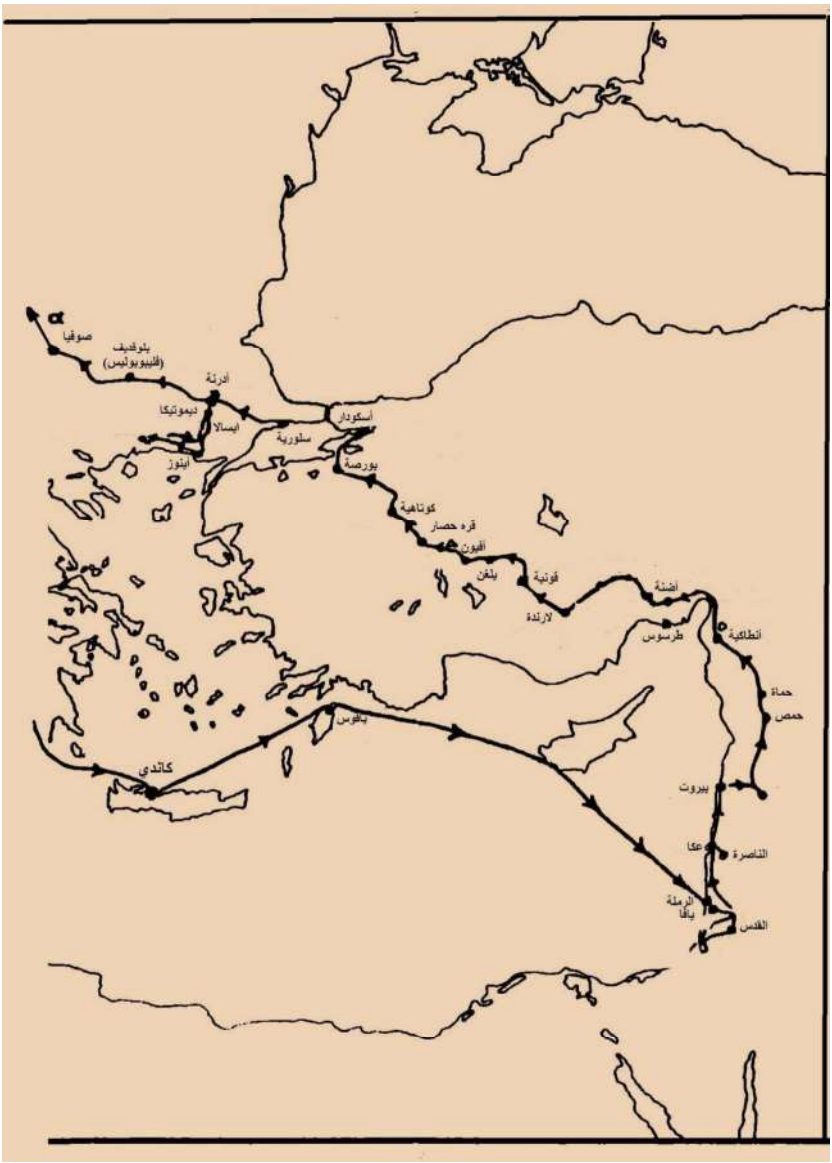
ونتمنى أن نكون قد وفقنا في نقله الى هؤلاء الباحثين والى عموم قراء العربية. كما نتمنى أن نكون قد نجحنا، في الوقت ذاته، في اماطة اللثام عن هذا النص الثمين الذي يستحق أن يكون موضوع أبحاث ودراسات.

رسم تخطيطي مبسط لمسار رحلة برتراندون دو لا بركيير



نسخة معربة بتصرف لخريطة مسار رحلة برتراندون دو لا بركيير وضعها الهان أرضا في الصفحتين 24-25 من كتابه الذي سبقت الإحالة عليه




صوفيا
بلوفديف
(فيليبوبوليس)
ادرنة
ديموتيكا
ايسالا
سلورية
أسكودار
بورصة
أنقرة
كوتاهية
قره حصار
أفيون
بلغن
قونية
لارندة
أضنة
طرسوس
انطاكية
حماة
حمص
بيروت
عكا
الناصرة
الرملة
يافا
القدس
بافوس
كاندي

قائمة منتقاة للمصادر والمراجع
المعتمدة في إنجاز الكتاب

أولا: مصادر إسلامية عثمانية

1- باشا لطفي بن عبد المعين الألباني (توفي حوالي سنة 1562)، تواريخ آل عثمان أو الوقائع التاريخية للدولة العثمانية حتى عام 961 ه./ 1553 م.، ترجمة محمد عبد العاطي محمد، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة دون ذكر تاريخ الطبع.

2- خليفة حاجي مصطفى بن عبد الله (توفي سنة 1657)، فذلكة أقوال الأخيار في علم التاريخ والأخبار، تقديم وتحقيق سيد محمد السيد، دون ذكر تاريخ ومكان الطبع.

3- اللواتي الطنجي محمد بن عبد الله بن بطوطة (توفي سنة 1377)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق وتقديم الشيخ محمد عبد المنعم العريان، مراجعة وفهرسة مصطفى القصاص، دار احياء العلوم، بيروت 1987، جزءان.

ثانيا: مراجع عربية أومعربة

أ) كتب ودراسات

1- اينالجيك خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء الى الانحدار، ترجمة محمد الأرناؤوط، دار المدار الاسلامي، بيروت، 2002.

2- أوزتونا يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود - يلماز أوزتونالمان، مراجعة وتنقيح محمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، 1988.

3- بن دهيش عبد اللطيف بن عبد الله ، قيام الدولة العثمانية، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة 1995.

4- جوكتشة حسين وكولن صالح وجنتش لطيف، السلاطين الأوائل. عصر تأسيس الدولة العثمانية، ترجمة سمير عباس زهران، دار النيل، القاهرة، 2016.

5- حميدي اللهيبي فتحي سالم وبخيت الحديدي فائز علي، جوانب من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر المملوكي "تفسير جديد"، الموصل، منشورات جامعة الموصل، 2014.

6- خليل أحمد علي، الدولة العثمانية في سنوات المحنة (المقدمات، الوقائع والنتائج)، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، 2011.

7- ربيع حسنين محمد، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1983.

الزبيدي مفيد، العصر المملوكي، ضمن موسوعة التاريخ الاسلامي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان 2009.

8- زكار سهيل، فلسطين في عهد المماليك. من أواسط القرن السابع الهجري الى مطلع القرن العاشر الهجري، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، بيروت، .1990

9- السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.

10- شاكر محمود، التاريخ الاسلامي، الجزء السابع، العهد المملوكي، المكتب الاسلامي، بيروت، 2000.

11- شوني جون كلود، تاريخ بيزنطة، ترجمة جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2008.

12- طقوش محمد سهيل، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، (648 ه - 923 ه/ 1250 م - 1517 م)، دار النفائس، بيروت، 1997.

13- طقوش محمد سهيل، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة الى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس، بيروت، 2013.

14- طه مكي الرديني يوسف عبد الكريم، المؤسسة العسكرية العثمانية، (1839-1299) دراسة تاريخية، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، عمان، 2014.

15- عاشور سعيد عبد الفتاح، العصر المملوكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة 1976.

16- عبد الهادي شريف عبد الحميد محمد، نيابة طرابلس الشام في عصر سلاطين المماليك (688ه -922ه / 1289م – 1516م) دراسة تاريخية، دار التعليم الجامعي للطباعة والنشر والتوزيع، الاسكندرية، 2018.

17- قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى، نصوص ووثائق، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والانسانية، القاهرة، 2001.

18- متولي أحمد فؤاد، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، ايتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005.
19- مجموعة مؤلفين، تاريخ الدولة العثمانية، إشراف روبير مونتران (Robert Montran)، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1992، جزءان.
20- مشعل عمر موسى، "من تاريخ الحركة العمرانية بفلسطين في العهد المملوكي"، حوليات القدس، العدد 12، شتاء 2011، ص ص. 63-85.
21- نسيم يوسف جوزيف، تاريخ الدولة البيزنطية (1453-284)، دار المعرفة الجامعية للنشر والتوزيع، الاسكندرية، 2005.
22- ياغي إسماعيل أحمد، الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، 1995.

ب)- مقالات

1- زايد محمود، "رحلة برتراندون دي لابركيير الى فلسطين ولبنان وسورية (1432م.)"، الأبحاث، مجلة تصدرها هيئة الجامعة الأمريكية ببيروت، السنة الخامسة عشرة، الجزء الثالث، شتنبر 1962، ص.ص. 299-335.
2- النويهي جبور، "الرحلة وكتب الرحلات الأوربية الى المشرق حتى نهاية القرن الثامن عشر"، مجلة الفكر العربي، العدد 32، أبريل-يونيو 1983، ص.ص. 58-69.

ثالثا: مصادر مسيحية

1- Chalcondyle Laonicos (mort en 1490), Histoire générale des Turcs, traduction Blaise de Vigenaire, Paris, Avevstin Covrbe Éditeur 1662, 2 tomes.

2- Chartres Foucher de, Histoire des croisades, édition et traduction François Guizot, Collection des mémoires relatifs à l'histoire de France, Paris, J-L-J. Brière Libraire,1825.
3- Chastellain Georges (mort en 1475), La Chronique des ducs de Bourgogne de Georges Chastellain, publiée par Jean Buchon, Paris, Verdière Libraire, 1827, 2 tomes.

4- Doukas (mort après 1462), Histoire turco-byzantine, introduction, traduction et commentaire, Jean Dayantis, thèse de Doctorat en histoire soutenue en décembre 2004 à l'Université Paul Valéry, Montpellier III , exemplaire dactylographié.

5- Froissart Jean (mort vers 1410) , Œuvres de Froissart. Chroniques, publiées par le baron Kervyn de Lettenhove, Bruxelles, Victor Devaux, 1867-1877, Vol. VX.

6- Mathieu d'Escouchy, (mort vers 1482), Chronique publiée par Gaston du Fresne de Beaucourt, Paris, Jules Renouard, 1863, tome II.

7- Monstrelet Enguerrand de (mort en 1453), Chronique, publiée par Louis Douet d'Arcq, Paris, Jules Renouard, 1857, Tome V.

8- Olivier de La Marche (mort en 1502), Mémoires, publiés par Henri Beaune et Jean d'Arbaumont, Paris, Jules Renouard Libraire, 1883-1888, 4 vol.

9- Rubrouck Guillaume de (mort vers 1295), ambassadeur de Saint Louis en Orient, récit de son voyage, trad. Fr., Louis de Backer, Paris, Ernest Leroux, 1877.

رابعا: مراجع أجنبية

أ) كتب ودراسات

1- Bachet Émile, Examen critique des voyages et ambassades de Guillebert de Lannoy (1399-1450), Bruxelles, Wouters, Raspoet et compgnies, Imprimeurs-libraires, 1843.

2- Balivet Michel, Lissen- Pezechki Homa et Mounier René, Les Turcs seljoukides d'Anatolie du XIe aux XVe siècles, Aix- en-Provence, Presses Universitaires de Provence, 2017, Vol. 1.

3- Bréhier Louis, Le monde byzantin.Vie et mort de Byzance, Paris, Albin Michel, 1969.

4- Calmette Joseph, Les grands ducs de Bourgogne, Paris, Albin Michel, 1949.

5- Chareyron Nicole, Les Pèlerins de Jérusalem au Moyen Âge: L'aventure du Saint voyage d'après Journaux et Mémoires, Paris, Imago, 2000.

6- Cox John k., The History of Serbia, Westport, Greenwood Press, 2002.

7- De la Roque Jean, Voyage de Syrie et du Mont-Liban, Editions Herman Uytwerf, Amsterdam, 1723, 2 Volumes
8- Diehl Charles, Byzance. Grandeur et décadence, Paris, Flammarion, 1919.
9- Guer Jean-Antoine, Mœurs et usages des Turcs. Leur religion, leur gouvernement civil, militaire et politique avec un abrégé de l'histoire ottomane, Paris, Coustelier Libraire Éditeur 1747, 2 Tomes.
10- Guillot Renée-Paul, Les ducs de Bourgogne, Paris, Éditions Fernand Lanore, 1998.
11 - Hentsch Thiery, "L'Orient imaginaire. La vision politique occidentale de l'Est méditerraneen, Paris, Les Éditions de Minuit, 1988.
12- Jefferson Jean, The holy wars of king Wladislas and sultan Murad. The ottoman-christian conflict from 1438-1444, Brill, Leiden-Boston, 2012.
13- Morrisson Cécile et Laiou Angeliki , Le monde byzantin, Tome III, l'Empire grec et ses voisins (XIIIe-XVe siècle), Paris, P.U.F., 2011.
14- Paviot Jacques, La politique navale des ducs de Bourgogne. 1384- 1482, Lille, Presses Universitaires de Lille, 1995.
15- Richard Jean, Les ducs de Bourgogne et la formation du duché du XIe au XIVe siècle, Paris, les Belles Lettres, 1954.
16- Runciman Steven, The Last Byzantine Renaissance, Cambridge University Press, Cambridge, 1970.
17- Schnerb Bertrand , L'État bourguignon, Paris, Perrin, 2005.
18- Sedlar Jean W., East Central Europe in the Middle Ages, (1000-1500), Washington, University of Washington Press, 1994.

ب) أبحاث ضمن مؤلفات جماعية

1- Paviot Jacques, "Les nouvelles de Levant à la cour de Bourgogne", in Pays bourguignons et Orient : diplomatie, conflits, pèlerinages, échanges (XIVe-XVIe siècles), Publications du Centre Européen d'Etudes Bourgui- gnonnes, volume 56, 2016, pp. 27-40.
2- Jim Magee, "Le Temps de la croisade bourguignonne : l'expédition de Nicopolis", in Nicopolis 1396–1996, livre sous la direction de Jacques Paviot et Martine Chaunez-Bouikkot, Dijon, Société des Annales de Bourgogne, 1997, p.p. 55-….

3- Sophie Jolivet, "La construction d'une image: Philippe le Bon et le noir (1419-1467)", in Se vêtir à la cour en Europe 1400-1815, Ouvrage collectif, Ville-neuve d'Ascq, Publications de l'Institut de recherches historiques du Septen-trion, CEGES Université de Lille, 2011, pp. 27-42.

4- Stojkovski Boris, "Bertrandon de la Broquiere on Byzantium and Serbia. Richness and decline in the age of the Ottoman conquest of the Balkans", in Byzanz und das Abendland V. Studia Byzantino-Occidentalia, Eötvös-József-Collegium, Budapest 2018. pp. 175-187.

ج) مقالات

1- Ali Bacha Rabah et Baveye Laury, "Le mauvais coté de la croisade ? A propos d'un document établi par les chirurgiens de Philippe le Bon", Revue du Nort, no 380, 2009, pp. 491-510.

2- Brice William Charles,"The Turkish colonization of Anatolia", Bulletin of the John Rylands Library, John Rylands Library, Volume 38, 1955, pp. 18-44.

3- Doutrepont Georges, "Une participation inconnue à la croisade de Philippe le Bon contre les Turcs", Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres, 1916, pp. …..

4- Du Cardonnoy Eric Leroy, "Les Turcs au XIXe siècle dans l'imaginaire collectif de la sphère habsbourgeoise", Revue Histoire culturelle de l'Europe, Légendes noires et identités nationales en Europe (fin Moyen Age-XIX^{e} siècle), no 1, 2016.

5- Grunzwweig Armand, "Philippe le Bon et Constantinople", Byzantion, Vol., 24, no 1, 1954, pp. 47-61.

6- Kiev Machiel,"La diffusion de l'Islam dans les campagnes bulgares à l'époque ottomane (XVe-XIXe siècles). Colonisation et conversion", Revue du monde musulman et de la Mediterranée, 1992, pp. 39-53.

7- Lalanne Ludivic, "Des pèlerinages en Terre sainte avant les croisades", in Bibliothèque de l'École des Chartes, Paris,1845- 1846, Tome 2, pp.1-32.

8- Lushchenko Marina, "La figure du barbare turc dans le discours politique et civilisationnel français du moyen âge (XII^{e}– XV^{e} siècles)", Viator Multilingual, no 43, 2012, pp. 75-96.

9- Mehmed Izeddin, "Deux voyageurs du XV^{e} siècle en Turquie: Bertrandon de la Broquière et Pedro Tafur", Journal asiatique, 239, 1951, pp. 159-167.

فهرس المحتويات

توطئة 02
مقدمة 06
الفصل الأول
في التعريف ببرتراندون دو لا بركيير ورحلته 15
أولآ: في التعريف ببرتراندون دو لا بركيير 15
ثانيا: في التعريف برحلته 19

الفصل الثاني
دواعي الرحلة وسياقها التاريخي 24
أولا: دواعي الرحلة 24
ثانيا: سياق الرحلة 27
1) السياق في دوقية بورگونيا والغرب المسيحي . 27
2) السياق في الشرق 42
أ) دولة المماليك المتهالكة 42
ب) دولة العثمانيين الصاعدة 44
ج) إمبراطورية بيزنطة "المحتضرة" 53

الفصل الثالث
مسار الرحلة ومشاهدات وانطباعات برتراندون دو لا بركيير خلالها 58
أولا: المرحلة الفرنسية – الايطالية 60
ثانيا: المرحلة السلاڤونية (الكرواتية) - اليونانية – القبرصية 63
ثالثا: المرحلة الفلسطينية: برتراندون دو لا بركيير يؤدي مناسك الحج 64
رابعا: المرحلة اللبنانية – السورية 70
خامسا: المرحلة التركية: برتراندون دو لا بركيير يتمكن من دخول بلاطات ورؤية ملوك 91

1) برتراندون دو لا بركيير يتمكن من دخول بلاط إيقونيوم ورؤية الملك إبراهيم بك 100
2) برتراندون دو لا بركيير يتمكن من دخول بلاط القسطنطينية ورؤية الإمبراطور يوحنا الثامن باليولوگ 114
3) برتراندون دو لا بركيير يتمكن من رؤية السلطان مراد الثاني عن كثب بعد عودته من رحلة قنص واستجمام 124
4) برتراندون دو لا بركيير يتمكن من دخول بلاط أدرنة ورؤية السلطان مراد الثاني على أريكة الحكم 129
سادسا: المرحلة الصربية – البلغارية: برتراندون دو لا بركيير يتأمل في أوضاع مسيحيي وسط أوربا ويقدم مقترحا لتخليصهم من قبضة العثمانيين 134
سابعا: المرحلة النمساوية 151
ثامنا: المرحلة الباڤارية 156
تاسعا: برتراندون دو لا بركيير يدخل مجال دوقية بورگونيا 158
ملحق: تقرير يوحنا طورسيلو وتعقيب برتراندون دو لا بركيير عليه 160
أولا: تقرير يوحنا طورسيلو 160
ثنيا: تعقيب برتراندون دو لا بركيير على التقرير 162

الفصل الرابع
ملاحظات حول مشاهدات برتراندون دو لا بركيير وانطباعاته خلال مراحل الرحلة 167
أولا: حول شخصية مراد الثاني والبلاط السلطاني 168
1) شخصية السلطان مراد الثاني 168
2) البلاط السلطاني 170
ثانيا: النظام العسكري العثماني حتى عهد مراد الثاني 173
1) حول عدد جنود الجيش العثماني 173
أ) معركة كوسوڤو 177
ب) معركة نقبوليس 178
ج) بعض المعارك التي خاضها العثمانيون في عهد مراد الثاني 179
2) حول طرق العثمانيين في خوض المعارك 182
3) سلوك الجنود 185
4) حول الأسلحة المستعملة في المعارك 188

5) حول أزياء الجنود 191
ثالثا: التحصينات العسكرية العثمانية على الطريق البري الذي سلكه برتراندون دو لا بركيير أثناء العودة 193
رابعا: أوضاع بعض الحواضر والقرى التي زارها برتراندون دو لا بركيير 199
1) أوضاع مدن فلسطين وبلاد الشام 199
2) أوضاع مدن وقرى منطقة الأناضول 202
خامسا: حول طبائع مجتمعات المناطق التي زارها برتراندون دو لا بركيير 204
1) في فلسطين وبلاد الشام: بعض الأمكنة موحشة وبعض العرب طبعهم حاد 204
2) في منطقة الأناضول: قوم طيبون ومتواضعون 207

خاتمة 210

رسم تخطيطي مبسط لمسار رحلة برتراندون دو لا بركيير 212
نسخة معربة بتصرف لخريطة مسار رحلة برتراندون دو لا بركيير 213

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في انجاز الكتاب 215